أحلام مستغانمي

شهيّاً كفراق

مكتبة نوميديا 84
Telegram@ Numidia_Library

نوفل

شهيًّا لِفراق

أحلام مستغانمي

شهيًّا كفراق

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

خط الغلاف: عبد الرزاق حمودة
صورة المؤلّفة بعدسة: رودريك زهر
تصميم الداخل: ماري تريز مرعب
تحرير ومتابعة نشر: رنا حايك
طباعة: المطبعة العربية

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-625-5
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-626-2

إهداء

فليكن...
ما دام سُعاة البريد جميعهم قد خانوا صندوق بريدنا،
هذه رسائل لا صندوق بريد لوجهتها عدا البحر،
أبعثها في زجاجة، إلى الذين لم يعد لهم من عنوان
لنكتب إليهم.

بدءًا..

هذا زمن الوصفات الجاهزة: كيف تصبح ثريًّا، كيف تغدو سعيدًا، كيف تتقن الطبخ، كيف تتعلّم الإنكليزية، كيف تقوّي جهاز مناعتك، كيف تدير وقتك، كيف تفوز بقلب حبيبتك، كيف تختار وجهتك، وتوضّب حقيبة ذاكرتك. كيف تكون شخصًا محبوبًا. كيف تكسب جبالًا من الحسنات في دقائق، وتخسر كيلوغرامات من الدهون في أسبوع، كيف تكسب المزيد من الأصدقاء في حسابك، وكيف تستعدّ لآخرتك ويوم حسابك.. وكيف تغدو خبيرًا في شؤون القلب وشجونه، وتقلّباته وجنونه، ولا تبكي ولا تشقى بعد اليوم بسبب أحد.

لا أعرف شيئًا من كلّ ما سبق، لأنّني لم أملك يومًا صبر قراءة وصفة إلى النهاية، حتى لو كانت وصفة دواء. فالقليل الذي تعلّمته علّمتني إيّاه الحياة، بثمن أغلى من سعر كتاب، لكوني قضيت جلّ عمري في تأمّل عجائبها، غير مصدّقة لمفاجآتها.

وما زلت، برغم خيباتي، أثق بالبشر. لكنّني حفظت الدرس الأهـمّ: لا شيء يستحق الحزن، فثمّة دائمًا أمر في علم الغيب، لا ندري به بعد، سيأتي في الوقت المناسب، لمواساتنا. لكنّنا قبل ذلك

سنكون قد بكينا كثيرًا، وفتحنا مجالس عزاء، وأعلنّا الحداد، وأخذنا العالم مأخذ الجد، لأنّ أحدهم وعدنا بأحلام أبديّة، ثمّ مضى إلى الأبد.

صدمة بعد صدمة نبلغ سنّ الحكمة. نكتشف أنّ قليلين هم الذين يستحقون حزننا عليهم، وقليلة هي الأشياء التي يشكّل فقدانها خسارة فادحة لنا، وأنّنا غالبًا لا نخسر في قصص الحبّ سوى أوهامنا. متأخّرين نتعلّم ما هو الأهم. في الحياة نتعلّم من جيوبنا، وفي الحبّ من قلوبنا، ثمّ ينتهي بنا الأمر أن نقول «كفى» لأنّ كفًّا من الحياة أيقظتنا.

لست هنا لأنّني أمتلك وصفة أو أجوبة، بل لأنّني كاتبة، فالكتابة هي ما أتقنه حقًا. لذا، على مدى عمر، كتبت كثيرًا عن العواطف في تضادّها، وفي ذهابها وإيابها، عن علوّ الأحاسيس وانهياراتها، عن النفس البشرية وتناقضاتها بين واجب الحكمة ونوازع الأهواء، عن تلك الأسهم النارية التي ترافق ميلاد المشاعر، وعن انطفاء حرائق اللهفة، ورماد النهايات وموت الكلمات، واحتضار الأمل على مرأى من الأمنيات..

أصبت غالبًا وحدث أن أخطأت، وما زلت أتأمّل في دهاليز النفس البشرية ومتاهاتها. فللكاتب واجب تأمّلي تجاه المشاعر، ما دامت العاطفة هي ما يحكم الناس في الحياة، وما يحرّك الأبطال في الروايات، وهي التي، بمنطقها المجنون، تحكم العالم. أما قالت الكاتبة جوانا ترولوب «مأساة العالم هي أنّ الرجال يحبّون النساء، والنساء يحببن الأطفال، والأطفال يحبّون القطط»؟

ربّما كان عليها أن تضيف إلى حبّ الأطفال للقطط، حبّ الصينيّين أيضًا لها، حدّ مطاردتهم إيّاها أينما وُجدت، لتنتهي طبقًا على موائدهم!

ذلك أنّه في الفرق بين من يحبّ القطط ليدللها، ومن يحبّها ليلتهمها، تكمن مأساة العالم الحقيقية. فليس المهمّ من يحبّ من.. بل لماذا هو يحبّه؟ أدركنا هذا بعد أن دفعنا غاليًا، أفرادًا وشعوبًا، ثمن غبائنا العاطفي. فكم من الأمم أحبّتنا كذبًا وبهتانًا، ونهبًا وإجرامًا، حتى ما عدنا نصدّق اليوم من يقول إنّه يحبّنا لوجه الحبّ! أصبحنا نعيش ذعر العواطف، ولنا سوء ظنّ بالمشاعر. نخشى إن نلنا شيئًا أن ينال منّا، وإن أحببنا أحدًا أن نكون له وليمة أو غنيمة.

باختصار، نحن يتامى الحبّ وثكالى الأوطان.

من السهل لمن يريد أن «يصطاد» عربيًا في شوارع الغربة اليوم أن يتعرّف إلينا. لنا سمات الهوان، يشي بنا التيه ونقص الحنان، وذعر اليتامى في غاب الحياة. إنّنا أبناء المصادفات، لا ندري أيّ مركب يحملنا، وأيّ موجة مُحسنة أو قاطع طريق ينتظرنا، وأيّ مصادفة سترمي بنا هنا أو هناك. قلوبنا في مهبّ الأمواج، ربما عثرت في بحار الحبّ العاتية على قبطان شهم ينقذها، وربّما صادفها قرصان من قراصنة القلوب، متنكّرًا في زيّ عاشق، فسطا على ما في حوزتنا، وسرق شهورًا أو سنوات من أعمارنا، قبل أن يرفع الشراع مُقلعًا نحو وجهة ثانية، تاركًا إيّانا في عرض بحر الندم، من دون سترة نجاة، في انتظار مركب ينتشلنا. ولا زورق يلوح في الأفق...

«لا تندهي ما في حدا»، فالبحر لا يحمل اليوم سوى الجثث، وزوارق من ورق، وقصص حبّ على شاشة هاتف ككلمات من زبد، يتمسّك العشّاق بقشّة وهمها، فلا تزيدهم في النهاية إلّا غرقًا.

في زمن المروءة والجود، كان العرب يُوقدون النار في مكان مرتفع، حتى يراها تائه في الصحراء أو عابر سبيل، فيقصدهم للأكل أو للمبيت. اليوم «ما حدا لحدا»، ليس معنيًّا بغرقك أو حرائقك أحد،

بل إنّ من كان يشعل النار في الماضي ليُولم لك، هو نفسه اليوم من يضرم النار في بيتك.

إنّه زمن الأنانيّة، أوصلنا إلى الإقلاع حتى عن مشاهدة نشرة الأخبار المسائيّة، كي لا يلمح لاجئ أو نازح من الخارج نور التلفزيون، فيتوهّم أنّ ضميرنا ترك له النور مُضاءً أثناء مشاهدة مأساته، ويقصدنا عند الحاجة. انفرطنا كحبّات سبحة، ولن يلملم أحد بعد اليوم حلمنا بالوحدة، فقد استفردوا بنا وطنًا وطنًا، حدّ اعتيادنا رؤية الدمار، ومشهد أوطان تختفي واحدًا تلو الآخر تحت الأنقاض، فما عدنا معنيّين سوى بإنقاذ أنفسنا.

دخلنا دوّامة الأهوال. ها نحن شعوب معلّقة إلى أبواب القاطرات. ما عاد همّنا إنقاذ الوطن، كلٌّ منّا يريد إنقاذ نفسه، الكلّ يركض للّحاق بفرصته الأخيرة، فقطار الهروب من الجحيم لا ينتظر.

هكذا، غدا للقطارات والطائرات والمراكب دور البطولة في قصص حبّنا. كلّ حلمنا أن يجمعنا بها القدر، وأن يباركنا بوليس الحدود حين تحطّ بنا في مرفأ أو مطار. فنعقد قراننا على بلاد خلف البحار، نُرزق منها بنين وبنات، يحملون هويّات أجنبيّة، ولا تفضحهم عروبة الجينات.

ماذا تنتظرون منّي إذن وسط هذا الإعصار؟ كيف يبدع من هو متعلّق إلى القطار بيد، وبالثانية يكتب ليصف المشهد؟ مَن تارة يمرّ بمنظر جميل وتارة يمرّ بنفق، بينما الناس يصعدون وينزلون، ويتدافعون من حوله ليفوزوا بمقعد احتياطي للانتظار، يقعون في الحبّ حال الصعود، ويفترقون قبل محطّة الوصول! فعشق اليوم يدوم مسافة محطّة، وعليك أن تواسي العاشق المخدوع، وتقنع عاشقة تسافر من دون تذكرة عودة، بأنّ عليها النزول، وعليك أن تُحكم إغلاق النوافذ كي تمنع أخرى من الموت في حادث حبّ، وتنصح

آخر بالتريّث وعدم تصديق الحبّ المستعجل الذي يلوّح له بمنديل الوعود. وفي النهاية، بين ذاك وذا، ستضيع جهودك سدى، ولا من يتّعظ، فلا أحد يدري إلى أين يمضي به قطار الجنون المزدحم بمن يحسبون أنفسهم عشّاقًا، وما أكثر العشّاق وما أقلّ العشق!

لا بدّ من وضع تنبيه جديد، من النوع الذي يوضع عادة في الحافلات لحثّ المسافر على ترك مقعده لامرأة حامل أو لراكب مسنّ. لافتة يُكتب عليها مثلًا:

«انتبه أيّها المسافر. قد يأتي الحبّ كرفيق مصادفة، ثمّ تُفاجأ به يلازمك. اترك له مقعدًا شاغرًا جوارك، كي يستدلّ عليك وسط الزحام. ذلك أنّه يصل عندما تكون مزدحمًا بكلّ شيء عداه».

هكذا هو الحبّ. يأتي للذين لا وقت لديهم لاستقباله، يحضر للمنشغلين عنه لا للّذين ينتظرونه، لا للمتهيّئين له، بل للّذين أهملوا أنفسهم بعدما يئسوا من مجيئه. ولا شيء يحلو له أكثر من أن ينزل كصاعقة على ضحاياه، وهم في عزّ المصائب والحروب والأوبئة والكوارث. لذا تُعدّ ثنائية الحبّ والحرب أكثر ما يغذّي الأدب. مذ أوديسة هوميروس حتى «الحبّ والحرب» لهمنغواي و«ذهب مع الريح» لمارغريت ميتشل و«الدكتور جيفاغو» لبوريس باسترناك و«الحبّ في زمن الكوليرا» لماركيز، و«نجمة» لكاتب ياسين، كلّ الأعمال الخالدة استندت إلى هاتين الحقيقتين. ذلك أنّ للحبّ قرابة بالموت. «الحبّ موت صغير» يقول ابن عربي، شيخ المتصوّفة، والإنسان في ذعره من الموت الكبير، يهرب إلى الموت الأصغر والأجمل، مراهنًا على أبديّة العواطف في مواجهة أبديّة الفناء، فيقع في قبضة الحبّ.

ويحدث أن يكتفي الإنسان بفعل الحبّ، بوصفه لجوءًا جسديًا

مهرب. يلجأ بالفطرة لحماية نفسه بالتكاثر، وبالحبّ الوقائي، الذي أنعم الله به علينا، لنسكن إليه عند المصائب. والدليل على ذلك أنّ أعلى نسبة للزواج سُجّلت في نيويورك، كانت في الفترة التي تلت أحداث 11 سبتمبر، كما يحدث في المدن التي تعرف الحروب والكوارث. ففي مواجهة القصف العشوائي للحياة، يفضّل الناس أن يفتك بهم الحبّ، على أن تفتك بهم القنابل. وفي هذه الحالة، لا يعودون معنيّين بالإرشاد الأسري. وحدها غريزتهم للبقاء ترشدهم لمزيد من الإنجاب، وهذا ما يفسّر العدد الهائل للأطفال الذين نراهم في أحضان ذويهم، في رحلة النزوح العابر للبلدان، وأعمارهم من عمر الصراعات.

في زمن التيه، والحبّ الذي يعاشر الموت لينجب منه جيلًا من البائسين، لمن أكتب هذا الكتاب؟ وأنا لم أصادف، في قطار الحبّ كما في قطار الحياة، سوى «المهابل، شي طالع شي نازل» من قطار الأوهام. هناك من تراه مغرمًا، ومن يخال أنّه كذلك، وهناك من يعيش الوهم العشقيّ، ومن هو عاشق ولا يدري أنّ كلّ عاشق مفارق، ومن كان يودّ لو... لكنّه لم... فلملم أحلامه وما عاد ينتظر معجزة العثور على رفيق لما بقيَ أمامه من طريق.

الحقيقة أنّني لا أكتب لأحد، ولا أدري ما سأكتبه بالضبط، فهذا الكتاب لنفسي أولًا، ولعلّها الوصفة المثالية لإنجاز كتاب ناجح. لذا لا بأس أن تأتي بعض أفكاره كيفما اتفق، فعندما نحدّث أنفسنا لا نحتاج إلى الكلام المنمّق، ولا إلى البحث عن منطقٍ في ما نقوله. نحن نكتب بروح عارية. الكاتب يتعرّى نيابة عن قرّائه ويرتكب جرائم حبر في حق نفسه، ليبقى شرف القارئ مصونًا..

هذا الكتاب تخطيط طبّي لقلب متعب، تعلو وتهبط خطوط قناعاته، وتتسارع وتتعطّل نبضاته، ولا أمل في انتظام دقّاته وإنقاذه

من السكتة القلبية، إلّا بالسكوت عن الوجع الحقيقي، ومحاولة الضحك. ذلك أنّني عرفت أكثر ممّا تمنّيت أن أعرف، وفهمت أكثر ممّا كان ينبغي لي أن أفهم، لذا فقدت الرغبة في الكتابة. ثمّة رحمة في عدم إدراك كلّ شيء!

من حقّي، رفقًا بصحّتي، أن أواصل بين الفينة والأخرى الكتابة بخفّة الحالمين، كما لو أنّه لا همّ لي، بعدما بكيت في معظم ما كتبته، لأنّ أمّة غير معنيّة بمرضي بها، كانت كلّ همّي.

العظيم فولتير، الذي قضى عمره في الدفاع عن المساواة وكرامة الإنسان وحرّية العقيدة والحرّيات المدنيّة، قال بعدما استنزفته المعارك: «قرّرت أن أكون سعيدًا، فذلك مفيد للصحّة». ومثله قرّرت ذلك.

يبقى أنّ العربي لا يمكن أن يكون سعيدًا ما دام يتقدّم ملتفتًا خلفه، مصرًّا على الاحتفاظ بذاكرته. السعداء أناس بلا ذاكرة، ليس في جعبتهم شيء يستحق أن يُروى، أو من شأنه أن يصنع أعمالًا أدبيّة عظيمة، أو أن يُبكي قارئًا. باختصار، عليّ أن أختار بين أن أكون سعيدة.. أو أن أكون كاتبة. أن تكتب يعني أن تتذكّر، وأن تتذكّر يعني أن تشقى. لذا لم يحدث أن استقام الجمع بين السعادة والأدب، ولا بين السعادة والعرب، فأوّل ما نطق به شاعر عربي كان «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل». ومن يومها ولعنة امرئ القيس تطاردنا.

أربعة عشر قرنًا من البكاء على حبيب، أو بيت.. أو وطنٍ تركناه وراءنا.

لعلّي نجحت في أن أكون سعيدة يوم توقفت عن الالتفات إلى الخلف. جون أوزبورن، صاحب مسرحيّة «انظر إلى الوراء بغضب» التي كتبها وهو في السادسة والعشرين من عمره، انتهى به الأمر مع العمر أن قال «منذ تخلّيت عن كلّ أمل بدأت أشعر بتحسّن عظيم».

كيف لم ننتبه إلى هذا الحلّ البديهي لأوجاعنا، الذي قد يكون فيه شفاؤنا العاطفي من الآمال الواهية التي تبقينا في انتظار ذاك الذي يأتي ولا يأتي؟ ذاك الحلّ الذي يجعلنا نأخذ مستقبلنا باكرًا بأيدينا، بدل تقبّل صدمة عدم مجيئه! فنحن – أفرادًا وشعوبًا – نحبّ الوعود الكاذبة، والجلوس على المقاعد الاحتياطية للانتظار، ونحبّ الأكاذيب الجميلة التي تصنع سعادتنا لحين، مقابل هدر أعمارنا. ولو كان لنا كأمّة من أغنية يمكن أن تختصر حالتنا لأيّ طبيب نفسي، لكانت أغنية فيروز «تعا ولا تجي واكذب عليّي... قلّي إنّو رح تجي وتعا.. ولا تجي». فنحن ندري أنّ الحبّ يكذب، وأنّ الحاكم يكذب، وأنّ الفضائيّات لم يحدث أن صدقت، لكنّنا نواصل الاستماع للحبّ، والتصويت للحاكم، ومتابعة نشرة الأخبار.

لعلّ أوزبورن يعني أنّه استعاد عافيته يوم فقد الأمل بتغيير المجتمع، وبتغيير حياته الخاصّة (بعد خمس زيجات فاشلة!). ما أعرفه هو أنّ في قطع الأمل نهائيًّا شفاءنا، أمّا شقاؤنا فهو في الانتظار المفتوح على المزيد من الانتظار، وفي تعلّقنا بالحبال المهترئة للأوهام، واعتقادنا أنّ ما مضى بإمكانه أن يعود، ما يدفعنا لتأجيل الحياة إكرامًا للذكريات، وللتخلّف، بكلّ حماقة، عن موعدنا مع السعادة.

تمارين السعادة تبدأ بقطع العلاقة مع مصدر ألمك، وعدم الالتفات خلفك. إن كنت لا تستطيع أن تغيّر قدرك، فلا تقدّم قلبك الصغير، الذي يزن في حدود 350 غرامًا، (وهو وزن أيّ قطعة ستيك في مطعم أميركي!)، طبقًا شهيًّا للأحزان. قليل من الحزن مسموح، وبعض البكاء جائز، لكنّ إنقاذ نفسك واجب، فأمامك طريق لا بدّ لك من مواصلتها، وتحتاج إلى صحّتك ولياقتك ونسيانك لتقطعها، وإلاّ فلن تمضي بحمولتك أبعد من نفسك. فلا أصعب من حمولة تحملها

في طريق موحش تمشيه وحدك، لأنّك لم تضع في حسبانك الفراق. قلت الفراق..؟ يا للكلمة!

كيف لصاعقة أن تكون كلمة؟!

إنّه هزّة وجدانيّة خارج التوقّعات الجيولوجيّة، زلزال لم يضع له ريختر درجة في سلّمه لأنّ ارتدادته قد تمتدّ لأعوام، يأتي على كلّ بنيان خلته سقفك الأبدي، وما ظننته يستند إلى أحجار الدومينو، وآيل للسقوط يومًا، لأنّ حجرًا صغيرًا مال.

«أين يكمن الخلل؟» يسأل قلبك. تكتشف حماقتك وأنت تراجع مستنداتك. كيف جعلت «إلى الأبد» وتد خيمتك، وصدّقت أنّك متّكئ على حبّ أبدي، فلم تحمِ نفسك من عواصف القلوب وتقلّباتها، برغم علمك بأنّ القلب سُمّي كذلك لتقلّبه؟

يا للحماقة!

كم على مدى عصور دفعت البشريّة من ألم في مآسي القلوب وأوجاعها، لاعتقاد المحبّين أنّ الحبّ شعور أبديّ، قبل أن يعثر خبراء الشأن العاطفي على حقيقة قلبت قانون العشق رأسًا على عقب، وأعفت المفارقين من ذنب عدم الوفاء بوعودهم بالبقاء مع المحبوب إلى الأبد. قرون من الغباء العاطفي، انهمرت خلالها أنهار من الدموع، وتحطمت جبال من القلوب، قبل أن يعلن لنا السادة الخبراء أنّ «الحبّ يدوم ثلاث سنوات» فقط لا غير، استنادًا إلى تطوّر المشاعر وتحوّلها مع الوقت من اللهفة إلى الفتور. لا لوم على المغادرين إذن، ما دمنا مبرمَجين وجدانيًّا للفراق. فاستنادًا إلى الأبحاث العلميّة، يجزم علماء النفس بأنّ للحبّ تاريخ صلاحية، وبما أنّ الحبّ لا يُشترى في علبة أو قارورة من صيدلية، يُكتب عليها تاريخ انتهاء مدّته، لم يدر العلماء كيف ينقلون لنا هذه الخبريّة، ورأفةً بنا تركونا لعشرين قرنًا مضت نتسمّم مع كلّ حبّ بوهم المشاعر الأبديّة!

باكرًا ينصرف العشّاق.

في صفّ السنة الثالثة – حبّ، يكونون قد غادروا. كلّ المقاعد شاغرة، وقائمة الطلبة عند النداء مزدحمة بالغائبين الذين رسبوا في امتحان «إلى الأبد». ذلك أنّ كلّ مناهج الحبّ اعتمدت «إلى الأبد» أول درس في أبجدية العواطف، ونسيت أنّ الحبّ لا يعيش بغير الإحساس الدائم باحتمالية الفقدان.

كيف لم ينتبه فقهاء اللغة لكلمتين غير موجودتين إلّا في السياسة العربيّة، ولا تنفعان لغير الشعر والأغاني الرومانسيّة، وعلى صغرهما تسبّبتا بمآسي ملايين البشر. كم من الاستبداد، وكم من الطغيان في كلمتي «إلى الأبد». فهل يولد الحبّ طاغية؟

من أجل الراسبين، القابعين «إلى الأبد» على المقاعد المدرسيّة، قلت لأكتب كتابًا أسرّب لهم فيه أجوبة الامتحانات، عساهم لا يشقَون بعد اليوم، بسبب كلمتين.. أو بسبب «كم كلمة يشبهوا النسمة في ليالي الصيف» كما غنّى عبد الوهّاب، كلمات سيتحوّل نسيمها في شتاء الوعود إلى أعاصير.

غير أنّني مع الوقت، فقدت حماستي لإسداء النصائح، وما عدت أريد أن أكون مرشدًا عاطفيًا للعشّاق التائهين في الأزقة المتفرّعة عن جادة الفراق.

ما يحتاج العاشق إلى سماعه ليس نصيحتك، بل ما يؤكّد له أنّه محقّ في قراره، حتى لو كان في خياره مصيبة. يريد أن يطمئنّ أنّه ماضٍ بجنونه نحو العافية لا الهاوية. هو يقرأك بحثًا عن نفسه لا عنك. يستشهد بما قلته يوم كنت عاشقًا فاقدًا صوابك، ولا يفهم أن تقول له الشيء وعكسه بعد حين، لا لأنّك تناقض نفسك، ولا لأنّك غير ثابت على رأي، بل لأنّ الحبّ يناقض نفسه، لأنّه ذروة المشاعر في تناقضاتها القصوى.

من يملك إذن جوابًا لمآسي القلوب التي تتكرّر منذ الأزل، ولا تتغيّر فيها إلّا أسماء العشّاق الطيّبين الأغبياء؟ الداء نفسه يتكرّر والخلافات نفسها، بين ظالم ومظلوم، وخائن ومخذول، ومفارق ومفجوع، يتبادل فيه الرجال والنساء بالتناوب أدوار الشرّ، فلا ملائكة في جنس البشر.

كيف تصدر حكمًا صائبًا في قصص تقوم على العالم السرّي والمتقلّب للمشاعر، يدّعي فيها كلّ جنس أنّه الضحيّة، فتطالبك النساء بالدفاع عنهنّ، والرجال بإنصافهم، ومهما كان صفّك، كان الله في عونك.. فحتمًا سيخونك اختيارك.

في النهاية، الكاتب مسؤول عمّا يكتب لا عمّن يقرأونه، وخاصّة إن غدَوا شعوبًا وقبائل من العشاق، يلحقون بك كما تلحق الأسماك، أفواجًا، بسمكة تتقدّمها، ولا أحد يدري لما هي بالذات دون سواها، إلّا إن كانت أسرع الجميع استشعارًا للخطر، لكونها أكثرها جبنًا!

الكتابة هروب، فهل تكون القراءة كذلك؟ وهل يكون الذين يلحقون بي في الواقع أسرى سابقين، فرّوا من معسكرات الاعتقال العاطفي، ويبحثون عن مأوى أو مشفى يلجأون إليه هربًا من أذى الحبّ وجرائمه العشقية، التي لا تختلف في نهاية العلاقة عن جرائم الكراهية؟

برغم ذلك، كلّ الذين أحبّوا قالوا إنّهم كانوا سيندمون لو لم يفعلوا. بل راحوا يمجّدون عذاب الحبّ حتى خلته قطعة شوكولا مرّة، من النوع الذي ألتهم منه الكثير أثناء الكتابة. «أمرّ عذاب وأحلى عذاب، عذاب الحب للأحباب»، تقول أمّ كلثوم، بينما لم يكتف فريد الأطرش بالعذاب بل كان جاهزًا للموت فداء حبيب غير معنيّ بموته «عش أنت إني متّ بعدك»، وقبله ذهب أحمد شوقي حدّ وصف جنازته والترحّم على نفسه، استجداءً لرأفة المعشوق «مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحّم عُوّده».

بربّكم.. صدقًا، هل ترون من فائدة في نصح أمّة على هذا القدر من المازوشية، والولع بالتضحيات الغبيّة؟!

سامحوني أحبّتي العشّاق، طالعوا كتابي هذا من باب المواساة ليس أكثر، فلا يمكن كتابة عمل جادّ عن الفراق. لا وصفة لي لفراق سعيد، ولا لأمّة تعيش أكثر مراحلها تعاسة، ويحلو لها تمجيد العذاب على أنّه سعادة، تمامًا كما تمجّد الهزائم على أنّها انتصارات، والخسارات على أنّها مكاسب.

إنّه مجرّد وصفة لفراق أقلّ حزنًا وكآبة، فبعد كلّ نهاية تهدي لنا الحياة بداية، وبعد كلّ عسر وعدنا الله بيسر، بل وكرّر سبحانه وعده مرّتين «فإنّ مع العسر يسرًا، إنّ مع العسر يسرًا».

في الكتابة أيضًا، قد تهدي لك الحياة مصادفة تيسّر لك أمر كتاب، وشخصًا يلهمك نصًّا جميلًا تعسّرت عليك كتابته لسنوات، لسبب تجهله أنت نفسك.

لماذا تأخّرت أيّها الكاتب.. ثمّ عدت بكتاب عن الفراق؟

ربّما بسبب أمّة أخذتك همومها من نفسك، فجفّ من الذهول حبرك، حدّ تخلّيك عن أحلام كانت كبيرة بحجم أوهامك، وأكبر فراق... فراق أحلامك!

أنت نفسك انفصلت عن نفسك. أول فراق وأقساه، فراقك للإنسان الحالم الواثق الذي كنته.

الجزء الأول

اكتب كأنْ لا أحد سيقرأك

1

أراك عصيّ الحبر

دعاني ناشري إلى الغداء. شابّ أربعيني، يرأس أكبر جمهوريّة لبنانيّة للكتب، بحكم شراكته مع مجموعة «هاشيت» الفرنسيّة الشهيرة. عندما بلغنا القهوة، أفصح الرجل عن سبب دعوته، وجاء سؤاله على طريقة الناشرين الغربيّين في مساندة كتّابهم حين يطول انقطاعهم عن الكتابة. قال «منذ خمس سنوات لم تصدري عملًا روائيًّا.. ما الذي تحتاجين إليه بالضبط لإنجاز رواية جديدة؟ هل ثمّة شيء يمكن أن نوفّره لك لتكتبي؟».

أربكني السؤال، وفاجأني أن تكون خمس سنوات قد مرّت منذ ذلك الحين، دون أن أصدر كتابًا. كيف مرّت.. وماذا فعلت خلالها. إنّه أمر مرعب!

فكّرت في سيوران القائل «لم أبكِ قطّ، فدموعي استحالت أفكارًا».

هل تعود قلّة إنتاجي الأدبي إلى كون أفكاري استحالت دموعًا، وأنّني لم أنتبه إلى الاستفادة من فائض حزني، وتحويل مجرى دموعي إلى عمل إبداعي؟ أمن الأفضل للكاتب أن يكون «عصيّ الدمع» أم «عصيّ الحبر»؟

عزائي أمام خسائري الأدبية، ما قرأته في دراسة طبّية تؤكد أنّ المرأة تعيش أكثر من الرجل، لأنّها تبكي بسهولة أكبر. ذلك أنّ القدرة الرهيبة على البكاء، التي تمتلكها المرأة، تمنحها إمكانية تفجير ما تختزنه في نفسها من حزن وأسى، بينما لافتقادهم هذه القدرة، يموت الرجال تحت وطأة أحزانهم بالنوبات القلبية والسكتات الدماغية.

الخيار إذن هو بين أن أُعمّر طويلًا وأترك أعمالًا قليلة، بعد أن أكون قضيت نصف العمر الذي كسبته بفضل البكاء.. في البكاء، أو أن «أقصف عمري» بقمع نزعتي لذرف الدموع، مقابل أن أترك بعد رحيلي أعمالًا إبداعية كبرى... تُبكي الآخرين!

أندم لأنّني ما كنت من أتباع أبي فراس الحمداني، ولا كنت يومًا عصيّة الدمع، ولا شيمتي الصبر. وعلى الذي يعجب لمصيبتي أن يعلم أنّني امرأة عاطفيّة من برج الحمل، وأن «يسأل دموع عينيَّ.. ويسأل مخدّتي» وكلّ المواويل وأغاني العويل التي تربّيت عليها في مراهقتي العاطفية والسياسية الأُولى، إذ بسبب كمّ الدموع التي ذرفتها آنذاك أمام الأفلام المصريّة، والنشرات الإخباريّة العربيّة، وجدتني اليوم مهدّدة بجفاف أدمعي وتصحّر بساتين أوهامي، حتى إنّ طبيب العيون فاجأني بأن وصف لي دمعًا اصطناعيًا لعلاج مرض نشاف الدمع!

ما توقّعت أن يأتي يوم أشتري فيه الدموع من الصيدليّة، بعدما غدا الدمع على أيّامنا السلعة الأكثر ندرة، نظرًا إلى كوننا استهلكنا في المصائب القوميّة كلّ الآبار الجوفية لدموعنا العربيّة.

إضافة إلى كلّ ذلك، أنا امرأة كسولة، أو «كسول» كما صحّح لي الدكتور غازي القصيبي رحمه الله، لا أجهد نفسي في مطاردة الكلمات، وإلقاء القبض على الأفكار، في انتظار هنيهة الإخصاب الإبداعيّة المباركة.

بالنسبة لي، لا جدوى من مراجعة «روزنامتي الشهرية» في الأدب. كما في الحياة، سأحبل في لحظة سهو خارج الأيّام المخصّصة للإخصاب، وخارج رحم المنطق الإبداعي، هكذا أنجبت رواياتي كما أولادي الثلاثة، وأظنّني وُفّقت فيهم جميعًا.

أذكر للراحل الكبير منصور الرحباني قولًا طمأنني: «إنّ الكسل أبو الإبـداع». بهذا المقياس بإمكاني أن أدّعي أنّني مبدعة. فعكس ما يشي به الكسل من انشغال عن الكتابة، هو دليلها وذبذباتها التي لا تخطئ.

يحيّرني أن يكون كافكا قد كتب كتابه «المحاكمة»، الذي يُعدّ من أهم 100 كتاب في العالم، في ليلة واحـدة.. لكنّ كافكا نفسه أمضى عشر سنوات كاملة لكتابة أحد نصوصه، كان خلالها يكتب جملة، ويتوقف شهورًا طويلة قبل أن يعود إليها ليضيف جملة أو فقرة طويلة. أمّا طه حسين، فقد كتب «الأيـام»، أحد أهمّ أعماله، خلال 9 أيّام وهو في فرنسا، وكان كفيفًا. أبسبب فقدانه النظر لم تشغله الحياة عن الكتابة؟ هل تتآمر حواسّ الكاتب عليه، وتشتّت طاقته؟ ومن أين جاءت جورج صاند بالوقت برغم حياتها الصاخبة لتكتب مجلدات يحتاج المرء إلى عمر لقراءتها، ما جعل فلوبير يصفها بالبقرة الهائلة التي تدرّ حبرًا؟

ربّما يشفع لي قول جورج إليوت «الإنتاج الأدبي الغزير إساءة اجتماعيّة». لكن، في المقابل هدر المبدع للوقت خارج الكتابة هو أيضًا إساءة أبديّة.

يحتاج المبدع إلى أن يسرع قبل أن يدهمه الرحيل، ويمضي تاركًا خلفه نصوصًا لم تُكتب إلاّ في ذهنه. سباق دائم بين سيف الوقت وقلم الكاتب، من منهما يهزم الآخـر. لكن في زمن مُسرعٍ

ومُخيفٍ إلى هذا الحدّ، تصبح الكتابة منازلة للموت لا للوقت، فمن بين فكّيه يسرق الكاتب كلّ مرّة كتابًا.

ما الذي يحتاج إليه الكاتب لإنجاز عمل إبداعي؟

حيّر الجواب المبدعين أنفسهم.

هل يحتاج الكاتب إلى أن يتفرّغ للكتابة لينجز رواية؟ كيف إذن استطاع نجيب محفوظ أن يكتب روائعه تلك وهو يعمل موظفًا بدوام كامل على مدى ثلاثة عقود؟ وكيف كتب همنغواي أعمالًا فاز بفضلها بجائزة نوبل وقد عمل لسنوات مراسلًا حربيًّا وأخذته الحياة في كلّ صوب؟

أيحتاج الكاتب إلى أن يعمل في شأن آخر غير الأدب، كي يشتهي الكتابة إلى حدّ تصبح معه هي الشغل الشاغل لوجدانه لا لدوامه؟ ربّما يحتاج إلى أن تكون الكتابة عشيقته لا زوجته، ولعه لا مهنته، ليواعدها بشغف سرًّا كلّ مساء.

في كتابها «غرفة تخصّ المرء وحده»، تشرح فيرجينيا وولف أنّ المرأة تحتاج، لتكتب، إلى إمكانيّات مادّية، وغرفة تُغلَق بمفتاح، يمكنها أن تكتب فيها دون أن يزعجها أحد من أفراد العائلة.

ككلّ متعة، الكتابة تُنهَب ولا توهب. عليك أن تهرب لمواعدتها في الأماكن التي لن يفاجئك فيها أحد، حتى وإن كان الموعد في حديقة حيوانات، مثل ذلك الكاتب الفرنسي الذي انتقل للعيش في حديقة حيوانات آميانس وأغلق على نفسه في قفص بحثًا عن الوحي كي يتمكّن من كتابة مسرحيّة. لتبرير تصرّفه الغريب، قال جملة لا تخلو من الحكمة: «كي تكتب عن الوجود عليك أن تقيم في قفص أصغر منه».

لكأنّها جملة من توقيع كافكا الذي كان يريد أن يغلقوا عليه في العلّية، أي تلك الحجرة الصغيرة التي تُبنى فوق غرف المنازل،

كي يستطيع الاختلاء بنفسه وإنجاز كتبه. وهي فكرة طوّرها مايكل جاكسون، إذ بنى له، كعادة الأميركيّين في بناء «بيت الشجرة»، مخبأ في شجرة ضخمة سمّاها «شجرة الوحي» وقال إنّه ألّف فيه كثيرًا من أغانيه وكان يصعد إليه متسلّقًا سلّمًا من الأغصان، بحثًا عن الوحي والسلام النفسي.

ليست الكتابة أوراقًا وأقلامًا وكمبيوترًا وإلهامًا. نصف الإبداع يتحكّم فيه المكان. أمكنة أغرب من أن تخطر ببال. كاتب مصري كان يقصد المقبرة ليكتب، وآخرون مثل جان جنيه وبايرون والماركيز دي ساد أبدعوا في السجون، أمّا فولتير فقد كتب «أعشق زنزانتي» ولم تكن زنزانته سوى غرفته. وكتب ابن خلدون جلّ مقدّمته الخالدة وهو في المغارات هربًا من المكائد والجواسيس الذين كانوا يطاردونه.

يمكنك أيضًا أن تهرب إلى جزيرة في المحيط الهادئ لتكتب، وربّما عدت لشراء الجزيرة بعد صدور مذكّراتك، خاصّة إن كان عقد لشرك صفقة قياسية في تاريخ النشر في العالم، تُقدَّر قيمتها بـ60 مليون دولار، شرط أن تكون رئيسًا سابقًا لأميركا وأن يكون اسمك باراك أوباما.

أصبح السؤال: أين أهرب لينزل عليّ الإلهام وأتمكّن من إنجاز كتاب؟ بين المغارات، والسجون، والمقابر، وأقفاص الحيوانات، والجزر النائية في المحيطات، بدت لي الشجرة في متناولي، وتناسب مزاجي. كأن أختار لي شجرة سامقة في حديقتنا، أصنع لي بين أغصانها مأوى للكتابة، فأعربش كلّ يوم عليها لأبلغ مكتبي المعلّق بين الأغصان. ما أدراني، ربّما كتبت فيها ما يجعل الأدب يقفز دهشة عند قراءته.

أتصوّر أحدهم يسأل أولادي: «وين أمّكم؟» فيجيبونه: «ماما فوق الشجرة... قاعدة عم تكتب»، أو أن يكون السائل أمّي مثلًا.

من الأفضل لي حينها أن أبقى حيث أنا، فهي ستعثر على المناسبة المثالية لتعيّرني وتعيد عليّ قولها «لمّا شاب أخذوه للكُتّاب» أي بعدما شاب أخذوه إلى المدرسة، فكلّما رأتني أكتب حتى ساعة متأخّرة من الليل، قالت متحسّرة ومشفقة على حالي: «يا بنتي كبرتي ارتاحي من الكتيبة».

أمّي تعتقد أنّ الكتابة بالنسبة للنساء تبدأ كما مهنة عارضات الأزياء في سنّ الثامنة عشرة، وتنتهي في الثلاثين، وأنّ على الكاتبة أن تتقاعد عند بلوغها الثلاثين من العمر، قبل ظهور أول تجعيدة على وجهها وأول شعرة بيضاء. لا جدوى من أن أشرح لها أنّ لورا إنجلز بدأت الكتابة بعد أن تجاوزت عمر الستين، وكتبت سلسلة من 9 روايات ناجحة، وأنّ العمر لم يمنع مارغريت يورسنار، ولا مارغريت دوراس ولا الرائعة إيزابيل أللندي من أن يهدينا في السبعين أجمل أعمالهنّ عن الحبّ. أمّا توفيق الحكيم وطه حسين ونيتشه وغوته وفيكتور هيغو فواصلوا تقديم أعظم أعمالهم وهم على مشارف الثمانين. لكنّ أمّي ستتساهل مع هؤلاء أكثر من تساهلها مع نوال السعداوي لو أطلعتها على صورتها، فشعرهم الأبيض غير المنضبط يزيد مظهرهم وقارًا وحكمة، أمّا أن تكون تلك هيئة النساء الكاتبات، فهذا ما لن يطمئنها على مستقبلي!

مايكل جاكسون ليس وحده من كان يتسلّق شجرة ليكتب، فالكاتب والإعلامي الفرنسي الشهير باتريك بوافر دارفور، له في بيته في النورماندي شجرة كبيرة حوّلها إلى ملجأ للكتابة وبنى فيها غرفة أصبحت مزار الفضوليين.

لعلّ في تسلّق شجرة للكتابة حكمة.. فعدا رفقة العصافير وشمّ الهواء العليل، للكتابة على الشجرة فوائد. قد تكون فرصتي لأقوم

ببعض المجهود الرياضي، وأنا «طالعة نازلة الشجرة»، كلّما احتجت إلى شيء من لوازم الكتابة. فمعروف أنّ الكُتّاب يتوتّرون قبل الجلوس للكتابة. يروحون ويجيئون، ويخترعون ذرائع للهروب منذ الصفحة الأولى، فيعدّون القهوة، ثمّ يتذكّرون أنّهم نسوا السكّر، وبعدها تبدو لهم الإضاءة سيّئة فيفتحون النوافذ، وإذا بالضجيج يمنعهم من التفكير فيعودون لإغلاقها، وبين النافذة والمكتب يلمحون ما يذكّرهم بأمر لم ينجزوه، وصديق لم يطلبوه، وبريد لم يرسلوه. أثناء ذلك تكون القهوة قد بردت ولا بدّ من إعداد غيرها، فيتّجهون إلى المطبخ. هناك تفاجئهم رغبة في الأكل لا علاقة لها بالجوع، فيفتحون البرّاد بحثًا عن شيء يؤكل، يزدردونه دون وعي، ذلك أنّهم على أهبة نصّ لا يدرون بعد ما هو، وهم هناك للبحث عن الإلهام... في البرّاد!

ألم يقل هاروكي موراكامي «إنّ الناس الذين يفتّشون عن الأكل في البرّاد الساعة الثالثة صباحًا عاجزون عن الكتابة، وذلك ينطبق عليّ أيضًا».

طمأنني هذا القول إلى كوني سويّة، ما دمت أشترك مع كاتب كبير في محنة البحث ليلًا عن الإلهام في البرّاد. وهاروكي موراكامي كاتب ياباني صنّفه النقاد على أنّه أحد أبرز الروائيّين على قيد الحياة في العالم. برغم كونه على الأرجح لم يسمع بي، أصبح هاروكي صديق ليلي، أشاطره ضحكتي كلّما قفزت ليلًا من سريري نحو المطبخ بحثًا عن شيء شهيّ يمكنني التهامه لأتمكّن من مواجهة الكتابة... أو بالأحرى هروبًا من لحظة الجلوس للكتابة. فأقول لعلّ هاروكي «يهرك» المطبخ في هذه الساعة المتأخرة من الليل مثلي ذهابًا وإيابًا في مكان ما من اليابان، بحثًا عن قطعة سوشي يزدردها ليكتب نصًّا جديدًا.

شخصيًّا، تبدأ أعراض الكتابة عندي بحاجتي لاحتساء كوب حليب ساخن، فالحليب يمثّل للجزائريين ما يعنيه الشاي للإنكليز

والقهوة للبدو. أحتاج إليه لدَوزنة مزاجي (وغضبي)، الذي يفيض ويبرد بسرعة، كمزاج كلّ أصحاب القلوب البيضاء... وقبل الحليب تنتابني رغبة في ترتيب البيت المرتّب أصلًا، والقيام بكلّ ما ليس ضروريًّا ولا مستعجلًا كإعادة ترتيب الخزائن عن بكرة أبيها، هروبًا من مقالي الأسبوعي الضروري والمستعجل.

ثمّ... من فوائد الصعود فوق الشجرة للكتابة، اكتسابي خفّة ومرونة مايكل جاكسون الخرافية التي اكتسبها على الأرجح وهو يقفز كالسعدان بين الأغصان. وهكذا بدل بحثي عن الإلهام في المطبخ، وزيادة وزني وأنا ألتهم ليلًا كلّ ما يصادفني، سأغدو رشيقة كسالف الأزمان، لأنّي على مدى الليل والنهار، سأكون «طالعة نازلة» شجرة الإلهام. أو على الأدق «طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران» وأعني بالجيران «القمر»، جار فيروز الذي سيغدو جاري بحكم وجودي «فوق»، وسيصبح له واجب الجيرة، وعليّ أن أسايره كلّ ليلة قبل الكتابة، وأن أسأله عن أخباره وأخبار الساهرين، وأطمئنه بأنّ العشّاق ما زالوا على القدر نفسه من الغباء، وأهدهده كلّ مساء، وأغنّي له «يا قمر أنا ويّاك» و«نحنا والقمر جيران» كي يحلّ عني ويروح يندفس وينام... فأخلد أخيرًا للكتابة... عن الفراق!

قال لي يوسف شاهين مرّة، إنّه عندما يعثر على فكرة جميلة، يتوقف عن العمل ويبدأ بالرقص. أخشى أن أعثر على فكرة جميلة أبدأ بها هذا الكتاب، وتغمرني الفرحة وتأخذني الحال، فأروح أصدح وأرقص فوق الشجرة، وينتهي بي الأمر في المستشفى، ملفوفة بالجبس كمومياء. أو ربّما تُفتح لي أبواب السماء، ويضحك لي القدر، وبدل الغناء للقمر ينصحني أحد الجيران بالانضمام لبرنامج «الرقص مع النجوم» أو بالالتحاق برَبع «أراب آيدول» فأصول وأجول على البلاتوهات، وتُصعق أمي وهي تراني أطلّ على الشاشات، ويتسابق

ويتشاجر كبار المطربين ليتبنّوا موهبتي، ويهتفون وأنا أصدح للفرقاني بموال «آاااااه يا ظالمة وعليك انخلي اولاد عرشي يتامى» فأفوز على جميع المتسابقين بالصيحة القاضية، لأنّ صوتي صقلته الخيبات، وغدا أقوى حتى من صوت الأعرابية التي نادت «وا معتصماه» فسمع نداءها المعتصم في آخر البلاد.

أمّي لم تسمع بالمعتصم ولا بـ«سيدي بو زواو» ولن تجد ما تبرّر به للصديقات تحوّلي إلى مطربة، هي التي ظلّت لسنوات ترى عيبًا في كوني كاتبة. لكنّي أملك أعذارًا مقنعة أقدّمها لها، فأنا ما عدت أجد من أمل في إنقاذ هذه الأمّة إلّا بالطرب، لذا أعترف بأنّني أخطأت في حقّ من يناضلون بإقامة الحفلات فوق الجثث، ويغنّون مشكورين في كلّ الأعياد وفي كلّ البلاد، وكأنّ شيئًا لم يحدث. كلّما شاهدت هؤلاء يغنّون في عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الاستقلال وعيد العشاق وأعياد نهايات السنة وأعياد التسوّق، وأعياد التسوّل.. اطمأنّ قلبي على أوضاع الأمّة، وقلت سحقًا ليتني غنّيت!

على الكاتب ألّا يباشر الكتابة حتى يجرّب نفسه في الغناء، أو يختبر موهبته في التمثيل. الكلّ اليوم يولد ممثلًا، فلماذا يختار المرء درب الآلام دفاعًا عن حفنة من الكلمات؟ الصدق على أيّامنا مكلف، لا يختاره إلّا أحمق، وقد يدفع المرء مقابله حياته، بينما بالتمثيل قد يغيّر حياته إلى حدّ لا يعود يتعرّف إليه أحد، طبعًا عدا مسنّي الحيّ. طبعًا «ما تقول أنا حتى يموتوا كبار الحارة» تقول أمّي. ليس الأمر صعبًا إلى هذا الحدّ، يكفي أن تمثّل على شخص واحد، إن نجحت في خداع الشخص الأول، يمكنك النجاح في كلّ الأدوار، فتقلع حينها عن الكتابة وترتاح، ولا يراك الناس إلّا في المهرجانات والأفراح.

أعرف نقطة ضعف أمّي، سأقول لها وأنا أنتحب: «سامحيني يا أمّي، لم أخبرك أنّني عندما كنت أدرس في ثانوية عائشة أمّ المؤمنين، ذهبت يومًا مع اثنتين من أترابي إلى الإذاعة لنغنّي في برنامج عمر البرناوي رحمه الله. تدبّرنا ثمن الحافلة، وأعطينا المعدّين أسماءً وهميّة. كنّا عن مزحة نريد أن نعرف من فينا صوتها أجمل، كانت واحدة تخال نفسها أم كلثوم فغنّت مقطعًا من «أروح لمين»، والثانية غنّت «يا دبلة الخطوبة» مقتنعة تمامًا بأنّها شادية. أمّا أنا ففشلت في إقناعهم بأنني فيروز، ولفرط خجلي وخوفي من أن يعرف أبي بأمري، اختفى صوتي تمامًا، وانقطع نفسي، وما استطعت أن أنطق بكلمة برغم وجودنا بمفردنا في الاستديو. على بالك أمّي، لو غنّيت زمان، كان في عوض راني الآن فوق الشجرة أكتب، كنت «فوق الريح»، لا بأس عليّ، غنيّة وما عندي حتى قضيّة، ما أبكي ما أنوح على الأمّة العربيّة، كان ممكن حتى ناخدك للحج في الطيّارة متاعي، في عوض ما تتمرمدي في الخطوط الجويّة الجزائريّة، ونأخذ سيلفي مع الفانز وأنا أطوف معاك في الكعبة.. مثل ما عملت وحدة.. لازم يعرفو الناس أنو فرجت عليّ، وخلصت أيام التعتير و«الميزيرية»، على بالك قداش كنّا نجيب لايكات لو نحطها في الإنستاغرام «أحلام وأمّها في البيت الحرام»؟!».

كـلّا... لن أتـرك لأمّـي من مجال لمجادلتي أو مناقشتي في قناعاتي الجديدة.

منذ أعـوام لم يحدث أن جادلت أو حـاورت أحـدًا في أيّ موضوع. منذ سقوط بغداد وما آل إليه العراق، وما حلّ بالموصل من أهوال، ما عدت أرى جدوى من الجدل. حمدًا لله، ارتحت مذ لم يعد لي من رأي في أيّ موضوع، بعد أن تجاوزت الأمور قدرتي على الفهم،

أو لعلّي فهمت أكثر ممّا تمنّيت يومًا أن أفهم. وما نفع السؤال إن كانت الأجوبة تأتينا متأخّرة بنصف قرن؟

لننتظر إذن، بعد موتنا سيعرف أبناؤنا ماذا حصل. كذلك السؤال الذي حيّر ناظم الغزالي، أيّام كان في العراق مليون نخلة وكان العراقي يرفع رأسه إلى السماء، لا ليسأل مذعورًا عن هويّة الطائرات التي تقصفه، بل ليسأل حبيبته سؤالًا يبدو اليوم ساذجًا: «فوق النخيل فوق... ما ادري لامع خدّك يابا ما ادري القمر فوق؟». طبعًا الحبيبة التي تربّت آنذاك على الخجل، كانت تجيبه على استحياء بابتسامة، واثقة بأن لا شيء يمكن أن يلمع في عيني حبيبها غير خدّها. وهكذا مات المسكين من دون أن يعرف الحقيقة!

اليوم يا عزيزي ناظم عرفنا الجواب: تصوّر أنّ الذي كان يلمع قبل خمسين سنة من الآن «فوق النخيل.. فـووق» لم يكن خدّ حبيبتك، بل القمر... أعني القمر التجسّسي أيّها العاشق الأحمق. فقد كانوا منذ ذلك الزمن يستعينون بالأقمار للتخطيط لدمارنا دارًا دارًا.. زنقة زنقة.

وهكذا ألغيت مشروع الكتابة فوق الشجرة، بعدما غدت حتى رؤية القمر تصيبني بالقهر!

***

القمر ارتمى على ظهره من الضحك.
ماذا تراه يرى
ليضحك
كلّما جئتُ على ذكرك؟

2

أدركوني ببطل!

ما أحتاج إليه للكتابة، هو بطل يقلب قناعتي رأسًا على عقب، فيلهمني أروع الكتب. كذاك الذي صادفه نيكوس كازانتزاكيس في أحد أسفاره، رجل أميّ خرّيج مدرسة الحياة، فما كان الرجل يدري وهو يحادث الكاتب أنّه يتوجّه بكلماته إلى ملايين البشر، وأنّ فلسفته تلك ستخلد وتتوارثها الأجيال، وستحمل توقيع «زوربا» العجوز الذي استدرج العالم إلى حلبة الرقص، فشاركه الناس رقصته كلّما انهار من حولهم كلّ شيء.

قبل ثلاثة عقود من الزمن، التقيت بنجّار إيطالي ستيني، قام ببعض أشغال النجارة في بيتي في فرنسا. كان يشترك مع زوربا في أشياء كثيرة، بما في ذلك إصبعه المبتورة، وافتتانه بالحياة، فقد كان يعمل على مدى أيّام ليأخذ زوجته في نهاية الأسبوع في رحلة إلى أيّ بلد مجاور يقام فيه عرض أوبرالي، أو يبحث عن حفل راقص يصطحبها إليه. ولم أستفد ممّا قاله لي ماريو أثناء قيامه بأشغال النجارة وهو يدندن وأحيانًا يصدح بأغنية إيطالية كما لو كان لوتشيانو بافاروتي. لعلّها كانت إحدى خساراتي الأدبيّة، فقد كنت مسكونة آنذاك بخالد بن طوبال، وما كان لي من أذن إلّا لمن يحدّثني عن قسنطينة. لكنّني ما زلت أطمح إلى كتابة رواية من وحي ماريو.

يحدث للأبطال العابرين في حياة كاتب أن يكونوا الأكثر تأثيرًا على كتاباته، فيكتسبوا شرعيّة لم يحظ بها أقرب الناس إليه، ويغدوا حقيقيّين لدى القرّاء، إلى حدّ محاسبة الكاتب على أقدارهم.

يدين خالد بن طوبال بطل «ذاكرة الجسد» و«فوضى الحواس» بحياة امتدّت إلى رواية ثالثة هي «عابر سرير»، لسيّدة من عائلة البابا، حضرت محاضرة ألقيتها في مدينة صيدا بعد صدور «فوضى الحواسّ». أثناء نقاشي مع القرّاء احتجّت السيدة على قول حياة وهي تتحدّث مع المصوّر (الذي كانت تحبّه) إنّ خالد بن طوبال لم يوجد يومًا وإنّه محض خيال روائي.

قالت لي: «ليس من حقك أن تقولي هذا، خالد بن طوبال ملك لنا نحن القرّاء ولا يمكن أن تلغي بجملة بطلًا تعلقنا به ويعني لنا الكثير». أجبتها معتذرة بأن لا إمكانية لإعادة كتابة النصّ، ولا لإلغاء هذه الفكرة التي تقوم عليها الرواية. ظلت السيدة تناقشني، وأنهت جدلها بالقول: «أنت روائية بإمكانك أن تكتبي رواية أخرى تفنّدين فيها ما قلته، وإلّا اعتقدنا أن لا أمل من مصادفة خالد بن طوبال ولا أمثاله في الحياة».

شغلني قولها هذا أكثر ممّا توقّعت. وعلى مدى أشهر، صرت بين الحين والآخر أبحث عن طريقة منطقية أبعث بها خالد بن طوبال حيًّا في رواية ثالثة، إلى أن وجدتها من خلال خلق شخصية جديدة، مصوّر يزور باريس ويقع مصادفة على معرض للّوحات الزيتية، كانت تمثّل جميعها جسور قسنطينة، ما أثار فضوله، وإذا به يكتشف عند دخول الغاليري أنّها لوحات خالد التي تركها لكاترين عندما غادر باريس إلى الجزائر... وأنّ حياة كانت تكذب عليه، وتخفي عنه في الواقع ماضيها.

إن كان يصعب على القرّاء فراق بطل عاشوا معه زمنًا لا يتجاوز مدّة قراءة رواية، فكيف للروائي أن يفارق أبطالًا عاش معهم على مدى سنوات قضاها في كتابة تلك الرواية؟

بين «ذاكرة الجسد» و«فوضى الحواس» و«عابر سرير»، كنت قد قضيت أكثر من عشر سنوات مع خالد. غدا «محرمي الأدبي». أسافر معه، أخلو به، أنسب إليه، يرافقني إلى مواعيدي، يتحكّم في خياراتي العاطفيّة، أستشيره في قراراتي السياسيّة. وكلّ ما يرفضه أو يترفّع عنه، ما كنت لأقبل به. هكذا، تسبّب خالد بن طوبال بكثير من خساراتي، مقابل ارتفاع في منسوب كرامتي. عادة، الكاتب هو من يتحكّم في أبطاله، إلّا أنا، خلقت بطلًا يتحكّم بي، وأخجل منه إن تنازلت عن مبادئي يومًا. تدريجًا أصبح هذا الكائن الحبري هو من يدير حياتي، ويختار لي من أحبّ، ومن أعادي، والمناسبات الرسميّة التي أحضرها وتلك التي أقاطعها، بحسب سلّمه الشاهق في القيم. حتى إنّني رفضت حضور حفل إطلاق سنة «قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2016» لعلمي بأنّ سنة قسنطينة لم تُعتمد عن حبّ، بل كذريعة أخرى للنهب. وكان ردّي لوزيرة الثقافة: «لو وُجّهت هذه الدعوة لخالد بن طوبال لرفض الحضور ولذا لن أحضر». يومها اختلط عليّ عرس قسنطينة وعرس حياة الذي دُعي إليه خالد ليبارك اغتصابها، ورحت أبكي كما يوم وصفتُ دم حياة ليلة زفافها إلى ذلك الضابط.

استنتجت أنّ على الكاتب أن يختار بتمعّن أبطاله، لأنّ الأمر سينتهي به بأن يشبههم، وليس العكس كما كنت أعتقد. ألم يقل فلوبير عن بطلة روايته «مدام بوفاري» إنّها كانت هو؟ على مدى عقد من الزمن خِلت خالد بن طوبال أبي... أو حبيبي... لكن يوم مات اكتشفت وأنا أبكيه أنّه كان أنا.

أغبط الروائيّين الذين لهم من الأبطال بعدد رواياتهم التي لا تُعدّ، لأنّهم لا يشتاقون لأبطالهم، فهم يفارقونهم بالسرعة نفسها التي يفارقون بها حبيباتهم. إنّهم يملكون من الأبطال العشرات، ومن البوح ما يردّده عاشق محترف للإيقاع بالساذجات من البنات، لذا لا بطل من أبطالهم يعلق في ذاكرة القارئ. إنّها كائنات ورقيّة لن تغادر دفّتَي الكتب. الأبطال الخالدون تبدأ حياتهم الحقيقيّة عندما نغلق الكتاب. نشرع في التكلّم والتصرّف مثلهم، نستعيد تفاصيلهم، نفتقدهم، نتوقّع مصادفتهم، نودّ مواعدتهم في كتاب آخر، أو في الحياة. نريد أن ندعوهم لفنجان قهوة كي نطمئنّ عليهم، ونعرف ما حلّ بهم... وأن نروي لهم ما حلّ بنا بسببهم. ذلك أنّ الأبطال الخالدين يغيّرون دائمًا شيئًا فينا، لأنّنا عندما نفارقهم في كتاب، يشرعون بمرافقتنا في الحياة.

في الواقع، لم أكن أنا نفسي قد فارقت ذلك الرجل حقًا، ولا شُفيت منه. «مَن مثله يفسد علاقتك ببقيّة الرجال»، قالت لي قارئة كانت قد وقعت في حبّ رجل استبشرت خيرًا باسمه، خالد، لتكتشف بعد أشهر من الخيبة والعذاب أنّ الأبطال لا يقيمون سوى في الروايات، وأنّه لا أمل في العثور عليهم خارج الكتب. فلا بطولة عاطفيّة في الحياة، ولا عاشق يصمد على مدى ثلاثة أجزاء وحتى الصفحة المئتين بعد الألف!

خالد هو البطل المشتهى، كقصّة حبّ ظلّت معلّقة، لم تنته تمامًا، وكان لا بدّ لها من خاتمة. كنت بين خيبتين أعود إليه، لثقتي بأنه لن يخذل وهمي به. لقد غدا الحقيقة الوحيدة، وما عداه افتراضي. أبيًّا، عصيًّا، شهيًّا في عنفوانه الأخير، يحدث أن أفتقد صوته وأجوبته الذكيّة بمسحتها التشاؤمية الساخرة، أن أشتهي طريقته الفريدة في جذب حياة إليه وضمّها بذراع واحدة، صمته المباغت

بين الجمل، إيحاءه بقُبل مسروقة لن تحصل، جسده الذي خاض الحروب ويواصل معركته في السرير، بعنف معطوب يثأر لعاهته.. يحدث أن أشتهي غيرته المكابِرة.

كلّما تماديت في اشتياقه، غدا شهيًّا كفراق، وهل أشهى من مفارق؟!

كنت أدري أنّ كلّ الأشياء هذه المرّة ستحدث بيننا لآخر مرّة، وأنّ الرواية القادمة ستكون لقاءنا المنتظر، كما فراقنا المقدّر الذي أجّلته على مدى روايتين، والذي سيكون هذه المرّة أبديًّا، فلا بدّ لخالد من أن يموت أخيرًا، لأنّ من غير الممكن أن أتركه بعدي. أريد أن أبكيه، أن أرثيه... وأن أدفنه بيدي... يدي تلك التي كتبته.

حتى الأبطال يصبحون أشهياء أكثر وهم على أهبة المغادرة، وحتى الرجال الوهميّون الذين أحببناهم في عالم افتراضي، نحتاج لأن نلتقي بهم مرّة أخيرة في كتاب، لنقول لهم كلّ ما نسينا أن نقوله في كتاب سابق. أن نسألهم ما لم يمهلنا الحبر طرحه من أسئلة الفراق، كي نستطيع إنهاء القصّة والشفاء منهم.

ذلك أنّ الكُتّاب يشقون بقصص ما توقّعوا نهايتها، ولا يدرون لم انتهت، لأنّهم كما العشّاق في الحياة، افترقوا مع أبطالهم دون أن يفوزوا بفرصة المواجهة الأخيرة!

3

الحداد الأدبيّ.. على رجل خارج من كتبي

كنت أحتاج إلى 5 سنوات لأكمل «عدّتي الأدبيّة» التي كانت أطول من عدّة شرعيّة، ولأخلع حدادي الروائي العاطفي على خالد بن طوبال، وأسمح للسيّد طلال بأن يدخل حياتي في رواية جديدة هي «الأسود يليق بك». في الأدب أيضًا، لتُشفى من بطل، عليك أن تقع في حبّ غيره، أن تنفض عنك ذكريات قصصك الماضية، وتتخلص من كلّ ما له علاقة بكائنات غادرت وجدانك وأوراقك ومكتبك، أن تتخلّص من كلّ ما قد يشوّش عليك حبّك الجديد، وأن تبدأ كلّ قصّة كما لو أنّها قصّتك الأولى، أن تنظّف غرفة الكتابة من آثار الكتاب السابق، ولمَ لا.. أن تحرق البخور كي تطرد من الغرفة أرواح وأبطال الرواية السابقة، كما تفعل إيزابيل ألليندي كلما شرعت في كتابة كتاب جديد.

في النهاية، الوصفات الأدبية لا تختلف عن الوصفات العاطفيّة. ستظنّ أن لا قلبك ولا قلمك سيُشفيان من الحبيب الأول، وأنّك أسير قصّتك الأولى، وأنّك لن تعيش ولن تكتب أجمل منها، لكنّ الحياة ستكذّبك، والأدب سيسخر منك كثيرًا، إن اختصرت الحياة في قصّة واحدة.

ذات يوم ستفتح قلبك مجدّدًا لذلك الفضول الجميل لمعرفة أبطال يتسلّلون تدريجًا إلى حياتك وإلى أوراقك. ستعرف اللهفة، واللوعة، والخيبة. ستقيم في كتبك، تصادق كائنات حبريّة تخالها حقيقيّة إلى حدّ مواعدتها، ستصادقها وتصدّقها أكثر ممّن يحيطون بك من الأحياء، إلى حدّ الاستنجاد بها عند وعكاتك العاطفية. ألم يطالب بالزاك وهو على فراش الموت باستدعاء طبيب خارج من رواياته، لأنّه الوحيد الذي كان يثق به، والذي بالطبع ما كان يملك له علاجًا، فقط لأنّه بطل في روايته؟ لكأنّ الكاتب لا يثق إلّا بالأبطال الذين خلقهم. وحدهم لن يغدروا به. فإن كان البشر يتنكّرون للعشرة، ويخونون الملح.. فإنّ أبطال الروايات لا يخونون الحبر.

كلّ ما أريده الآن العثور على بطل لرواية. من أجله لزمت بيتي ومكتبي، ورفضت لسنوات أن أزور أو أزار. كنت أنتظر زائرًا واحدًا فقط. كان فلوبير يرتدي ملابسه الأنيقة ويضيء كلّ المصابيح في القصر بما في ذلك الحديقة، حتى يظنّ الناس أنّه يقيم وليمة، بينما كان يقوم بكلّ ذلك بانتظار الإلهام. نزار قباني قال لي يومًا إنّه كان كلّ صباح يتهندم ويجلس بمنتهى أناقته أمام مكتبه، دون أن يدري ماذا كان سيكتب. يذهب إلى الكتابة كما يذهب صيّاد إلى البحر، دون أن يدري بماذا سيعود. يحضر أوراقًا ملوّنة وأقلامًا جميلة، كطُعم لاصطياد السمكات الذهبيّة، بصنّارة الصبر. هكذا اصطاد كلّ قصائده، دون تخطيط مسبق. قال: «لو قبلت كلّ الدعوات التي وُجّهت لي واستقبلت كلّ زائر حلّ في لندن وأراد مقابلتي، لما كتبت خمسين كتابًا».

خمسون كتابًا! يا إلهي إلى كم أحتاج من أعمار لكتابتها!

عزائي في قول همنغواي: «ليس الكاتب من له كتب بل من له قرّاء». وكان لهمنغواي قرّاء أوصلوه إلى نوبل عن كتاب خالد من مئتي صفحة هو «العجوز والبحر». همنغواي كتبته الحياة أكثر ممّا كتبها، لذا لم يكتب إلّا كتبًا صغيرة في حدود المئتي صفحة، فقد تعلّم من مهنته مراسلًا حربيًّا سابقًا أن يلتزم بعدد محدّد من الكلمات، لأنّه كان يرسل مقالاته بالتيليغراف.

أكان عليّ أن أكون ضنينة في الكلمات وأكثر كرمًا مع الحياة؟ أن أعدّ أنفاس الجمل قبل كتابتها، وأبحث لي عن بطل لا يتحدّث كثيرًا ولا ينام طويلًا، ويحب المصارعة والصيد والبحر والنساء... والقطط، كهمنغواي؟

طبيبتي، التي قصدتها قبل فترة لأسألها عن سبب نومي كلّما جلست (في السرير!) للكتابة، نصحتني بممارسة الرياضة بانتظام، حفاظًا على صحّتي، خاصّة أنّني أقيم في أماكن جميلة تساعد على المشي. أجبتها بقول لبرنارد شو: «قضيت حياتي أشيّع إلى المقبرة أصدقائي الذين كانوا يمارسون الرياضة»، لكنّها أقنعتني عندما قالت إنّ المجهود الفكري يتغذى من المجهود الجسدي، لأنّ الرياضة تزوّد الدماغ بالأوكسيجين. وكان يمكن أن أناقشها في هذا الموضوع أيضًا، فأقول إنّ الكاتب يأخذ أوكسيجينه من الحرّية، لا من الحركات الرياضيّة، مستشهدةً بقول ليوسف إدريس ما زال صالحًا بعد ثلاثين سنة: «إنّ الأوكسيجين الموجود في العالم العربي لا يكفي كاتبًا واحدًا»، وأنّ على من يريد أن يكتب أن يتزوّد بتلك الكمامات التي يضعونها في الطائرات وتسقط تلقائيًا عند انخفاض الأوكسيجين، وأنّ عليه أن يحلّق بعيدًا عن العالم العربي ما استطاع، أو أن يذهب إلى الغابات ليستمدّ أوكسيجينه من الأشجار، فهي آخر رئتين في متناولنا.

كُتّاب كثر استمدّوا من الرياضة طاقتهم الإبداعية، كصديقي هاروكي موراكامي، الذي يفترق مساري عن مساره عند باب البرّاد. فهو بعد أن يلتهم ليلًا ما يعثر عليه في برّاده، يستيقظ باكرًا ليركض، أي تمامًا عندما أخلد أنا للنوم فجرًا.

تصوّروا أنّ هذا الكاتب الذي تُرجم لأربعين لغة شارك في عشرين ماراتونًا حول العالم، حتى إنّه كتب طويلًا عن العلاقة في حياته بين الكتابة ورياضة الركض.

ماذا إذن لو كان في الرياضة وقود الكتابة الذي فاتني، وبسببه لم أكتب لسنوات؟ لن أذهب حتى ممارسة الطيران كأنطوان دو سانت إكزوبيري صاحب رائعة «الأمير الصغير»، لكن يمكنني على الأقل المثابرة على المشي مثل باولو كويلو، وكتّاب كثيرين آخرين ذهبوا حدّ تأليف كتب في مزايا المشي والتنزّه بالنسبة للمبدع. ألم يقل نيتشه «كلّ الأفكار العظيمة تولد أثناء المشي»؟

بالنسبة إليّ شخصيًّا، أعظم الأفكار الروائية عثرت عليها وأنا أقوم بالأشغال المنزلية. ولأنّي دفعت ثمن هذه المقولة سنوات من عمري، فقد تمنّيت مازحة أن تُسجّل باسمي، وألّا أجدها في الأنترنت منسوبة إلى غيري، لكنّني ما كدت أنشرها بزهو كبير، حتى جاء من يقول لي إنّ أغاتا كريستي قالت: «أفضل وقت للتخطيط لكتاب هو أثناء غسل الصحون»!

لم أصدّق أنّ السيدة أغاتا كريستي تركت كلّ مجدها ولحقتني ع المجلى؟! معقول؟ سيدة الفضول التي كانت تصول وتجول برفقة زوجها متنقلة في بلاد الشرق بين الهند وبغداد والشام ومصر، بحثًا عن خيوط جريمة جديدة، تريد منافستي في مطبخ من بضعة أمتار أهدرت فيه نصف عمري؟ في جميع الحالات، ما كنّا أنا وهي نقصد المطبخ بالدافع نفسه، فملكة الجريمة التي في عنقها 80 جثة كانت

وهي أمام المجلى تبحث بين السكاكين والشوك عن مخطّط لجرائمها، ولكتب أثناء ذلك «جريمة في قطار الشرق السريع» و«لم يبق منهم أحد» فتقتل هذا، وتسمّم ذاك، وتلقي بثالث من القطار.

أمّا أنا، فكنت أبحث وسط صابون الجلي عن مفاتيح العشق، كي أطيل لهفة أبطالي، وأفكّر في طريقة يوقع بها طلال هالة في شباكه، ليستدرجها إلى فيينا ويراقصها على موسيقى «الدانوب الأزرق»، وبأيّ كذبة عليها أن تتذرّع كي تسافر للقائه...

كم كانت محظوظة الست أغاتا، لأنّ الجلّاية الكهربائيّة لم توجد على أيّامها، وهذا ما أتاح لها كتابة 80 رواية بوليسية بيع منها مليار نسخة! نعم مليار! مذ قرأت الرقم أصبحت تنتابني رغبة في تكسير جلّايتي الكهربائيّة كلّما لمحتها في المطبخ، أو أن أعرض على القائمين على جائزة نوبل أن أتطوّع مجّانًا بجلي ألف وستمئة صحن لستعمل في مأدبة العشاء التي تقدَّم يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز. فجلي هذه الصحون باليد يستغرق عدّة أشهر تمتدّ لأكثر من نصف السنة نظرًا لثمنها الباهظ، ولضرورة جليها بعناية فائقة، وهو تمامًا ما يلزمني من وقت للإلمام بالحبكة الكاملة للرواية.

ما كنت لأصدّق أنّ أغاتا كريستي كانت تقوم بنفسها بأعمال البيت، حتى عثرت على صورة لها وهي في الستين من العمر، تقف في مطبخها. وكانت قد عادت إلى الكتابة بطلب من الملكة ماري جدّة الملكة إليزابيت الحالية، التي في لقاء أجرته معها آنذاك الـ«بي بي سي» بمناسبة عيد ميلادها الـ84 سُئلت عن أمنيتها، فتمنّت الملكة قراءة كتاب جديد لأغاتا كريستي... وهكذا، ما كان لأغاتا من خيار سوى ارتداء مريول المطبخ، والوقوف مجدّدًا أمام المجلى بحثًا عن جريمة جديدة... تهديها للملكة في عيدها!

قبل فترة، أخبرني وزير الثقافة عزّ الدين ميهوبي أنّ الرئيس عبد العزيز بوتفليقة سأله في بداية تسعينيّات القرن الماضي، يوم كان مرشّحًا للرئاسة، وكان ميهوبي آنذاك رئيس اتحاد الكتّاب الجزائريين، إن كنت أصدرت كتابًا جديدًا، وأنّه واصل مطالبته لاحقًا عندما أصبح رئيسًا بأن يحضر له كلّما سافر إلى الخارج إصداراتي الجديدة، مع كتب لكتّاب آخرين كان يطلبها منه. علّقت مازحة: «سامحك الله... ليتك أخبرتني بذلك وقتها. فقد كان يلزمني أمر ملكيّ، أو مرسوم رئاسي، يعيدني إلى الكتابة، بتعييني شغّالة بدوام كامل، فأجلي وأشطف وأكنس وأمسح ما شاء لي الأدب. كنت سألزم المطبخ ولا أغادره إلّا وفي حوزتي مخطوط رواية جديدة!».

قبل أغاتا كريستي، كانت جورج صاند تكتب وتطبخ وتخيط وتعزف، وهي القائلة: «عندما تتقن شيئًا فأنت تتقن كلّ شيء». وقبل عقدين من الزمن كانت مارغريت دوراس تتولّى بنفسها أشغال بيتها. إنّني إذن أعود إلى سلالة الكاتبات الشغّالات، عن فرع الأدب العربي.

غالبًا ما ينزل عليّ الإلهام عندما أكون منهمكة في الأعمال المنزلية، وخاصّةً أثناء الأشغال التي يتكرّر فيها الفعل نفسه، كجلي الصحون، أو حفر الكوسى، أو تنقية البقدونس، أو مسح النوافذ وترتيب خزائن الأولاد، أو شطف الفيراندا بخرطوم المياه. فهي أفعال في انسيابها وتكرارها تُحرّر فكري من التفكير في ما أفعله، وتمنحني فرصة العثور على الحبكات الروائية التي لا يمكن أن أعثر عليها لو جلست أفكّر أمام أوراقي لساعات. وهكذا، لسنوات، ظللت أدير حياة أبطالي أثناء إدارتي شؤون البيت، وتكوّنت عندي قناعة بأنّ الكاتبة التي تجلس للكتابة وتهمل بيتها، لا يمكن أن تكتب نصًّا جميلًا. لذا ربّما خسرت مصدر إلهامي عندما أحضرت بعد سنوات من الأشغال

المدللة الشاقة، من يساعدني في شؤون البيت. فهل سيقتنع ناشري بمبرراتي، لو أجبته بأنّ عاملة البيت وهي تشطف وتكنس وتكوي وتحفر الكوسى، كانت في الواقع تنتقم منّي بسرقة أجمل أفكاري، وأشهى أبطالي؟!

4

أصبح عندي اليوم... قطّة!

لا كن واقعيّة، ما يهدر جلّ وقتي ويستنزف طاقتي الإبداعية، هو مصيبة الأنترنت التي نزلت عليّ في شكل «نعمة تكنولوجيّة» بشّرني بها المقرّبون، بعدما كنت على مدى عقدين من الزمن أباهي بأنّني سيّدة المتمة، وأشهر عزلتي، ورفضي الظهور أو حضور أيّ مناسبة إعلاميّة. على مدى عشرين سنة كان ظهوري حدثًا. صنعت ضوئي من عتمتي، وحضوري من غيابي، وامتلكت شهرة قبل زمن الأنترنت من فضول قرائي لمعرفتي. وإذا بي الآن أخرج مكرهة للأضواء الكاشفة، وأعيش على مدار النهار مع قوم راح عددهم يتكاثر ويتضاعف في الفايسبوك حتى غدوا ملايين المتابعين والمتتبّعين لأخباري، تضاف إليهم قبائل التويتر وعشائر الإنستغرام، وما عاد من أمل في العودة إلى حياتي الطبيعية. فكلّما هممت بمغادرة الأنترنت لأستعيد عافيتي، جاءت تعليقاتهم تجرّدني من هذا الحق. مذ قلت يومًا في لحظة وجدانية إنّ «قرابة الحبر أقوى من قرابة الدم» أصبح دفتري العائلي يضمّ كلّ من قرأني، وأصبحت كاتبة باثني عشر مليون «محرم» لهم حق عليّ، فقد غدت قبيلة حبري تتحكّم في قدري، وغدا قرّائي أولياء أمري.

المضحك، أنّه كان عليّ أن أدير جمهورية افتراضيّة، برغم معاداتي للتكنولوجيا، ومعاناتي حتى زمن قريب من التكنوفوبيا، واستماتتي في الدفاع عن القلم، بما أوتيت من عناد امرأة من برج الحمل، ترفض أن تستعين بالكمبيوتر للكتابة، أو أن تقيم علاقة ودّ مع هذا الجهاز اللعين. بقيت على حماقتي حتى كتابي الأخير «الأسود يليق بك» أكتب وأمزّق عشرات الأوراق، وأهدر عشرات الساعات في إعادة نسخ ما كتبت. ثمّ، كما العرب، رحت تدريجًا أكسر قانون المقاطعة، وأطبّع سرًا مع جهاز أعلنت عليه العداء. هكذا، تعلّمت أن أنقر على الكمبيوتر بإصبع واحدة ما زلت بها أكتب نصوصي، التي حدث مرّة أن فوجئت بها قد اختفت ومحاها الكمبيوتر، لأنّني لا أعرف كيف أردّ على أسئلته الإنكليزيّة المعقدة حين تضعني أمام خيارات عدّة، لكوني لا أتقن هذه اللغة. فقد كنت أسلّم أمري لله كأيّ عربي، وأضغط على زرّ أتوسّم فيه خيرًا، وإذا به يبتلع ملفّاتي ويغدر بي، فأواسي نفسي حينها بالاستخفاف بخسارتي لنصّ أدبي مقارنة بمن، برغم إتقانهم للإنكليزية، وفهمهم تمامًا لما كان مطلوبًا منهم، سلّموا بكبسة زرّ أقدار أوطان لمن جاؤوا بنيّة ابتلاعها.

لأنّه لا منطق لهبات الحياة، فقد اختارني الله أنا بالذات ليقاصصني بما يتمنّاه غيري. كلّ أمنيتي كانت أن أتفرّغ للكتابة، وأن أخلو بنفسي في جزيرة لا يعرف بها أحد، فوهبني الله بدل ذلك نعمة العيش في بيت زجاجي أتقاسمه في الأنترنت مع ملايين البشر!

الراحل العزيز غازي القصيبي قال لي مرّة بسخريته المعهودة، وأنا أشكو إليه مصيبتي: «الشهرة كالكلبة، إن هربت منها لحقت بك وإن لحقت بها هربت منك».

ها قد شخّصتُ مشكلتي. أجمل كتاباتي وأهمّها كانت قبل زمن الأنترنت والتويتر والفايسبوك. كتبتها أثناء غربتي وعزلتي، على

دفاتر مدرسيّة كنت أشتريها مع دفاتر أطفالي. لأكتب إذن، لا بدّ لي من أن أقطع علاقتي مع هذا العالم الافتراضي، أن أغلق حساباتي وصفحاتي جميعها وأخلو بذاتي.

أحتاج إلى عتمتي للكتابة، فما سمعت بأحد يكتب تحت الأضواء الكاشفة وهو يداعب تلك الكلبة الجميلة التي تُدعى الشهرة. فحتى حين تكون صغيرة ولطيفة من نوع «الكانيش» لا بدّ لها من أن تنبح، وأن تعضّ، وأن تلفت الانتباه إليك، وتزعجك بمتطلباتها البيولوجية، وتفرض عليك الخروج لمرافقتها في نزهتها اليوميّة. وقد ينتهي بك الأمر مثل «بوش الصغير» الذي بعد أن تحكّم بأقدار العالم على مدى ثماني سنوات، ودمّر أوطانًا، وملأ سجونًا، وأباد بشرًا، غدت مهمّته حمل كيس بلاستيكي والتنظيف وراء كلب العائلة بارني أثناء نزهته في حيّه السكني بدالاس.

ما كان أحدٌ لينتبه إلى ذلك، فهذا تصرّف عادي وحضاري في الغرب، لولا أنّ بوش كان أشهر من أن يجمع «فضلات شهرته» دون أن ينجو من شماتة الكاميرا، التي كانت سابقًا شاهدة على غطرسته. فالشهرة فاضحة للمتهاوين من علوّهم!

عمومًا، وقعت على اكتشاف عجيب: الكلاب أصدقاء السياسيّين، أمّا الكُتّاب فيصادقون القطط. فبينما كان ديغول يصادق كلبه، كان وزير ثقافته أندريه مالرو يجالس قطّه بل وطلب أن يُدفن بجواره. وبينما كان ميتران يقضي نهاية الأسبوع متنزّهًا مع كلبه الأسود الشهير، كانت صديقته فرانسواز ساغان تستعين بقطّتها لمواجهة الورقة البيضاء. أمّا بوتين فيمتلك كلبين يحدث أن يحضر معه أحدهما ليروّع به ضيوفه، كما فعل يوم استقبل المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل بعدما علم بخوفها من الكلاب. هناك استثناء سجلّه ترامب، فهو أول رئيس أميركي منذ 130 سنة يحكم الولايات

المتحدة من دون كلب. لعلّ السياسيّين على أيّامنا ما عادوا يثقون حتى بكلابهم، أو لعلّ الكلاب اكتسبت حاسّة شمّ جديدة!

هكذا، غدت لديّ قناعة بأنّني أحتاج إلى الحضور الصامت لحيوان أليف كي أكتب. سأستبدل بـ«الشهرة الكلبة» قطّة أليفة نظيفة. فالذين يصادقون القطط «بيتوتيّون» مزدحمون بأنفسهم، مشغولون عن التشاوف بالتأمّل في ذاتهم. كلّ ما يحتاجون إليه، وجود كائن أليف يكسر وحدتهم دون أن يخترقها. لذا أصبح القطّ صديق معظم الكتّاب. حتى إنّ الكاتب الإنكليزي ألدوس هكسلي قال «إن أردت أن تكون كاتبًا.. فامتلك قططًا». بعض الكتّاب تقاسموا نجوميّتهم مع قططهم، كالروائية الفرنسية كوليت التي كانت تظهر مع قطّتها في كلّ الصور، أمّا مارغريت دوراس، إحدى أكبر كاتبات فرنسا المعاصرات، التي أقامت في آخر حياتها في الريف، فقد أضافت إلى قططها دجاجاتها التي أطلقت عليها أسماءً كما لو كانت أبطال رواياتها. وكانت الدجاجات تجول في مكتبها أثناء انهماكها في الكتابة، بل وتقفز وتحطّ فوق أوراقها تاركة توقيع مرورها! وهو ما أتذكّره كلّ يوم، حامدة الله أنّ الدجاجات الخمس والديك، التي أحضرها زوجي قبل فترة وأفلتها في الحديقة لا يمكنها الوصول إلى مكتبي، وإلّا لكانت شاركتني توقيع هذا الكتاب!

همنغواي حوّل بيته الجميل في كوبا إلى مزرعة بتصرّف 59 قطًا تقاسمتها معه. أمّا نزار فلطالما تغزّل بالقطط الشامية الممتلئة صحّة ونضارة، وكانت له في لندن قطّة بيضاء سيامية أرستقراطية تظهر في صوره جالسة في حجره. سنة 1999 حين أخبرته بأنّني سأزور غرناطة لأوّل مرّة، قال لي «قد تصادفين هناك قطة أندلسية لي قرابة بها، سلّمي لي عليها». نسيت مطلبه، إلى أن وجدت قطّة جميلة في

فهلولة على عتبة باب عربي من بيوت غرناطة، فالتقطت لها صورة، أطلعته عليها لاحقًا لأؤكد له أنّ سلامه قد وصل.

في اقتناء الكاتب قطّة فوائد خبرها الكُتّاب الأولون. إنّه يجالس كائنًا لا يتجسّس عليه، لا ينقل حديثًا منه ولا إليه، لا هو في منافسة معه ولا هو مفروض عليه. فالكاتب يحتاج إلى حضور كائن غير ناطق ولا مزعج يؤنسه لحظة الكتابة، من دون أن يقطع حبل أفكاره بسرد أخباره، أو بفحيح نميمته، التي تزيد نسبة سمومها إن كان الجليس من فصيلة بعض الكتّاب أو الكاتبات، وهذا بسبب ظاهرة الغيرة والحسد، الملازمة منذ الأزل لكلّ أوساط الإبداع.

بالمناسبة، الحسد مضرّ بالصحّة، وهو يظهر على سحنة صاحبه، لكونه يتغذى من راحته وجسده وإبداعه، فهو استنزاف لطاقته. لذا جاهدت نفسي باكرًا كي لا أكون معنيّة بمكاسب أحد أو بخساراته. فالنجاح رزق ككلّ الأرزاق بيد الواحد الأحد، ولن تجدي المكائد مهما الحسود اجتهد.

النجاح ينجب لنا الأعداء، لكنّ المأساة تكمن في كوننا لا نظفر دائمًا بخصوم يليقون بنا. في زمن مضى كان الخصوم كبارًا وعلى قدر من الخلق، وكانت المعارك الأدبية من الأهمّية والثراء بحيث لا يزال التاريخ يذكرها. اليوم تقزّم الأعداء، وما عادوا أهلًا للمنازلة، غدا همّهم أن يكبروا بمن يُعادون، فلكلّ صغير عدوّ كبير يوفّر عليه العناء.

في زمن على هذا القدر من السرعة، يصير ضربًا من الحماقة أن تواظب على الكتابة أربعين سنة لتصنع اسمًا، إن كان بإمكانك أن تختصر أربعة عقود بالتشهير بكاتب شهير، فتتساوى معه لبرهة من الزمن..

أعتقد أن أهمّ قرار يمكن أن يأخذه كاتب هو أن يكون سعيدًا، أي غير آبه ولا مهتمّ، وهي درجة من الترفّع عمّا يصادفه أيّ مبدع من

استفزازات، ما كنت لأبلغها لولا مساندة زوجي، الذي روّض مزاجي الجزائري، وأقنعني بأن أرى الأمور بعين التاريخ، لا بانفعال اللحظة.

كلّما زرت دار نشري، التي تزيّن مكاتبها وممرّاتها أقوال كبار الكُتّاب، استوقفني قول فولتير «قرّرت أن أكون سعيدًا فهذا أفضل للصحّة»، لكنّ فولتير لم يعطنا وصفته الشخصيّة للسعادة، ومن الأرجح أنّه كان يملك وصفة غير تلك المعاصرة التي عثرت عليها أخيرًا في بحث قام به فريق من علماء النفس في أميركا، خلاصته أنّ السعادة هي أن يكون لك حيوان أليف.. وحبيب بعيد!

معقول؟!

كيف لم نهتدِ لهذه الوصفة التي لم تعرف السعادة أسهل منها؟ فالشوارع العربيّة تعجّ بالقطط الشاردة التي تبحث عمّن يتبنّاها. أمّا الأحبّة، فهم غائبون أو مسافرون أو مشغولون، أو مشرّدون أو مغادرون، وهذا يناسبنا تمامًا، فهم غير موجودين إلّا على هواتفنا، تفصلنا عنهم دائمًا مسافة المستحيل.

بدل أن تضحكوا تأمّلوا النصيحة، حتى لا تندموا على قطّ ظلّ يستعطفكم بموائه فأبعدتموه، ولا تبكوا يومًا من حبيب كلّما ازددتم قربًا منه ازداد احتمال ابتعاده!

باختصار: ما توصّلوا إليه، هو أنّ الوصال يقتل الحبّ. وهو ما استنتجه العرب في الجاهليّة قبل علماء النفس في أميركا بأربعة عشر قرنًا. أمّا وصفة السعادة، فقد اكتملت لدى العرب بحكم بيئتهم، بتبنّيهم الحصان رفيقًا، وقد استحوذ الحصان على مشاعر صاحبه، حتى أطلق العرب على الخيل سبعين اسمًا (بينما على حبّهم لها لم يعط الغربيّون القطط في كلّ اللغات إلّا اسمًا واحدًا) وغدا، في غياب الحبيبة، الحبيب والصديق الأليف الوفيّ، الذي يرافق صاحبه

في ترحاله ووقوفه على الأطلال، وهو الشاهد على غزواته وعلى ميلاد أشعاره.

هلّا سألتِ الخيل يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

قال عنترة بعنفوان متوجّهًا إلى عبلة مُشْهِدًا حصانه على بطولاته.

وكما كان فيكتور هيغو وبابلو نيرودا وإميل زولا يجلسون ليلًا للكتابة في حضرة قططهم، كانت الخيل والليل والبيداء تعرف شعراءنا، فهم يمتطونها منشدين شعر الحنين، ويستأنسون بها عند الفراق، ويُشهِدونها على تقلّباتهم الوجدانيّة. باختصار، كان أسلافنا سعداء، يملكون حيوانًا أليفًا وحبيبة بعيدة، من الأفضل الوقوف على أطلالها على اللقاء بها، من أجل الحفاظ على الحبّ مشتعلًا بالمسافة. ألم يقل جميل بثينة:

يموت الهوى منّي إذا لاقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعودُ

ذلك أنّ العلاقات عبر المسافات الطويلة تتميّز بالاستقرار، والدوم لفترات أطول، فالبعد يصنع المعجزات، ويؤثّر بصورة مدهشة على العلاقة بين حبيبين، ويولّد أحاسيس غامرة بالشوق والحنين، فما يخفّف فرص الشجار، والخلافات التي تنهي معظم قصص الحبّ، وتصنع تعاسة العشاق. ولنا في علاقة جبران ومي زيادة أكبر دليل: هل كانت قصّتهما لتستمرّ 19 سنة لو أنّهما كان يعيشان معًا أو يلتقيان يوميًّا؟!

وبما أنّ العثور على حبيب قريب أو بعيد يحتاج إلى عدّة اختبارات، فلنبدأ باقتناء قطّة. لنضمن على الأقل نصف السعادة.

وليعذرنا جبران القائل «لا تقبل بالنصف فلست نصف إنسان»، فنصف السعادة مع الوقت قد يجلب لنا نصفها الثاني.

ها قد أصبحت الأمور واضحة أخيرًا. إذن، من أجل إنجاز كتاب أحتاج أولًا إلى قطّة، وإلى الانقطاع عن كلّ من يحوم حولي. أريد كائنًا أليفًا ظريفًا لا ينطق، لا يحسد، لا ينافق، لا يستغلّ. كائنًا نكرة أثق بوفائه، لن يتغيّر، لأنّه لن يثرى فجأة، ولا هو سينجح فيغترّ، ولن يعضّني كلما تذكّر أنّني أطعمته يومًا.

نقلت البشرى لناشري:

– لم يحدث أن كنت سعيدة كهذه الأيّام. لقد اقتنيت قطّة، وقرّرت إغلاق صفحتي على الفايسبوك، لأتمكّن من الكتابة.

فاجأه هاتفي، ولم يدر نسبة الجدّية في ما أقول.

سألني:

– هل هي رواية؟

أجبته:

– ليس تمامًا، لديّ فكرة جميلة.. سأكتب عن الفراق.

– أهو الجزء الثاني لـ«نسيان. كم»؟

– لا أدري بعد.. سيتّضح لي الأمر أثناء الكتابة.

– والرواية؟

– كلّ كتاب رواية.. في ذهني روايات كثيرة جميلة، سأكتبها حال إنهائي هذا الكتاب، إنّني أحمله في ذهني منذ سنوات، لن أستطيع الكتابة إن لم أنجزه. ثمّ إنّ الفراق كتاب الساعة، الناس جميعهم هذه الأيّام على فراق. لو كان لهذا العصر من صفة لكان عصر الفراق.

استسلم لمنطقي واثقًا كعادته برأيي:

– هل من شيء يمكن أن نوفّره لك، لمساعدتك على إنجاز الكتاب بسرعة؟

كدت أجيبه مازحة «أحتاج إلى حبيب بعيد». لكنّه ما كان يعرف المقولة، ولا كان ليفهم نكتتي.

أجبته ضاحكة:

– القطة تلازم مكتبي، وليست مُقصّرة بواجباتها الأدبيّة معي. أظنّ أنّني سأنجز الكتاب في أقرب وقت.

قطعت المكالمة، وواصلت مداعبة قطّتي، كما لأضمن مساعدتها لي في معركتي الجديدة.

وأنا أراها تنتقل من سطح مكتبي إلى حجري، لتغفو مطمئنّة امامي، تمنّيت أن أخبر نزار الذي ما كانت قطّته تفارقه عند الكتابة، أنّه أصبح عندي الآن قطّة. ثمّ تذكّرت قصيدته «أصبح عندي الآن بندقية» التي لحّنها عبد الوهّاب وغنّتها أمّ كلثوم في زمن البنادق والقضايا... أذكر مطلعها لفرط ما كان المذياع يبثّها في السبعينيّات «أصبح عندي الآن بندقيّة / إلى فلسطين خذوني معكم / قولوا لمن سأل عن قضيّتي / بارودتي صارت هي القضيّة». ماتت هذه الأغنية، ولن نعثر على مطرب يتطوّع اليوم لغنائها، ولا على فضائيّة تجرؤ على بثّها، فالأغاني الثوريّة أصيبت بسكتة أبديّة، والبندقيّة لم تعد قضيّة ... ولا حتى غصن الزيتون له أتباع أو أنصار على الضفّة الأخرى. نمدّه لهم صادقين، لكنّهم يريدون ذراعنا لا الغصن.

نحن نريد العيش على هذا الكوكب بأمان، لكنّنا ضائعون، بين من يرى السلام استسلامًا، ومن يرى النضال ضربًا من الجنون. وفي النهاية، وجدنا الحلّ في أن يكون لنا «آيدول» لا يمسك سوى الميكروفون، سمّيناه «آيدول العرب». على مدى أعوام جرت برمجتنا كي لا ننجب علماء ولا مفكرين، ولا رجالات ولا مناضلين، بل جيلًا من المطربين. وهو الخيار الوحيد الذي فاز بإجماع شباب يتابع

إنجازات من هم قدوته من النجوم، وهم يستعرضون ثراءهم السريع على الإنستغرام.

الزمن تغيّر يا نـزار.. وأنـت لا تـدري من بعدك ما صـار، لذا اعذرني إن غدت قطّتي هي القضيّة!

الجزء الثاني

ما جدوى رسائل حبّ تصل متأخّرة،
لحبّ ما عاد له من صندوق بريد

1

لإنقاذ الصدق.. أكذب

كلّ القرارات التي عجزت عن تنفيذها، أخذتها غالبًا في بدايات السنة، معاهِدةً نفسي بحماسة كبيرة على إنجازها في العام المقبل.

ثمّة جوّ عامّ لا يشجّع على شدّ العزائم، يبرّر تهاوننا هذه الأيّام في حق أنفسنا، وإهمال التزاماتنا. فالأهوال التي نشهدها جعلت كثيرًا من الأمور المصيريّة تبدو غير ذات أهمّية. الحياة نفسها غدت مسرحًا عبثيًّا. بتقلّباتها السريعة، ستجعلك تندم كلّما وفيت بعهد قطعته على نفسك، لأنّه لا شيء ممّا آمنت به كان يستحق تضحيتك، أو لأنّ ما تمنّيته طويلًا أصبح غير مناسب للواقع.

أذكر الشعار الذي رفعه الطلبة في باريس خلال انتفاضتهم سنة 1968 «كن واقعيًا، اطلب المستحيل!». نحتاج إلى من يثبت لنا أنّ المستحيل ممكن، في زمن ما عاد فيه حتى الممكن بإمكاننا.

إن استطاعت إيزابيل أللندي أن تجلس في اليوم نفسه من بداية كلّ عام لتشرع في كتابة عمل جديد، فبإمكاني أن أفعل ذلك أيضًا. أغبطها، تلك التشيليّة التي تملك مزاجًا لاتينيًا ببهارات إسبانية، والتي تحبّ الحبّ والطبخ، وتحبّ الحياة بقدر ما نهدرها

نحن في التفاهات. كلّ 8 يناير، تضع على النار كتابًا جديدًا، التزامًا منها بنظام صارم في الكتابة.

كلّ كُتبها بدأتها في ذلك التاريخ، يوم جاءها الحظّ في شكل مأساة. فقد تغيّرت حياتها يوم 8 يناير 1981 عندما علمت بوفاة جدّها، وما استطاعت، بسبب الانقلاب العسكري، العودة إلى التشيلي لتودّعه، فراحت على مدى سنة تكتب له رسالة طويلة من 500 صفحة. لم تكن تدري أنّها بين الدموع والأرق وما يشبه الجنون، كانت تكتب روايتها الأولى.

الرسالة أصبحت رواية عنوانها «بيت الأشباح»، تُرجمت إلى ثلاثين لغة، وقرأها العالم أجمع.. إلّا جدّها. فأجمل الروايات رسائل لا يقرأها من كُتبت لهم. إنّها دومًا تُضيع طريقها إلى المرسل إليه، وربّما في هذا يكمن سرّ نجاح الروايات التي لا تصل أبدًا، فلا ساعي بريد يتكفّل بإيصالها إلى العالم الآخر.

مُنذ روايتها الأولى وإيزابيل أللندي تتبع الوصفة نفسها للنجاح: في 7 يناير تبدأ بتنظيف غرفة الكتابة من آثار الكتاب السابق. في 8 يناير، تحرق البخور كي تطرد من الغرفة أرواح وأبطال الرواية السابقة، ثمّ تُشعل شمعة وتجلس أمام مكتبها لتكتب أوّل جملة تخطر ببالها. تلك الجملة التي لم تقم بأيّ جهدٍ للعثور عليها، هي التي ستُعطي للرواية إيقاعها.

في كلّ ما تكتب، تخترع حيوات تُقنعك بأنّها جميعها حياتها، حُجّتها أنّ «أفضل ما في الكتابة صناعة الصدق من مجموعة الأكاذيب». أوافقها تمامًا، فقد سبق أن كتبت أنني «لإنقاذ الصدق أكذب، ولمزيد من الكذب أكتب»، وبإمكان بعض الروائيّين تفكيك شيفرة ما أقول.

قال لي مرّة الدكتور غازي القصيبي ممازحًا، وهو يتحدّث عن الأكاذيب الزوجية: «نحتاج إلى خمسة في المئة من الحقيقة لنخفي ٩٥ في المئة ممّا نقوله من أكاذيب». وأعتقد أنّ الأمر لا يختلف في الأدب، حيث يدوزن كلّ كاتب نسبة الحقيقة والكذب في نصّه، على اعتبار أنّ نصّه موجّه لقارئ سيدقق في كتاباته كما لو أنّ بينهما عقد زواج، وتزيد وتنقص نسبة تصديقه أو تكذيبه، بحسب حسن نواياه أو سوء ظنّه بالكاتب. تمامًا كما ناب الشعب الأميركي عن هيلاري في محاسبة كلينتون عندما انكشفت خيانته لها، فهبّت هيلاري بشجاعة لافتة في نفاقها وأهدافها، معلنة أنّها غفرت له خيانتها مع المتدرّبة اللعوب.

لكنّ الشعب الأميركي كان له رأي آخر. فبالنسبة للأميركان، إنْ من يخون زوجته لا يمكن أن يخلص لوطنه. ومن لا يحترم قسمًا زوجيًا أدّاه أمام رجل دين، لن يحترم قسمًا دستوريًا يؤدّيه أمام الشعب. وكان لا بدّ لرئيس أكبر دولة في العالم من أن يظهر منكسرًا معتذرًا لشعبه لأنّه ضعف ذات يوم، كأيّ رجل، أمام مقصوفة الرقبة مونيكا لوينسكي.

أمّا عندنا، فيُعفى الحاكم من تقديم أيّ اعتذار لشعبه، برغم كونه يتصرّف كما لو أنّه عقد قرانه عليه، بينما يطالَب الكاتب بتقديم جردة حساب لقارئه، كما لو أن هذا الأخير، يوم اشترى كتابه، كتب كتابه عليه، ليحاسبه على ما كتبت يداه، وعلى خياله ونواياه، لأنّه وإن لم يكن من سكّان البيت الأبيض، بل فقط الصفحة البيضاء، فقد استسلم لغواية الحبر، وارتكب جرم الكتابة لقرّاء يختلفون في معتقداتهم وأمزجتهم وتفاوت ثقافاتهم وأهوائهم، وعليه أن يؤدي قسم البراءة عند نهاية كلّ صفحة يخطّها، كي يرضى عنه كلّ الشعب

العربي على اختلاف مذاهبه وانتماءاته، وهي الوصفة المثالية للإخفاق الأدبي.

أيّها الكاتب، لا تعتذر عمّا كتبت... ولا عمّا فعلت، بحسب نصيحة درويش.

لا تخشَ ما ستكتب.

ليكن هذا قرارك الأول وأنت تشرع في كتاب جديد.

2

«رأيت برقًا.. فقلت هذه أنتِ!»

انطلقت الأسبوع الأول من السنة الجديدة بلهفة وفضول. استعجلت اختبار قدرتي على رفع التحدّي الأدبي.

رحت أطبّق الوصفة بتفاصيلها:

أشعلت الشموع، وأحرقت البخور لأُبعد أشباح الكتب السابقة. ولأنه لا خبرة لي في هذه الأمور، حرصت أثناء ذلك على ألّا أحرق ثوبي ولا مكتبي، فقد تذكّرت مثلًا تردّده أمي «جات تبخّر حرقت لعندورة عرسها» أي أرادت إحراق البخور لإبعاد النحس فأحرقت أغلى ما تملك!

أغلى ما يملك الكاتب هو أوراقه، وهي عندنا لا تحترق سهوًا، بل قصدًا، فنحن لنا تاريخ طاعن في حرق الكتب، لأكثر من سبب، لعل أكثر المحارق عددًا، وأكثرها تجنّيًا، فهي تلك التي أشعلها الكُتّاب لأنفسهم، وألقوا إلى نارها بما قضوا أعمارهم في كتابته. تطول قائمة العلماء الذين، عبر العصور العربيّة، أحرقوا بأنفسهم ما كتبوه حتى لا يحرّف بعد موتهم، والشعراء الذين أحرقوا أشعارهم يأسًا، أو بؤسًا، أو خشية بطش حاكم. ثمّ جاء زمن الكمبيوتر، وما عاد بإمكان أحد

إحراق مخطوط. المخطوطات لم تعد موجودة أصلًا، وهذا مصدر حزن من نوع آخر.

إنّها أمامي الآن. شاشة تطمئنني أنّ لا شيء ممّا سأكتبه يمكن حرقه، لكنّ كبسة زرٍّ واحدة كافية لمسحه وحذفه، فهل في هذا ما يطمئن كاتبًا يعنيه أن يرى رماد كلماته؟

كما لو كنت على موعد مع حبيب افترقت عنه قبل أربع سنوات، أواعد الكتابة، لكن في عنوان جديد. موعدنا هذه المرة على صفحة بيضاء افتراضية، فأنا أجازف لأول مرّة بالكتابة على الكمبيوتر وهذا إحساس جديد. ما عادت الصفحة تتمدّد على مكتبي، أسوّدها وأمزقها أو أحوّلها عند الندم إلى كمشة ورق في قبضة يدي، بل أصبحت أنا الآن في قبضتها. هي في مواجهتي، كما لو كانت كائنًا حيًّا، وأنا مرتبكة ارتباك العشّاق وصمتهم لحظة وجودهم متقابلين، بعد فراق طويل. كلّ أنواع الفراق تحتاج إلى صدمة الصمت قبل النطق بأول جملة. فكيف أكسر بيننا صمت الأعوام؟

الجملة الأولى، بحسب إيزابيل، لا بدّ من أن تكون تلقائيّة، تأتيك دون جهد، ومنها يتدفق شلّال الرواية. أأكون أخطأت لأنّني تعبت كثيرًا في الماضي للعثور على جملة أولى أبدأ بها رواياتي، ولأنّني عملت طويلًا على دانتيل الكلمات لصياغة صفحاتي الأولى بشاعريّة عالية، محاكية حماقة فلوبير الذي كان يقضي أيّامًا في إعادة صياغة جملة واحدة؟

رحت أجرّب الوصفة..

بعد عدّة محاولات، وجدتها لعبة مخيفة. أن تبدأ كتابًا عن الفراق بأول جملة تخطر ببالك، فهذه مجازفة أدبيّة وعاطفيّة غير مضمونة العواقب. كأن يفاجئك البرق وأنت في موعد هام فيضيء في لمح بصر ما أخفيته. الجملة الأولى هنا حالة برقيّة بالمعنى الأول

والثاني للكلمة، لأنّها في إيجاز رسالة تُبرق بها لأحد، لكنّها على قصرها مدوية ومشتعلة كبرق. حتمًا إنّها الأصدق.

البرق.. يأتي بعد عتمة الغياب. إنّه حالة ضوئية مباغتة، فاشفة لما، أثناء سنوات الانقطاع الطويلة، أخفاه طول الصمت.

سنة 1995، اتّصل بي ناشري آنـذاك، الدكتور سهيل إدريس رحمه الله، ليخبرني أنّ نـزار قبّاني في بيروت، وأنّه يتمنّى لقائي، واقترح أن أحضر أمسية شعرية سيقدّمها في برمّانا. علمت في ما بعد أنّه قبِل الدعوة لأنّها كانت من مدرسة «برمّانا هاي سكول» التي درس فيها ابنه توفيق رحمه الله.

لم أكن قد التقيت نزار منذ سنة 1975 يوم زرت بيروت لأول مرة، في ذلك الزمن الجميل، شاعرة في العشرين من العمر، قادمة لتوي من الجزائر، وها أنا ألتقيه روائية، لم يسمع بعد بعملي الأول إلا من الدكتور سهيل ادريس. سعدت بالدعوة، لكنّي وصلت متأخرة بعض الشيء ريثما أمّنت للأولاد من ينوب عنّي في البقاء معهم.

وصلت وكان نزار يقرأ شعرًا. كانت القاعة صغيرة، ولم يكن من الصعب عليه أن يلمحني وأنا أدخل. عندما انتهت الأمسية وقصدته لأسلم عليه، بعد عشرين سنة من الغياب، كانت أول جملة قالها لي «رأيت برقًا.. فقلت هذه أنتِ!».

لا أدري كيف عادت لي هذه الصورة الآن كمشهد سينمائي، رغم كونها لم تستوقفني آنـذاك. بعد جملة كهذه يتّفق الشعراء والسينمائيّون على أنّه يجب الصمت. لكنّني، لإخفاء ارتباكي، تحدّثت بعدها كثيرًا، ولم أعد أذكر الآن ماذا قلت.

من وقتها أصبحت أرى في كلّ لقاء بعد غياب حالة ضوئية، في شكل برق.

من أين آتي إذن ببرق أبدأ به هذا الكتاب؟

منذ البدء فشلت في مجاراة إيزابيل أللندي. لن أجرؤ على كتابة أول ما يخطر في ذهني. سأدّعي أنّ الأدب أكثر رصانة من مجازفة كهذه. ثمّ إنّني أخشى أن يضحك منّي النسيان، وأن أخسر منذ الجملة الأولى الرهان، فهو يدري أنّ في كلّ احتفاءٍ بالنسيان تحرّشًا بالذاكرة، وفي كلّ تجميلٍ للفراق، اشتهاءً للّقاء.

ها قد جبنت منذ الجملة الأولى. ألهذا الحدّ يمكن أن ترعبني جملة، عندما تفلت من رقابتي الذاتيّة؟

أحد دروس نزار التي ما نسيتها، كان «عليك أن تدافعي عن الجملة التي تخافينها.. لأنّها أنت». وهل يخاف المرء شيئًا أكثر من حقيقته؟ هكذا، دافعت كثيرًا عن جمل أخطر ممّا أأبى اليوم أن أكتبه، فقد كان في دفاعي آنذاك شجاعة الكاتبة المدجّجة بالقيم، والثابتة على المبادئ السياسية. أمّا في كتابي هذا، فيتحكّم بي كبرياء المحبّ، وذعر المرأة العربية التي حوّلها المجتمع من غزالة إلى دجاجة، والتي عليها، عندما يتعلّق الأمر بالحبّ، أن تفكّر كثيرًا قبل أن تنطق، وتبرق، مخافة أن تحترق!

لو طُلب من العشّاق أن يكتبوا لمن فارقوهم أول جملة تخطر ببالهم، مهما كانت الخلافات، والمشاحنات، وأسباب الفراق، لبدأت 90% من الرسائل بكلمة «اشتقتك»، وكلّ ما يليها سيكون قابلًا للكذب. الكلمة الأولى كالفكرة الأولى، وحدها تشبهنا. بعدها نبدأ باختيار كلماتنا، وانتقاء بوحنا، وسرد عتابنا، وتحميل الآخر ذنب افتراقنا. ولا جدوى من مواصلة الكلام، فكلما تقدّمنا في الكتابة، نقص منسوب الصدق، ونابت عنه عزة النفس والكبرياء. وكيف لنا بالمكابرة أن نصنع أدبًا.. أو ننقذ حبًّا؟

بعد الجملة الأولى نغتال ذلك البرق. كلّ ما يليها يطفئ ما أشعلته فينا الفرحة من ضوء.

لا تختر كلماتك بعناية، لا تصحّح لقلبك تدفّقه الأول، فليست بلاغة الرسائل ما يدهشنا بل صدقها، وليس طولها بل وقعها.

أيّها العشاق... مهما كانت أسباب الفراق، إن وهبتكم الحياة فرصة لقاء بعد قطيعة، فتوقفوا لبرهة عند الجملة الأولى، كي تطيلوا صدق تلك الحالة الضوئيّة. أبرقوا كي تصدقوا!

3

عذرًا يا جدّي.. كم تمنّيت الكتابة إليك!

أمام شاشة الكمبيوتر، جلست طويلًا أتساءل ماذا أكتب؟

أليس من المنطقي أن أعرف أولًا لمن أكتب، لأعرف ماذا عليّ أن أقول؟ إيزابيل أللندي كتبت رسالة لجدّها، لأنّها لم تستطع حضور جنازته. لعلّها فرصة لأكتب بدوري لجدّي أحمد، برغم كوني لا أدري ماذا يمكن أن أقول لجدّ ما التقيته ولا هو سمع بي، ولا درى بما ستكونه حفيدته في زمن غريب عن عالمه. لم أره سوى في صورة، ببرنسه الأبيض المهيب وعمامته البيضاء وشواربه المفتولة إلى الأعلى كشوارب نصري شمس الدين في مسرحيّات فيروز، وبتلك السلسلة الذهبية المتدلية من جيب صدريته وفي طرفها ساعة مستديرة احتفظ بها أبي من بعده.. إنّه خلاصة انصهار أندلسي فلسطينيّ، يحتاج إلى كتاب كامل له وحده، فمجرّد نظرته الصارمة، التي توجّه بها إلى عدسة المصوّر، تصيب قلمي بالشلل.

ماذا سيفهم جدي عمّا سأقول له عن الفراق؟ رجل رحل بتوقيت الحروب الكبرى، في زمن ما كان الفراق فيه هاجسًا عاطفيًا، بل كان قدرًا تتحكم فيه المجاعات والأمراض والحروب العالمية. اليوم، ما زالت الآفات نفسها، لكن زدنا عليها حروبًا كونية نخوضها مع الأجهزة

الذكيّة. أصبحت التكنولوجيا هي ما يفتك بنا. غدا لنا فراق عصريّ، وهجران إلكترونيّ، ومجاعة هاتفيّة، وخلع افتراضيّ، وقطيعة تلصّصية، تزيدنا شوقًا مرضيًا. نعاني من داء لامرئي تفشّى في البشرية جمعاء، ولا شفاء منه، بسبب استحالة عودتها إلى الوراء.

ما عادت سعادتنا في اقتناء هاتف آخر موديل. أصبحنا نحتاج معه إلى تعهّد من الشركة بأن تعيش قصص حبّنا المتعلقة بمصل الهاتف، ما دام صالحًا للاستعمال. نحتاج إلى أن تمدّنا الشركة بشاحن إضافي لشحن العواطف عندما تشارف على الانطفاء، وضمان خطّي بأن لا يتسبّب هذا الجهاز الملعون بتعاستنا وأرقنا، ووعد بأن يحمل لنا رسائل واتساب لا عتاب فيها ولا عذاب، ولا انقطاع ولا غياب. رسائل لا تعبث بنشرتنا النفسيّة، ولا تودي بنا فرحًا حين البدايات، ولا قهرًا عند النهايات. نريده حمامًا زاجلًا يحمل لنا كما في الماضي الأخبار الجميلة، يوشوش لنا بالأسرار لكن على انفراد، ولا يرينا على الإنستغرام، على مرأى من جميع الأنام، صورة «نصفنا الآخر»... عندما لا نكون نحن نصفه الحاضر!

اعذرني لا أعرف ماذا أكتب لك يا جدّي، ولا كيف أصف لك زمنًا لا علاقة له بعنفوانك وشاربك، ولا بساعتك الذهبيّة المتدلية من صدر بدلتك. هذا زمن لم يخطر أبدًا على بالك.

والله يا جدّي أحمد، لا نُحسد على ما نحن فيه من نعمة، فقد زاد الأمر عن الحدّ، حتى غدونا نغبطكم على رسائلكم القليلة، وصوركم النادرة، وقصص حبّكم الفريدة. هذا الكتاب ليس لك، لأنّه يصعب على من لم يرَ في حياته هاتفًا ذكيًا، أن يفهم كيف أنّ جهازًا في حجم علبتك الفضّية للتبغ، يفعل اليوم بالبشريّة العجب، ويستغبينا إلى هذا الحدّ!

لمن أكتب رسالتي الطويلة إذن؟ هل من الضروري أن أتوجّه لشخص رحل، ليكون لها تأثير أكبر؟ وماذا عن الراحلين الأحياء، المختبئين في شريحة هواتفنا، وفي تلافيف ذاكرتنا، الذين مضوا دون أن يغادروا، هل في رسائلنا المتأخرة لهم يكمن الإبداع؟ وهل نحتاج لرحيل من نحبّ لنكتب نصّنا الأدبي الأجمل؟ وما دمنا ندري ألما لا محالة سنفترق، لماذا إذن نجازف بالكتابة إليهم؟ هل ثمّة حقًّا من يستحقّ؟

4

«نادرًا هم الصادقون!»

«لا تقل "أحبّك" فلقد سمعتها بعدد نجوم السماء.
افعل ما يمليه عليك حبّك، فنادرًا هم الصادقون».

(غسّان كنفاني)

السؤال الأهم، هل ما زال هناك من يستحق رسائلنا، وقد أصبحت الرسائل مصدر رزق بالنسبة للبعض، وضربة مجد أو مباهاة للبعض الآخر، ووسيلة شهرة وتشهير لمن ليس له ضمير؟

هل كانت الأميرة ديانا تدري بأنّ الضابط البريطاني الذي أحبّته في لحظة خيبة وضجر، وكتبت له تشكو وحدتها، سيعرض رسائلها يوما للبيع بذريعة حاجته إلى المال، وأنّ ابنها الذي تركته طفلًا سيشتريها حين يكبر، بعشرة ملايين جنيه استرليني، ليمنع عرضها في مزاد علنيّ وليحمي حرمة أمّه في قبرها؟

لعلّ أجمل قصّة في هذا السياق، هي ما حدث للكاتب الأميركي ج. د. سالنجر المشهور باختفائه عن الأنظار، إلى أن اخترقت عزلته سمنة، ما إن فازت ببضع رسائل منه حتى عرضتها للبيع في المزاد، بحجة حاجتها لدفع تكاليف دراستها. فقد اشترى أحد الأثرياء من

محبّيه الرسائل وأعادها للكاتب، مبرهنًا على أنّ قرابة الحبر قد تضاهي قرابة الدم، وأنّ حرص القارئ على كاتبه، وغيرته على اسمه، لا يقلّان عن غيرة وحرص أبنائه وأهله عليه. أتصوّر أنّه قال له وهو يعيدها إليه «خذ رسائلك أيّها الغبيّ.. ولا تعد حماقتك مجدّدًا!».

رسائل الحبّ اليوم تُعرض للبيع، بعضها في مزاد وأخرى في مؤلّف. يمكنك شراؤها إن كنت تملك ثمن الانفراد بامتلاكها، أو الاكتفاء بقراءتها بثمن كتاب، فهل ما زال هناك من يجازف بائتمان أحد على مشاعره ودموعه؟! ما الذي يجعل العشاق يجازفون بإيداع دموعهم وبوحهم في رسائل لا يدرون أين ستنتهي، مراهنين على سطوة الحبر وتأثيره على حبيب مفارق؟

ذلك أنّ ثمّة من يتربّص بضعفك البشريّ، ويجمع فتات كلماتك، ونزف قلبك العاشق قطرة قطرة، في انتظار موتك، ليصنع منها كتابًا، بذريعة أنّ ما يكتبه الكاتب هو ملك الأدب. البعض يملك شجاعة منقطعة النظير تمكّنه من التجوّل الإشهاري في أوراق كاتب رحل، وعرض تخطيط قلبه يوم كان عاشقًا، ونشر وشوشاته، وذبذبات مشاعره، على بشر يواصلون التلصّص على ذاكرته بعد موته. وذلك من دون أن يكون لهذا الكاتب حق الدفاع عن نفسه، أو نشر ما في حوزته من رسائل الطرف الآخر، فهو كاتب مستباح بحكم رحيله، سيُنكَّل به باسم الحبّ حينًا، وباسم الأدب في حينٍ آخر، ولن يُمنح حقّ الردّ، ليبدو رغم رفعة قامته غبيًّا ومراهقًا يكتب عشرات الرسائل لمن ليس معنيًّا بالردّ عليه. ذلك أنّ النرجسيّة العربيّة تستدعي أن يكون الميت في دور «المجنون» وأن تكون «ليلى» مشغولة عن ألمه بالتباهي بمعلّقاته. ولا يهم إن تسبّب ذلك للأحياء من أهله بصدمة قد تودي بشريكه إلى المستشفى، وهو ما حصل فعلًا لزوجة كاتب ومناضل فلسطيني كبير، بعد قراءتها ما كتبه زوجها الراحل لامرأة أخرى يشكو

لها حبّه وعذابه بينما كانت هي، الزوجة «الغربيّة» التي عقدت قرانها على قضيّته، منهمكة في رعاية أبناء شعبه في المخيّمات الفلسطينية.

أو كذاك الشاعر الذي، لمّا كان حيًّا يُرزق، لم تسأله «ليلى» هل يأذن لها بنشر رسائله القديمة التي تعود إلى نصف قرن، ولا خطر ببالها نشرها طوال السنوات الخمسين السابقة كي يحظى بقراءتها أثناء حياته، ونعرف منه رأيه وتوضيحاته ما دام هو المعنيّ الأول بها. لم تستشره «ليلى»، لكنّه ما كاد يغمض عينيه، حتى تذكّرت أنّ لها من رسائله ما يصلح كتابًا تقلب به الطاولة على «الجبناء الذين يخافون الحقيقة»! إن كان بعض الظنّ إثمًا، فبعض الجبن وفاء.. وبعض الجبن هلل حياء، فـ«الحقيقة» لا تؤذي الأموات بل الأحياء!

كان غوته على حق إذن حين طلب بعد نصف قرن من كلّ الذين راسلهم إرجاع رسائله. فقد كان يريد أن يرتّب لنفسه بعد موته حياةً لا وشاية فيها ولا خيانات تهتزّ لها صورته أمام التاريخ.

إنّه لأمر يصيب المرء بالقرف، أن ترى رسائل ونستون تشرتشل إلى صديقته الحميمة وحبيبته التي رفض والدها تزويجها به، قد انتهت في أيدي الغرباء ومعروضة في مزاد. فاتنة هوليوود إليزابث تايلور ما كادت تغمض عينيها، حتى كانت رسائلها معروضة للبيع، ومثلها أسطورة الأوبرا ماريا كالاس التي غدت دموعها المنهمرة في رسائلها لأوناسيس تستجديه عدم التخلي عنها، بعد زواجه بجاكلين كينيدي، في متناول الناس الفضوليّين.

لذا، التزم الكثيرون من الكتّاب الغربيّين بالخيار الأخلاقي، فأودعوا رسائلهم ومذكّراتهم الشخصية في البنوك، مع تعليمات برفع السرية عنها ونشرها بعد زمن قد يصل إلى خمسين سنة، كي يضمنوا عدم إلحاق الأذى بأقاربهم أو بأقارب المعنيّين بالأمر، مضحّين بأيّ مكسب أو مجد أدبي في حياتهم.

وتبقى أجمل رسائل الحبّ، ليست المسروقة من أصحابها، اليتيمة المنشورة غصبًا عنهم، المعروضة دون إذن منهم، بل تلك التي كُتبت على مدى عهود بنيّة أن تخلد، والتي أرادها أصحابها وثيقة أبديّة، وهديّة أخيرة يبعثونها من قبورهم لأحبّة كانوا أهلًا للحبّ.

إحداها، الألف والمئتان والخمسون رسالة التي كتبها الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران إلى حبيبته آن بانجو على مدى ثلاثين سنة، ورتب معها تفاصيل نشرها بعد وفاته، فلم تصدر إلّا قبل فترة بمناسبة مرور مئة عام على ميلاده، في مجلدين ضخمين فائقيْ الأناقة يثقل حملهما. وهي رسائل تشي بالموهبة الشعرية والحسّ الأدبي الراقي للرئيس العاشق الذي شاطر حبيبته، على مدى ثلاثة عقود، قراءاته، وتفاصيل أيّامه، وقرارته، دون أن يتوقف لحظة عن حبّها.

1250 رسالة كانت تحتفظ بها معشوقة الرئيس في صناديق أحذية، مرتّبة بعناية كبيرة. على مدى 50 عامًا التزمت آن بانجو الصمت، واعتبرت مازارين، البنت التي رُزقت بها من ميتران، هديّته الحقيقيّة لها. 50 عامًا لم يعرف الفرنسيّون عنها شيئًا.. لكنّها اليوم، بعدما بلغت الثالثة والسبعين من عمرها، خافت على ما ستؤول إليه الرسائل من بعدها، ووجدت الوقت مناسبًا لنشرها بعد مرور 20 سنة على رحيل ميتران، و5 سنوات على وفاة زوجته، التي ما كانت تريد أن تجرحها.

في كتابه «رسائل إلى آن» يكتب ميتران «يا حُبّي، يا آني، أكتب إليكِ هذه السطور قبل أن أنام. ما زلت أحتفظ في أذني بكلماتكِ، وخصوصًا كلمة: الوحدة. أنتِ إذًا وحيدة. كان لديّ شعور قويّ بأنّني أمنحكِ حضورًا، هو حضور حبّي المستمرّ، الحيّ، الشغوف إلى درجة تجعلني مضطربًا على نحو فظيع، أكاد أسقط من التعب. لن أقول لكِ هذا المساء سوى العبارات القديمة: أحبّكِ، أنا لك، أنا حزين، شقيّ

بسببك، أقبّلك (...) أحلم بخطواتنا المتناسقة، وقلبي الخافق هو نفسه الذي كان يتوغّل منذ سنتيْن في يأس الانتظار يومًا بيوْم. أحبّك..».

أمّا آخر رسالة بعثها لها قبل وفاته فكانت «سعادتي هي في التفكير فيكِ وفي حبّك. لقد كنت فرصة عمري».

هناك أيضًا الكاتب الفرنسي الشهير فيليب سوليرز الذي انتظر ستين عامًا قبل أن يكشف أخيرًا عن علاقة دامت أكثر من نصف قرن جمعته بالروائية البلجيكية دومينيك رولان التي كانت يوم التقاها تكبره سنًّا ومجدًا. فقد كان في العشرين وهي في الخامسة والأربعين من العمر. وكان من حسن حظ الأدب أنّ الجغرافيا باعدت بين العاشقين، وأنّ الطفرة التكنولوجيّة لم تكن قد حدثت بعد، لذا ما كان أمامهما إلّا الكتابة وسيلةً للتواصل.

احتفظ سوليرز برسائل حبيبته في خزنة، عازمًا أن يوصي بنشرها بعد موته. لكنّ رحيل دومينيك رولان، واقتناء الأكاديميّة الملكية في بلجيكا لرسائلها، وعرضها في متحف مع مخطوطاتها، جعلته يراجع قراره، ويبادر بنشر الجزء الأول من أربعة مجلدات تغطّي ما كتبه لها وأيضًا ما تلقّى منها من رسائل بشكل شبه يوميّ.

في النهاية، لعلّنا لا نكتب رسائل الحبّ سوى لإدهاش أنفسنا، أو لإدهاش الحبّ، الذي ما زال غير قادر على فهم السرّ الذي يجعل العشّاق منذ الأزل منهمكين في كتابة آلاف الرسائل التي يمكن في النهاية اختصارها بكلمة واحدة!

5

اكتب رسائل.. واحتفظ بها لنفسك!

تقول القصّة إنّه كان هناك عاشق شابّ ظلّ يتردّد على تمثال القدّيس فالنتاين شفيع العشاق، ويشكو له عذابه، بعد أن غادرت حبيبته مع أهلها إلى بلد بعيد، طالبًا منه أن يعيدها إليه، لأنّه فقير ولا يملك إمكانية السفر إليها، إلى أن ضاق التمثال ذرعًا بشكوى العاشق وحزنه ونواحه، فنطق يومًا وقال له ما معناه «روح اكتب لها رسالة.. وحلّ عني»!.

من يومها عثر العشّاق على وسيلة تقصّر المسافة بينهم، وبدل أن يتوجّهوا بالشكوى لشفيع المحبّين، و«يطوشوا راسه» بقصصهم وخلافاتهم التي لا تنتهي، أصبحوا يمضون وقتهم في كتابة رسائل الحبّ التي تصنع بدءًا سعادتهم ولاحقًا تعاستهم.

هكذا غدت المراسلة جزءًا من مُتع الحبّ.. ومصائبه!

لو كان لتمثال القدّيس فالنتاين أن ينطق مجدّدًا، لأعاد النظر في وصفته، ولأوصى العشّاق هذه المرّة، بما نصحهم به الشاعر الألماني غونتر غراس:

«لا تكتبْ رسالة

ستؤول الرسالة إلى الأرشيف

ومن يكتب رسالة
يُوقّع على بقاياه».

وصيّة من وصايا الشاعر الكثيرة، في قصيدته الشهيرة «لا تلتفت إلى الوراء»، تحضرني كلماتها كلّما وقعت على ذلك الكيس البلاستيكي الأصفر الصغير الملفوف عدّة مرّات بالشريط اللاصق، والذي بداخله ظرف بنّي كبير يضمّ رسائل تركتها لي كاميليا أمانة قبل أن تغادر مع زوجها لا أدري إلى أين.

في البدء حضرَت إلى البيت لتوّدعني، ثمّ سلّمتني ظرفًا أخرجَته من حقيبتها، وطلبت منّي أن أحتفظ به في مكان آمن، أخذتُه منها وكتبت عليه اسمها بقلم سميك من أقلام التلوين التي أكتب بها عادة.

صاحت وهي تأخذ منّي الظرف:

– مجنونة.. كيف تكتبين اسمي على الظرف، وكأنّك تغرين من يراه بفتحه.. ماذا لو عثر عليه أحدهم!

قلت:

– فعلت ذلك لأتذكّر أنّه لك فلا أفتحه خطًا.. ماذا أكتب عليه إذن!؟

قالت بعد شيء من التفكير:

– اكتبي اسم أحد آخر..

– وما الذي في هذا الظرف لأعرف كيف أتصرّف؟

ردّت بشيء من الإحراج:

– إنّها رسائله...

كانت تعني ذلك الرجل الذي أحبّته وبكته ولعنته وانتظرته، وعادت له ثمّ اختفت سنتين، ثمّ عادت لتدعوني لزفافها... إلى سواه!

لم أحضر عرسها. كنت على سفر. رأيت صور زوجها وحفل زفافها على الفايسبوك. كانت قد استنزفت طاقتي وأعصابي بقصصها وخلافاتها معه، فانتهى بي الأمر أن كتبت من أجلها «نسيان. كم».

قلت لها:

– يا عزيزتي.. ما دامت قصتك معه قد انتهت تخلّصي من رسائله.. ولا تتركي شيئًا يعيدك إلى الماضي.

ردّت:

– لا تطلبي منّي أن أمزّق هذه الرسائل.. لن أستطيع ذلك.

– وما الحلّ إذن؟

– دعيها عندك أرجوك.. سأسعد بقراءتها يومًا ما.

– وربما ستشقين..

ردّت بمكر:

– ألست القائلة «أثرى النساء ليست التي تنام متوسّدة ممتلكاتها، بل من تتوسّد ذكرياتها»؟

– خذيها إذن وتوسّديها!

ردّت راجية:

– بليز.. هذه آخر خدمة أطلبها منك، أخشى إن احتفظت بها أن يعثر عليها زوجي.. خاصّة أنّنا لا ندري بعد أين سنستقرّ، وقد لتنقل من بلد إلى آخر. لن أطمئنّ لوجودها في حوزتي.

أجبتها بحزم:

– لا أريدك أن تبدئي حياتك الزوجية، وأشباح الماضي تقاسمك البيت. تخلّصي منها، أو أحرقيها إن شئت كما أحرق طارق بن زياد مراكبه وهو يحطّ في شواطئ الأندلس، كي لا يترك لجنده أيّ احتمال للتفكير بالعودة. وجودها سيغريك بالرجوع إلى الماضي. وهذا لم يعد من حقك.

– يحزنني تمزيقها، ظننتك ستتفهّمين جريمة أن تمزقي اليوم رسائل كُتبت باليد من أجلك وحدك.

استسلمت لرجائها، فهي، على جنونها، أقرب صديقة إلى قلبي. ثمّ إن منطقها يلامس شاعريّةً ما أتفهّمها.

طلبت كاميليا منّي كيسًا صغيرًا من البلاستيك، وضعت فيه الظرف ولفّته بشريط بنيّ لاصق أكثر من مرّة، وناولتني إيّاه قائلة:

– هكذا ستتعرفين إليه!

من يومها والكيس في أعلى رفّ في خزانتي، مخبّأ تحت ثياب قلّما أحتاج إليها، ويلزمني سلّم لبلوغه..

أيّ جنون أن يقضي المرء حياته كسنجاب، بحثًا عن مخبأ لرسائل الحبّ التي ستعيش بعده؟ فمهما كان ذكاؤه، والحيلة التي يتفتّق عنها خياله، ستنتهي رسائله في يد القدر، ولو بعد قرنين من الزمن؛ كرسالة الحبّ التي عُثر عليها أخيرًا داخل ذراع كرسيّ في متجر لتنجيد الأثاث في إحدى المدن البريطانية، والتي يعود عمرها إلى 200 سنة، إنّه المخبأ العجيب الذي عثرت عليه صبيّة مذعورة تخاف أمّها وتعاهد حبيبها في رسالتها على الوفاء!

رويت القصّة لكاميليا وقلت لها مازحة:

– سأحتفظ برسائلك ما دمت حية، لكنّي لا أضمن قدرها من بعدي. أنصحك بأن تبحثي لها عن مخبأ آخر منذ الآن، فلست سنجابًا لأخبّئها لك في فجوة شجرة في غاب سحري لا يقربه بشر.

بدت غارقة في التفكير. ثمّ صاحت مبتهجة:

– وجدتها!

– مبروك.. أين؟

– لا تقولي «لا»

– أوكي.. أين؟

– في أحد كتبك!

– لم أفهم!

– انشريها في إحدى رواياتك، اجعلي منها نصًّا داخل قصصك، هكذا تكون فوق الشبهات، ويمكنني أن أحتفظ بها مطبوعة في كتاب.

– أيّ فكرة مجنونة هذه! وتعتقدين أنّني سأوافق؟!

– ظننت الأمر سيسعدك. أما قلت يومًا إنّ الرواية حقيبة لتهريب كلّ الأفكار الخطيرة؟

– كنت أتحدّث عن الأفكار السياسيّة. أنت تطلبين منّي أن أتحوّل إلى مهرّبة، وكما يقوم النصّابون بتبييض الأموال أقوم بتبييض المشاعر وأشرّعها في كتاب، أكلّ هذا لإنقاذ رسائل حبيبك؟ وهل هي رسائل سارتر لسيمون دو بوفوار مثلًا حتى أمنحها الخلود؟! ثمّ أنا لا أتقبّل فكرة قراءة رسائل كُتبت لغيري. هذا أمر يزعجني جدًّا..

ردّت بنبرة يائسة:

– ليس فيها أشياء حميمة قد يحرجك الاطّلاع عليها، إنّها رسائل كتبها لي بعد فراقنا وهي أقرب للأدب. تمنّيتها أن تعيش.

أجبتها:

– سأطّلع عليها.. وأرى.

كنت أريد أن أنهي الموضوع، لكنّ قراري كان قد اتُخذ وانتهى الأمر: لن أفتح هذا الظرف.

الذي قال «اكتب دومًا رسائل الغضب إلى أعدائك، لكن لا ترسلها إليهم»، كان عليه أن يضيف «واكتب رسائل الحبّ أيضًا واحتفظ بها لنفسك!».

لعلّه ما كان يقوم به أندريه جيد، الذي كان عنوانه الباريسي معروفًا جدًّا لدى سُعاة البريد. فقد كان الروائي الحاصل على نوبل يرسل إلى نفسه يوميًا برقيّة وحده يدري محتواها. ربّما كان يقول فيها لنفسه ما كان سيندم لو باح به لسواه.

الخلاصة: علينا ألّا نمنع أنفسنا من كتابة رسالة كلّما شعرنا بالحاجة لأن نقول شيئًا لأحد، شرط أن نحتفظ بها لأنفسنا... وأن نقاوم الرغبة في إرسالها لأنّنا على الأرجح سنندم لاحقًا على ما كتبناه!

من هنا جاءتني فكرة أن أكتب رسائل إلى كاميليا، أحتفظ بها لنفسي، على أمل أن أغيّر رأيي قبل أن أرسلها إليها.. أو تكون هي قد غيّرت عنوانها!

الجزء الثالث

رسائل لن تقرأها كاميليا

رسالة رقم 1

ما الروايات سوى رسائل وبطاقات،
نكتبها خارج المناسبات المعلنة،
لننقل أخبارنا لمن يهمّهم أمرنا.

كلّ عام وأنت حبيبتي... وفأرتي الصغيرة البيضاء التي أختبر فيها كلّ نظريّاتي النسائيّة.

لست أدري ما أريد قوله، فلم يحدث أن كتبت لك. لذا، برغم العمر الطويل لصداقتنا، وأسرارنا الصغيرة، أصدق الأشياء لم أقلها لك.

ما يؤلمنا حقًا نكتبه ولا نقوله، الكتابة بوح صامت، وجع لا صوت له. لكنّنا ننفضح دومًا به، ننسى أنّ الحبر لا ينسى، لكنّه برغم وشايته لا يفتري على أحد. هل يمكنني ائتمانك على ما سأكتبه لك؟

أحتاج لأن أكتب كتابًا أتوجّه فيه لأحد، كما إيزابيل أللندي إلى جدّها في «بيت الأشباح»، وخالد بن طوبال متوجّهًا إلى حياة في «ذاكرة الجسد». لكنّ العالم تغيّر، ما من «امرأة على شاكلة وطن» لروي لها قصصنا ونكتب إليها بشجن ونحن ننتحب، بل ولا حتى من

وطن، ولا من جدٍّ ليعي ما بنا إن كتبنا إليه همومنا بلغة هذا الزمن. تقبّلي بوح أسراري إذن، وكوني صديقة ذاكرتي، بقدر ما كنت يومًا صديقة نسيانك.

قبل أيّام، لمحت حزمة رسائلك تلك، مخبّأة بعناية كما طلبت منّي، فأيقظ منظرها شهيّتي لكتابة الرسائل، ولم أجد لقلبي من صندوق بريد سواك.

لعلك سعيدة اليوم حدّ نسياني، وهذا خبر يطمئنني. السعادة حالة أنانيّة طاغية، تستحوذ علينا، تشغلنا بمباهجها عن الآخرين، إلى حين تخوننا، فنستنجد حينها بأصدقاء خُنّاهم لفرط سعادتنا وتخلّينا عنهم. لا أظنّك بحاجة إليّ هذه الأيّام، أمّا أنا فأحتاج إلى غيابك، ومسافة الصمت بيننا، لأقول لك ما ليس مهمًّا أن تأخذي علمًا به.

البارحة صادفت قولًا لهمنغواي يقول «إنّ الكتابة هي أصعب مهنة بعد مصارعة التماسيح». أصابني القول بالذعر، تذكّرتك لأنّك تملكين فراسة لا أملكها للتعرّف إلى معدن البشر، وقدرة تنقصني على مصارعة الوحوش. كان عليك أن تكوني كاتبة إذن، أو كان عليّ أن أغيّر مهنتي!

ما فتئت أعبر غاب الحياة بحسن ظنّ فراشة، وهذه سذاجة. قال لي أحدهم: «أنت ذكيّة في معرفة النفس البشرية في رواية، وغبيّة في معرفة حقيقة الناس في الحياة». ذلك أنّ الذين أختلقهم في رواية أعرفهم، أمّا الذين أصادفهم في الحياة فهم من يعرفونني. للحبر وشاية تغرّر أسماك القرش بدم العُزّل والساذجين من البشر.

كيف لي أن أتعرّف إليهم؟ العالم نفسه غدا حوضًا شاسعًا لا ندري ما الذي تخفيه أعماقه من عجائب زمن لا رحمة فيه ولا خُلق، يتقاسمه المرء مع وحوش في مظهرٍ بشريّ قد ينتهي بين فكّي أحدهم، ربّما كان أقرب إنسان إليه.

نحن نعرف من نصادق، لكنّنا نجهل من نصادف، ومن سيتعلّق به قلبنا. قلت لك مرّة لأواسيك بصداقتي عن خساراتك العاطفية: «إن الفوز بصديق أهمّ من الفوز بحبيب، فالعشق نهايته الامتلاك أو الاستلاب. بمحاذاة كلّ إحساس جميل يوقظ أسوأ ما فينا، نتعايش مع تناقضاتنا وأضدادنا، ومخاوفنا. العشق أسهم ناريّة محرقة، سلسلة انفجارات لضيء قلوبنا لفترة، وتنطفئ لتتركنا للعتمة. أمّا الصداقة فهي فانوس لا ينضب زيته، يرافقنا، يضيء دربنا، ويدفئ قلبنا مدى الحياة. الدليل، صمود صداقتنا على مدى سنوات، وانهيار كلّ حبّ راهنتِ عليه».

كان ذلك قبل أن يفاجئني خبر زواجك. لعلّه أجمل قراراتك. كان سريعًا بقدر خوفك من أن يتسرّب الزمن من بين يديك، ويفلت منك هذا الرجل. لم أسألك وأنت منهمكة في إعداد تفاصيل زفافك «هل تحبّينه؟».

قلت لي سابقًا بعد أن تعلّمتِ من خيباتك «علينا أن نتزوّج من يحبّنا لا من نحبّ، لندعه يختارنا هو بقلبه.. ونختاره بعقلنا». ها قد استعدت عقلك إذن، بعد مضيّ سنتين من الهجران والدموع والأسى التي أفقدتك صوابك، بسبب رجل تزوّجت غيره في النهاية. لماذا أحببته كلّ ذلك الحبّ إذًا!

يا للوقت المهدور من أجل لا شيء!

ربّما بالمقياس نفسه، قد تكونين اخترت بعقلك صديقة جديدة لغربتك. أمّا أنا، فما زال قلبي يتحكّم في اختياراتي، لذا لم أصادق أحدًا بعدك. الناس لا يعنيهم اليوم من صداقتك سوى الدليل على أنّهم عرفوك يومًا، لذا هم لا يتوقّفون عن جمع أدلّتهم: صورةٌ التقطوها في بيتك، رسالةٌ وصلتهم من هاتفك، سرٌّ سرقوه منك في لحظة ألم.

كلّ «صديق» غدا همّه التوثيق، فنحن في زمن لا يصادق فيه الناس إلّا هواتفهم، ولا يصدّقون إلاّ من يحمل دليله حاضرًا في جيبه،

ويشهره في كلّ مجلس. كصغار الصحافيّين الذين يطلبون بمودّة التقاط صورة معك للذكرى، ثمّ وقد فازوا بدليل لقائك ينسبون إليك حوارًا لم تدلي به، لتقضي من بعدها أشهرًا في تكذيب ما ورد على لسانك. وحدك أحببتني دون أدلة، ولن يصدّقك الناس يومًا، إن قلت إنّك كنت الأقرب والأغلى. أتوقع يومًا يزايد عليك فيه الغرباء معرفةً بي، وستتعبين في الدفاع عنّي، لأنّ الأفاعي ستكون قد غادرت جحورها، وسقطت في غيابي أقنعتها.

سوق الصداقة «مضروب» هذه الأيّام يا عزيزتي. نزلت الصداقة الصينيّة إلى الأسواق، بتقليد متقن في المظهر. إنّها علاقات لا يمكن المراهنة عليها، تنتهي صلاحيتها بعد أول استعمال. لا علاقة مكفولة ولا مضمونة اليوم، لذا على الذي لديه صديق قديم، أو حبيب «دقة قديمة» من زمن النخوة والشهامة، أن يحافظ عليه، كتحفة أثريّة نادرة، خشية أن يخسره، ففي زمن الأزمات والحروب تسوء أخلاق الشعوب، ويتشوّه الناس، فلا الأصدقاء أصدقاء، ولا الأحبّة أحبّة.

رسالة رقم 2

الأدب لا يحبّ السعادة، فالسعداء لا وقت لهم للكتابة.

منذ أعوام وأنا أفكّر في كتاب يكون الجزء الثاني لـ«نسيان. كم»، ذاك الذي كتبته ليكون لك سندًا أثناء معركتك مع الهجران، لكنّ معركتي اليوم أكبر، إنّها مع عدو سيهزمنا جميعًا في نهاية المطاف، لأنّنا مذ جئنا الحياة، ونحن نعيش على تماس دائم مع شكل من أشكاله.

إنّه... الفراق.

لعلّ الموضوع لا يعنيك اليوم، لذا لن أهدي لك ما سأكتب من رسائل. لقد تعافيتِ، ليس بفضل كتابي، بل لأنّك فتحت أخيرًا قلبك وعينيك للحياة. ما كان لك آنذاك، خلف غشاوة الدموع، أن تري حبًّا آخر يلوح في الأفق، ولا أن تصدّقي قولي بأنّ الدموع تحجب عنّا رؤية الأشياء الجميلة من حولنا.

هذا الكتاب ليس من أجلك إذن، لكنّي أحتاج لأن أستعين بما بقي من شظايا قصّتك لكتابة نصّ شهيّ، والقيام بإعادة إعمار عاطفي لقلوب ألحق بها الحبّ كلّ أنواع الدمار. بأسمال بالية لحبّ قديم،

يمكنك أن تخيطي رواية (haute couture). فالألم أفضل قماش يمكن أن تفصّلي منه ثوبًا أدبيًّا خالدًا.

في لحظةٍ ما، راودتني فكرة الاستعانة برسائلك تلك لكتابة رواية، كما طلبت. لكنّ القصص ليست ما ينقصني للكتابة، ولا النصوص الجميلة. ينقصني الألم. أعني شيئًا يستحق أن أتألّم من أجله. فكلّ ما تألّمت من أجله في الماضي، أصبح مصدر ندمي وعجبي، بما في ذلك تلك الأوطان التي مرضت يوم احتُلّت، وتلك العواصم التي بكيتها يوم سقطت، لتنجب لنا بعد ذلك قطّاع طرق التاريخ، وأناسًا لا يشبهون في شيء من كنت جاهزة للموت من أجلهم.

الحقيقة، ليس في حياتي فقدان عاطفيّ يلهمني كتابًا موجعًا كما تمنّيت. فكيف أكتب ولا حافز غير الشغف يمكنه إجلاسي أمام طاولة للكتابة؟ أكتب إليك بحثًا عن حطب لشغفي. تغيّر العالم إلى حدّ أفقدني ثقتي بكلّ ما كنت شغوفة به. اهتزّت ثقتي بقناعاتي، وبمن آمنت بهم كعمياء. كلّ شيء، وكلّ أحد، يمكنه اليوم أن ينقلب إلى ضدّه من دون حياء. لذا ناب عن الشغف القرف. إنّه زمنه.

بدأتُ بعدك روايات لم أكملها، كقصص حبّ معلقة. قصص ما كانت ناضجة لتُكتب، وأخرى لا تستحق أن تعاش. الحروب لم تسرق منّا مباهج الحبّ فحسب، بل أيضًا ذلك الحداد الشاعري الذي كنّا نعيشه عند الفراق، بقصائده الجميلة، وأغانيه الحزينة، وأوجاعه الحميمة.

مذ لم يعد الفراق حالة رومانسيّة، بل حدثًا جماعيًّا، ونكبة مروّعة لشعوب نازحة هائمة على وجهها بين القارات، ما عدت أذكر من فارقت، ولا كيف حدث ذلك، فالكلّ مفارق. حتى في الروايات أصبحت أجد سهولة في مفارقة أبطالي، لا أشعر بالذنب إن تخلّيت

عندهم في مستهلّ الطريق، فثمّة آلاف البشر رمت بهم الأقدار إلى طرق لا عودة منها.

لا أتشبّث بهم، أو أمنحهم فرصة حياة في جزء ثانٍ لرواية، ولا أبكيهم إن ماتوا كما كنت أفعل، فقد أصبحت هناك زحمة موت، تجعل من البكاء على كائن حبري إهانة لمن يموتون حقًا كلّ يوم.

حتى في الروايات أصبح الأبطال يربكون الروائي، إنّهم يموتون في خياله قبل أن يولدوا، يفارقونه باكرًا قبل أن يفوزوا بحياة افتراضية في كتاب.

كيف يكتب من لا يقبل في رواياته إلّا بأبطال شرفاء يصمدون حتى الصفحة الأخيرة. من أين لي بخالد بن طوبال آخر في زمن «النعم»؟ من أين لي بـ1200 صفحة من العنفوان لبطل لم يقل على مدى ثلاث روايات إلّا «لا» كلّما شعر بأنّهم يساومونه على مبادئه؟

لا كاتب شريفًا يمكنه اليوم إدارة حياة أبطاله في عالم من اللذالة لا يدري هو نفسه كيف يعيش فيه. لكنّه لن يتعب كثيرًا في تدبّر ميتة لبطله مهما كانت القصّة وموضوع الرواية، «كتالوغ» الموت العربي ازدادت خياراته، وتنوّعت أساليب الرحيل فيه، إلى حدّ يتجاوز خيال أيّ روائي.

لن تتصوّري كم بكيت موت خالد في «عابر سرير». رحت أنتحب حين تلقيت خبر موته من الممرّضة في المستشفى، كما لو أنّني لست من اختار له تلك الميتة، وواصلت البكاء طوال كتابتي الفصل الأخير، إلى حين وصول جثمانه إلى قسنطينة، حيث لم يجدوا له في المدينة التي عشقها وخلّدها قبرًا يُدفن فيه!

لا يعرف غدر الأوطان إلّا من فارقها ولم تفارقه، وحين عاد لها جثمانًا تجاهلته.

مساعدتي في أشغال البيت، الفليبينيّة االجنسيّة، لم تفهم آنـذاك ما حلّ بي، ولا عرفت كيف تواسيني. سألتني المسكينة بكلمات نصفها إنكليزي والآخر عربي «مدام حبيبتي في بروبلم ويذ ميستر؟» فكدت أجيبها «نو ويـذ آذر ميستر». فقد كان لي حقًا مشكل لكن مع «ميستر» آخر غير زوجي!

هل لأنّ الله أنعم عليّ بأقارب لم يؤذني أحدهم ولا أبكاني، تكفّل أبطالي بذلك؟ عدلت عن تقديم أيّ تبرير لبكائي. حماقة اقترفتها سابقًا في باريس مع عاملة منزل سابقة أثناء كتابة «ذاكرة الجسد» عندما كانت تفاجئني وأنا أبكي تارةً موت زياد على أيدي الإسرائيليّين، وأخرى موت حسّان على أيدي الجزائريين، فأخجل أن تسيء تفسير بكائي، وأروي لها قصّتي وما حلّ بأبطالي. لكنّ خالد أمرٌ آخر. هو أكبر من أن أحكي عنه لأحد، إنّه بطل (ي) ورجل (ي)، و(محرم) ي، وحزني عليه لا يخصّ أحدًا سواي.

رسالة رقم 3

الثراء هو القدرة على امتلاك ما لا يُشترى. لذا بعض الأثرياء أفقر ممّا يبدون، وبعض الفقراء أثرى ممّا يظنّون.

لي خبر جميل لك. لقد أحضرت قطّة سياميّة بيضاء بفرو جميل وسمّيتها «كامي»، تصغيرًا لاسمك كاميليا. أحببت في اسمها ياء المُلكية، أريدها قطّة(ي)، ورفيقة خلوة(ي).

منذ فترة، بدأت أراجع علاقتي بما أملك، وبما تمنّيت امتلاكه. مذ اكتشفت أنّه يكفي أن نضيف (الياء) لأيّ شيء حولنا، كي نقنع حواسّنا بأنّه لنا. الملكية وجهة نظر، وطريقة في التفكير ليس أكثر. لم لا نكتفي بوهم امتلاك الأشياء إذن، ما دمنا في الحقيقة لن نمتلكها حقًا؟

حتى قطّة (ي) الوديعة يصعب في الواقع الاستحواذ عليها، ولا يمكن للياء التي تنسبها لي، أن تغيّر شيئًا في قراراتها. أدري أنّها لن تكون لي تمامًا، فولاء القطّ للمكان.. لا لسيّده. يعجبني فيها انتماؤها لحزب الرافضين للانصياع للأوامر. على صغرها، لها كرامتها، فعدا كونها أكثر نظافة من بشرٍ لا يحرجهم ما يتركونه خلفهم للناس أو

للتاريخ من قذارة، فهي الحيوان الوحيد الذي لن نراه في السيرك، لأنّه يملك شخصية تفوق أسلافه النمور والأسود عنادًا واعتدادًا بالنفس.

أتساءل، لماذا نصرّ على امتلاك كلّ كائن يدخل دائرتنا، وكلّ ما يقع عليه نظرنا، حتى وإن كان ثمن ذلك قضاء حياتنا في الحفاظ عليه، وموتنا دفاعًا عنه، كأولئك الذين لم يغادروا بيوتهم أثناء الحروب، خوفًا على البيت والسجّاد والأثاث والتحف، فانتهوا جثثًا تحت أنقاضها، كي لا يتركوها للّصوص، بينما نجا من لا يملك شيئًا، إذ كان أوّل المغادرين.

لتنجو في هذه الحياة عليك أن تكون خفيفًا، ألّا تتعلق بشيء ولا بأحد، ما دام ما تناله ينال منك، وما تملكه تشقى به. فبعض الشقاء سببه ياء الجشع حين تخلق لدينا هوس جمع المزيد منها. في جميع الحالات، ما لا تفارقه سيفارقك، لا أحد يمتلك أحدًا أو شيئًا حقًا، أو يضمن الاستحواذ الأبدي عليه.

في كلّ «ياء» مشروع شقاء، واسألي من قضى عمره ينشد «موطني.. موطني» فأودت به الياء، لأنّه لم يتوقع أن تكون ياء الوطن قاتلة، وغادرة ولا يُعوّل عليها، بل تلك الياء هي الوحيدة التي تعني عكس معناها، فأثناء اعتقادك أنّها تمنحك صكّ ملكيّة وطن، تكونين في الواقع أنت مملوكة له، ومطالبة بالموت فداءً له.

الياء المضافة تغدو سحريّة، في حالة واحدة، عندما يتوجّه بها إليك حبيب، يعني تمامًا وزن حرف الياء حين يضاف لصفة ما، فتغدو الكلمات صكًّا بملكيّة أبديّة: حبيبة (ي).. سيدة (ي).. مولاة (ي). وحده الحبّ بإمكانه بحرف واحد أن يهدي لك كلّ الصفات والأسماء، وأن يحوّلك إلى قبيلة من النساء.

لكن، في ذلك الحرف الصغير يكمن فخ الحبّ، فعند الفراق، أولى خساراتك وأكبرها ستكون تجريدك من ذلك الحرف، وتسليمك

للهتم العاطفي، ولفقر وجداني. ما من «ياء» ممّا تملكين من أشياء، يمكنها حينها أن تعوّض خسارتك!

***

أثرى النساء أنا
لست ثريّة بما أملك
ثريّة لأنك تملكني.

رسالة رقم 4

الوردة تنادي على قاطفها

يا اللّه.. كم أتمنّى لو استطعت يومًا، ولو قبل موتي بيوم، أن أوثّق للتاريخ كلّ الكمائن التي نُصِبَت لي ووقعتُ فيها، أحيانًا بملء إرادتي، وبرغبة تراودني دومًا في التغابي. التغابي ترف ليس في متناول الجميع... يلزمه استعداد مسبّق للخسارة، مقابل ابتسامة تهكُّم لا يراها سواك، أثناء اعتقاد غيرك بأنّه من يضحك عليك. التغاضي ضرب من الأناقة الروحيّة، في مواجهة صفاقةٍ تتذاكى.

لا تحزنني فخاخ المال. أختي صوفيا كانت تردّد عند الخسارة «أحبّ أن أدفع لأعرف حقيقة مَن أُعاشر». البعض جاهز ليخسرك من أجل القليل. في الواقع، قيمته هي بالضبط ما أخذ منك تحايلًا، فذلك هو ثمنه.

لذا، حتى الخسارة الماديّة، هي في حقيقتها فاجعة أخلاقيّة.

تحزنني فخاخ المحبّة. كم عرفت منها ولم أتعلّم. نحنُ دائمًا ضعفاء أمام المحبّة في سخائها وبراءتها الأُولى. الفخاخ تأتي لاحقًا.

احــذري المحبّة العجلى.. إنّها غالبًا ما تُغادر باكرًا. لا وقت لها لانتظار الموسم المقبل. هي تفضّل القطف السريع.

كنت سأنصحك بأن تحجبي ورودك عن عابري السبيل، لولا أنّ الشذى سيشي بك، ويدلّ عليك مَن عن بعد يشتمّ السذّج والطيّبين!

رسالة رقم 5

لا تعايد إلّا من يكون صوتك عيده

العالم بخير ما دمتِ فيه. يكفي أحيانًا صديق واحد ليصنع عيدك.

تدرين، قبل خمس وعشرين سنة، اقتنعت بضرورة مغادرة باريس حين ذات عيد فتحت دفتر هاتفي، ولم أجد بعد 17 سنة من الإقامة فيها رقمًا واحدًا يمكن معايدة صاحبه. لم يكن في دفتري سوى أرقام المدارس، وأطبّاء الأطفال، والضمان الاجتماعي، وشركات الطيران، وأرقام أنصاف الأصدقاء، الذين سرقت الغربة نصف مساهم. لذا اعتدت أن أبدأ صباح العيد بمهاتفة خديجة، سيّدة متزوجة بفرنسي، كانت تساعدني في الماضي في الأشغال المنزليّة. كان هاتفي لسنوات يصنع عيدها، وكان احتفاؤها بي عيديّتي.

مرّ ربع قرن على مغادرتي باريس. مذ ذلك الحين تغيّر العالم، ما عدت أفتح دفتر هاتفي بحثًا عمّن أعايد، بل أصبحت أفتح مباشرة هاتفي فأقع على 12 مليون متابع، ينتظرون منّي معايدة، تكون مختلفة ومتميّزة، عليّ أن أنمّقها في كلّ مناسبة لكوني كاتبة، ولأنّ

مئات الآلاف سيطّلعون عليها وقد يتبادلونها، ولأنّ لغوغل حفظه الله ذاكرة ستحفظها. فهل الكلمات المنتقاة بعناية والمتوجّهة لآلاف البشر، هي أصدق ممّا كنت أقوله لخديجة على انفراد ودون إعداد؟ فتردّ بتأثر وزهو «قلت لزوجي عندما دقّ الهاتف هذه أكيد أحلام، إنّها أول من يهاتفني».

عندما تبادر بمعايدة من يراك كبيرًا لأنّه يحتاج إليك، فأنت تهديه الكرامة، وعندما تعايد «كبار القوم» غالبًا ما تخسر كرامتك لاعتقادهم بأنّك تحتاج إليهم.

كم من محبّ بين هذه الملايين الافتراضيّة تعني له حقًا معايدتي، مقارنة بتلك السيّدة التي حدث أن بكت صباح العيد لأنّها سمعت صوتي، فقد كان يطمئنها برغم انقطاعنا وعملها عند غيري، بأنّ ثمّة في هذا العالم من يحبّها لنفسها.

وقعت على حقيقة مخيفة: منسوب الصدق في حياتنا يتناقص بتناقص العفويّة العاطفيّة. لقد ابتُلينا بالتشاوف وإشهار العواطف، وبفائض المجاملات لجمع «اللايكات». لذا، نحن نعيش زمنًا كاذبًا ومنافقًا، لا بركة في عواطفه، ولا في وقته، ولا في ماله.

زمن لا أمل في الإمساك به، قصر وقته حتى لكأنّه لا يعبر بل يتبخّر، قصص حبّه ما عادت تعمّر طويلًا، وماله ما عاد على كثرته مصدر سعادة، ما عاد حتى كافيًا ليهدي لأحلامنا حذاءً نقطع به إلى الرصيف الآخر.

كان الزمن يمضي في انسياب جميل، قبل أن تكون له أرقام. يوم كان الناس ينسبون الأعوام للأحداث، فهذا وُلد سنة دخول فرنسا إلى الجزائر، وذاك تزوّج سنة اعتلاء الملك العرش، وآخر ذهب إلى الحجّ سنة نهاية الحرب. ورابع هاجر سنة المجاعة أو الجفاف.

أغبط أناسًا من جيلي يعترفون بخجل بأنّهم يجهلون التاريخ الحقيقي لميلادهم، وينسبونه إلى حدث قيل لهم إنّه صادف مولدهم. هؤلاء ليس لهم من أعمار، ولا أعياد ميلاد، ولا أبراج فلكيّة يسألونها كلّ بداية سنة عن طالعهم، فتزيد من سخريتها بأن تسألهم عن الساعة التي وُلدوا فيها إن أرادوا الدقة في النبوءات.

هل بدأت مأساتنا يوم فقدنا بركة القليل، ووقعنا في قبضة الأرقام؟ أرقام الأعوام، وأرقام الأعمار، وأرقام متابعينا، وأرقام الأرصدة، وأرقام الهواتف، وأرقام الشيفرات لفكّ كلّ ما حولنا من أجهزة، وإذا بمصيرنا تحكمه سلسلة أرقام حوّلتنا إلى رقم في سلسلة بشريّة يرعبها فقدان رقم ما.

أن يخونك اليوم رقم هو فاجعة تعادل خيانة صديق، يتركك أمام الصرّاف الآلي دون نقود لأنّك نسيت رقمًا، أو يسخر من عجزك عن فتح حقيبة تحتاج إلى ما فيها ولا تدري كيف تأخذ منها حاجاتك في فندق وصلت إليه للتوّ، أو يتركك أمام باب بناية نسيت الشيفرة الكاملة لفتحه، أو أن يقهقه حاسوبك لأنّ لا أحد من ملايين متابعيك يشفع لك أو يأتي لنجدتك، إن أنت أخطأت في رقم واحد من شيفرة حساباتك الكثيرة على شبكات التواصل.

حدث لي كلّ هذا، فما عرفت رقمًا إلّا خانني!

رسالة رقم 6

لا حبّ تخونه المسافة... فبالمسافة يُختبر الحبّ

منذ أيّام لم أجد الوقت للكتابة إليك.

هل مَن يخبرني كيف مضى الوقت؟ ولماذا لم نعد نلمح منه إلّا غبار قاطرته المسرعة؟ ما عاد بإمكاننا أن نحتسي الوقت تحت شجرة ياسمين، أو نرتشفه ذات سمَر فوق سطح بيت على ضوء القمر. لم يعد الوقت فنجان قهوة أو كوب شاي، العولمة وضعت يدها حتى على الوقت، وحوّلته مشروبًا غازيًا نعبّه وقوفًا على عجل. كيف وفيروز ما زالت على قيد الحياة، تغيّر العالم في عقدين من الزمن إلى هذا الحدّ، حتى كأنّ تلك الحياة الشاعرية التي غنّتها، والشخصيات الجميلة التي أدّتها في مسرحيّاتها، لم توجد يومًا إلّا في خيال الرحباني؟

كلّ الاختراعات التي حقّقها الإنسان كسبًا للوقت جعلت الوقت يمرّ بسرعة أكبر، حدّ فقداننا بوصلة الزمن، ومتعة العيش الهنيّ. كنّا نستدلّ بالأغاني الخالدة، لمعرفة أحلام الربيع وطيش الصيف وأحزان الخريف وخيبات الشتاء، فأصبحنا لا نعرف الفصول ولا نفرّق بينها، منذ أصبح في أعماقنا ركن لا يتوقف فيه المطر.

كيف لنا ذلك، والفواكه موجودة على موائدنا في كلّ المواسم، كالمغامرات العاطفية التي نصادفها، والأشجار تثمر اليوم في كلّ الأوقات كمشاعرنا، تتساقط من شجرة الوقت قبل أوان نضجها. فكلّ شيء ينتهي اليوم بسرعة خارج التسلسل المنطقي، وقبل موسم القطاف بقليل.

كان أجدادنا يجدون الوقت لكلّ شيء، ويعرفون الفصول ويتهيّأون لها حسب المواسم، بإعداد مؤونة الشتاء، وجمع الحطب، وغزل الصوف، وتقطير الزهر، وقطف العنب، وفتل الكسكسي، وبالزرع وبالحصاد، أمّا اليوم فنقضي النهار في حصد اللايكات، وقطف «التعليقات»، وزرع الفتن، نعيش مواسم خارج الزمن.

نحن في زمن الأنترنت، ننام ونصحو على شبكات التواصل، على ما تحمله من أخبار، وأقوال، وفواجع، وشتائم، ولا نرفع رأسنا عن الهاتف لنأخذ علمًا في أيّ فصل نحن، ولا في أيّ سنة.

لا أحد يملك نفسه اليوم، وحده الأنترنت يمتلكنا جميعًا. ربّما كنت على حق، حين قلت لي معاتبة «لقد سرقك العالم الافتراضي منّي»، ولعلّي كنت كاذبة حين أجبتك «بل سرقتني منك المسافة». فما عادت المسافة تصلح عذرًا للانقطاع.. أو القطيعة.

ما كان يمكن لشيء أن يفرّقنا. يوم عدتِ إلى حبيبك ذاك، بتلك السرعة التي أذهلتني، سعدت لك، فما كنت ضدّ عودتك إليه، خاصّة أنّك كنت قد استنزفتِ أعصابي بعد عام قضيته في مواساتك. حتى إنّي كتبت كتابًا كاملًا لتشجيعك على نسيانه واستعادة عافيتك. لكنّني ما توقعت أن أكون أنا أول من تنسين حين يعود، معتقدة أنّك فزت به إلى الأبد. كانت مفاجأتي الأولى ابتعادك عنّي خشية أن أذكّرك بعذاباتك السابقة. ثمّ، لا أدري كيف تطوّرت الأشياء بعد ذلك بينكما وإذا بك تقرّرين الزواج برجل غيره، وكانت هذه مفاجأتي

التالية فقد انقطعت عنّي أخبارك سنة كاملة، ولم أعلم بقرارك إلّا من دعوتك لي لحضور زفافك!

في النهاية هكذا هي الحياة!

لم أعتب عليك. ما لم أغفره، أنّك أورثتني توقيت الحبّ ومضيت، لأنّني كنت يومًا حارسة نسيانك، وأمسى الحبّ يتحرّش بذاكرتي في التوقيت نفسه، فأستيقظ عند التاسعة صباحًا، يحوم قلبي حول تلك الآلة ولا أدري في غيابك من أهاتف. تصوّري أيّ فخّ نصبته لنفسي حين على مدى أشهر كنت أهاتفك صباحًا كلّ يوم في الساعة التي اعتاد أن يهاتفك فيها هو.. كي أواسيك عن غيابه!

ثمّ، ذات صباح، حدث أمر عجيب، دقّ هاتفي عند التاسعة صباحًا، بإلحاح الحبّ المستيقظ على لهفة، أكان توقيته مصادفة؟

أذكر يومها، ما كان الهاتف يدقّ بل يخفق، والأشياء من حولي راحت ترقص، والأوراق على مكتبي كانت تتطاير ابتهاجًا بعودة الحبّ، وخزانة ثيابي تستعجلني أن أفتح القلب مجدّدًا للجنون.

لكنّ يدي أبت أن تردّ. فقد كنت أنوي حال رحيلك أن أباشر كتابة «فصل الفراق» وكان ذلك يستدعي عدم فتح الباب للحبّ، أو الاستسلام لنداء هاتف سيعبث بأقدار قلمي، وبالتسلسل المنطقي لفصول الحبّ.

رسالة رقم 7

الكتابة هي الوهم الكبير بأنّنا لن نُنسى

ربّما كان عليّ أن أجيب، ولو عن فضول، على هاتف الساعة التاسعة. لعلّ في ذلك التوقيت إشارة ما، أو مكافأة عاطفيّة من السماء، على ما منحتُك من صبر على مدى أشهر في تلك الساعة نفسها. لكنّني خفت من التورّط العاطفي، فقد كنت أحتاج إلى أن أكون وحيدة، كما هم العشّاق في مواجهة الفراق.. كي أكتب بوجعهم!

لو كنتِ مكاني، لما قاومتِ كلّ كمائن الحبّ التي تنصبها الحياة لكاتب، بذريعة قصّة تستحق أن تعاش لتُكتب. صعب عليك أن تفهمي أنّ الحالة العشقية في تقلّباتها، ونوبات تطرّفها، هي أكبر خطر على المبدع. إنّها استلاب، احتلال، استحواذ، هدر لأدبه في المهاتفة والمشافهة، فالكلمات التي تخلد لا تُسمع، إنّها لا توشوش إلّا في أذن الأدب.. بين دفَّتَي كتاب.

العشق مضنٍ، ومعضلة المبدع أنّه لا يقبل بأقلّ من العشق حريقًا، وذلك من أجل الأدب لا من أجله. الحبيب نفسه لا يدري أنّه

في كلّ ما يقوله الكاتب، هو يتوجّه إلى الأدب لا إليه. ما الحبيب إلّا ذريعة عاطفيّة لغاية أدبيّة. في الواقع، هو تهديد لسكينته، وعليه أن يحذر الوقوع في تبعيّة عاطفيّة كاذبة، وأن يحمي نفسه بالغياب، أن ينسحب انسحابًا نبيلًا لا جبن فيه، واضعًا مسافة بينه وبين زمن مخادع، غدا الهاتف إحدى أدواته، وغدا الكاتب آخر شاهد فيه على انهيار العالم الجميل الذي كان.

زمن الصداقات الجميلة انقضى. يوم كان الهاتف قصيدة، أو نكتة، أو حسرة أو سؤالًا. كان ذاك زمن الأحبّة النبلاء. أذكر منه مكالمتين.. الأولى للدكتور غازي القصيبي من الطائرة.. والأخرى من نزار قبل الرحيل الأخير.

قبل سبع عشرة سنة، جاءني اتّصال من الدكتور غازي القصيبي رحمه الله، مصحوبًا بضجيج محرّكات. قال لي بروحه المرحة «يا حمقاء الجزائر.. أنا في طريقي إلى الرياض، أريد أن تتذكّري أن أول هاتف جاءك من الطائرة كان منّي!».

كان غازي القصيبي يشغل آنذاك منصب سفير للسعودية في بريطانيا، لكنّه ككلّ الشعراء الدبلوماسيّين، كان يقدّم يوميًّا أوراق اعتماده للشعر. أمّا لقب «حمقاء الجزائر» فقد أطلقه عليّ آنذاك، بعد أن رفعت خمس دعاوى قضائيّة ضدّ الصحف التي نقلت خبرًا مفاده أنّ أحدهم كتب لي «ذاكرة الجسد» وكنت أقول مازحة إنّني كاتبة بكتابين وخمسة محامين! وهو ما ألهم الدكتور غازي نصًّا ساخرًا بعنوان «يا غيورين موتوا من الحسد أنا الذي كتبت ذاكرة الجسد».

كان شاعر الالتفاتات الفريدة، يحبّ أن يهدي ما لم يسبقه إليه أحد. يوقّع هداياه بسخريته، ليحمي بضحكته حياءه.. كان اتّصاله يومها حدثًا تكنولوجيًّا، لفرادته ظننته مزحة، فلم يكن الهاتف

المحمول قد انتشر، ولا أدري بأيّ وسيلة طلبني، فما كنت أتصوّر إمكانية الاتّصال من الطائرة.

ها قد تغيّر الزمن، وأصبحت الهواتف النقالة في متناول الجميع، لكنّ الكبار الجميلين الأنقياء، الذين كان صوتهم أغلى اختراع عاطفي، غادروا قبل زمن تدافع العامّة ومباهاتهم بالفوز بآخر جهاز آيفون.

كذلك نزار الذي رحل عام 1998 في لندن، ولم يكن قد امتلك سوى هاتف أرضي في بيته، فقد كان على عداء مع التكنولوجيا. طلبته في نيسان، بعدما طمأنتني ابنته هدباء رحمها الله أنّه خرج من نوبته السريريّة التي دامت ثلاثة أشهر، وأنّه استعاد القدرة على الكلام. ثلاثة أشهر كانت كافية ليتأكّد خلالها الجميع من أنّه مغادر، وليبدأ سباق نعيه. بدأت العقبان والطيور الجارحة تحوم حول سريره في انتظار خبر موته لتنقضّ عليه، وتقتات من اسمه، الذي كان عصيًّا عليها في حياته.

لم أصدّق وأنا أسمع صوته مجدّدًا يرحّب بي، قال لي بسخرية سوداء «أنا الكاتب الوحيد الذي أهدته الحياة فرصة أن يُبعث حيًّا، ليقرأ ما سيُكتب بعد موته... لا يمكن أن تتصوّري كمّ الأكاذيب التي قرأتها حين عدت إلى الحياة، منذ أيّام وأنا أقرأ ما كُتب عنّي، أطالع الملفّات التي خصّصتها الصحف لنعيي، ما من أحد إلّا وله قصّة معي، حتى الذين صافحتهم مرّة في حياتي، البعض ادّعى أنّه زارني في بيتي، وثمّة من يروي قصصًا وحوارات على لساني، أمّا الذين يكرهونني فهم منذ الآن منهمكون في إعداد كتب عنّي، إنّها فرصتهم لينسبوا لي ما شاؤوا ويبيعوا باسمي».

للموت سكرات، أقساها أن تعود للحياة مرّة أخرى، كي تموت من جديد تحت صدمة الخيانات الدنيئة، وأنت ترى سباق السفهاء لنهشك حتى من قبل أن تُوارى في التراب.

قلت له مواسية «عزيزي هذا ما يحدث دومًا، أنت تعرف هذه الأمّة أكثر منّي. إنّ الوضيعين سيطلقون عليك صفاتهم ولو بعد حين. أنت غنيمة لكلّ نكرة يريد الشهرة».

كان يدري أنّ الحزن الإشهاري تفضحه عجلته، أمّا الحزن الكبير فلا صوت له. إنّه لا يُقتسم. فنحن بحاجة إلى كثير من الوقت لتقبّل فكرة الرحيل الأبدي لأعزّ الناس علينا. كان رثاؤه فرصة الصغار للاستعراض الأدبي ولمقاسمته شهرته ميتًا، بعدما فشلوا في الفوز بضوئه حيًّا. أمّا أنا، فتأخّرت كثيرًا في رثائه، كما تأخّرت سنوات في رثاء أبي، وما كنت لأكتب شيئًا لولا أنّ الدكتور سهيل إدريس رحمه الله صاحب دار الآداب وناشري وناشر نزار آنذاك، والذي أشرف على تنظيم الحدث، أصرّ على أن ألقي كلمة في الذكرى الأربعين لرحيله. وقد كانت الكلمة على تلقائيّتها مؤثرة إلى درجة أنّ الدكتور سهيل إدريس وقد كان الصديق الأقرب لنزار، قال لي باكيًا عندما انتهيت «ليتني أدري ماذا ستكتبين في رثائي».

الطريف أنّه يوم تأبين الدكتور سهيل إدريس رحمه الله، صودف وجود الخطّاط الكبير محمد سعيد الصكّار، ابن البصرة، ذلك النبيل الهزيل، الذي كان قد غادر العراق هربًا من حكم بالإعدام صدر في حقه، وبلغ في الغربة الباريسية من القهر عتيًّا، ما ترك على نظره ويده أثرًا كبيرًا منعه لفترة من القدرة على ممارسة الخطّ. سألني الصكّار بدوره متأثرًا بعد أن سمع كلمتي في رثاء الدكتور سهيل إدريس «وماذا ستقولين يوم أموت؟» قلت له سأقول «اليوم رحل الرجل النبيل، الوحيد الذي اطّلع على مخطوط «ذاكرة الجسد» وقام بتنقيحه من دون أن يخبر أحدًا أو يباهي بذلك». فغطّت ابتسامة الامتنان وجهه الذي ما عرفته إلّا شاحبًا، ولمع في عينيه بريق دمعة.

في آخر مكالمة مع نزار، كنت سعيدة بعودته إلى الحياة، إلى حدّ تركت كثيرًا من الكلام لأقوله له لاحقًا، فقد ظننت أنّه مُنح عمرًا جديدًا، لا بضعة أيّام فقط.

ما كنت أدري وأنا أحادثه أنّها المرّة الأخيرة التي سأسمع فيها صوته، وأنّه سينتكس مجدّدًا ليدخل بعد أيّام في صمته الأبدي.

تمامًا كما حصل لي مع الدكتور غازي القصيبي الذي كان يكلّمني أكثر من مرّة في الأسبوع يوم كان سفيرًا للسعودية في لندن، غالبًا ليقرأ عليّ قصيدة جديدة أو يروي لي نكتة، أو يسمعني بضعة أبيات في هجائي، متحرّشًا بي لأردّ عليه، فلا أجاريه برفع التحدّي، لثقتي بأنّني عصفورة تنازل «بولدوزر» أدبي، وبأنّه سيهزمني في منازلة يملك أسلحتها. وكان رحمه الله يعايرني بغادة السمّان التي كانت من اللياقة بحيث تشتري كتبه ثمّ ترسلها إليه ليوقّعها لها، بينما كان يرسل لي إصداراته الجديدة مع إهداء، ثمّ يتّصل بي ليسألني إن كنت قرأتها، وعندما لا يطمئنّ لجوابي، يسألني عن رقم الصفحة التي وصلت إليها، فيسقط بيدي وأنفجر ضاحكة أمام طريقته في حشري متلبّسة بكذبتي، فيهدّدني بقصيدة يهجوني فيها لأنني «امرأة لا تقرأ الشعر». وبعد أيّام أجد القصيدة منشورة في جريدة الحياة.

كان رحمه الله نصوحًا معي. وكانت أول رسالة أرسلها لي من لندن، لينصحني، بعد أن شاهد لي مقابلة تلفزيونية، أن أردّ دائمًا بجواب تهكّمي على أيّ سؤال استفزازي، وأن لا أقبل أن يحاورني صحافي بغير العربيّة الفصحى. وقد وقّعها «أخوك غازي القصيبي»، بتواضع ومودّة أربكاني وقتها. وحدث كثيرًا أن صحّح رحمه الله أخطائي اللغوية، وأعاد إرسال مقابلاتي مرفقة بوريقات صفراء يكتب عليها ملاحظاته أو تهكّماته وتصحيحاته ويلصقها عند كلّ تصريح يراه عجيبًا (كقولي مرّة لأحد الصحافيّين الذي سألني عن سرّ نجاحي،

إنّ ليد الله دورًا في ذلك يفوق ما تكتبه يدي)، وكنت أحتفي بذلك الظرف الأبيض الكبير الذي يحمل أعلاه اسم السفارة السعودية في لندن باللون الأخضر كلما وجدته في صندوق بريدي، وأعتبره أنبل رسالة محبّة، فهي تذكّرني بصباي، بزمن كان فيه أبي يتعالج في منتجع إيفيان بفرنسا، وكنت أكتب له رسائل بالفرنسية، فيعيدها لي بعد أيّام مصحّحة بقواعدها النحويّة، بدقة من زاول التدريس باللغة الفرنسية. ذات مرة عنونت مجلة لندنية مقابلة أجرتها معي بقولي «أنا امرأة كسولة لا ألهث خلف شيء فتأتيني الأشياء لاهثة». يومها أصرّ الدكتور غازي على أنّه لا يقال في العربيّة كسولة بل كسول، وانتقل سجالي اللغوي معه إلى الصحافة وشارك فيه اللغويّون، إلى أن حسمه في رأس تلك السنة بمحبّة، بأن أرسل لي بطاقة معايدة كتب عليها:

«أيّتها الكسولة..

والكسول...

والمكسال...

والكسلانة..

متى تنجزين الرواية الجديدة؟

هذا العام!

كلّ عام وأنت بخير».

طبعًا كنت متأخرة جدًا عن جردة مؤلفاته، التي تجاوزت آنذاك ستين مؤلفًا، أي بعدد سنوات عمره!

كان يشجّعني صادقًا على الكتابة، بل وعرض مراجعة الترجمة الإنكليزية لكتابي «فوضى الحواس»، وعندما لم يجد الوقت لذلك كلّف زوجته الفاضلة بمراجعته، وهي سيّدة ألمانية تتقن الإنكليزية والعربية قامت بمجهود كبير لإنجاز المهمّة. لكنّه كان يسأل مديرة مكتبة الساقي في لندن، كلّما صدر كتاب جديد لي «من يبيع أكثر

هذه الأيّام، أنا أم أحلام؟» فتجيبه كما روت لي «إنّها أحلام» فيحتفظ بالجواب لنفسه.

آخر رسالة وصلتني من الدكتور غازي قبل مغادرته لندن، كانت تحمل صورتين لحشد من المتظاهرين يقفون على الرصيف المقابل لسفارة السعودية في لندن، مطالبين برحيله، بعد القصيدة التي كتبها يمتدح فيها الشهيدة الفلسطينية الصبيّة آيات الأخرس، وينتقد سياسة البيت الأبيض.

كانت الصورتان مرفقتين بالقصيدة كما صدرت في جريدة الحياة وبوريقة صفراء ملصقة، عليها تعليقه وعجبه من أناس يخافون الشعر ويحاكمون الحقيقة.

بعد ذلك غادر الدكتور غازي رحمه الله منصبه عائدًا إلى الرياض لتسلّم مهام وزارية، فانقطعت مراسلاته تدريجًا، وغدا نادر التواصل معي، حتى قبل وفاته بفترة، حين عاد يطلبني بالحماسة نفسها وكأنّه استشعر رحيله.. إلى أن انطفأ صوته ذات يوم إلى الأبد.

بقي من غازي القصيبي رحمه الله في حوزتي اثنان وعشرون ظرفًا من عدّة أحجام لم تكن تحمل كلها رسائل، بل كتبًا وصحفًا وقلمًا أرسله لي مرّة بعدما أنهى أحد كتبه، ومن نزار رحمه الله أربع رسائل وبطاقتان. عند رحيل نزار طلبت من ابنته هدباء أن تحتفظ لي بربطة عنق له للذكرى، وأحضرتها معها مرّة إلى بيروت لكنني كنت على سفر، وبعد ذلك رحلت هدباء رحمها الله دون أن نلتقي.

أين ذهبت أصواتهم.. شاعريّتهم.. سخريتهم الجميلة.. ونصائحهم الودودة لي؟

الكبار الذين كانوا كائنات حبرية، وغادروا جميلين مترفّعين، تاركين خلفهم حقائب الكلمات، يذكّرنا بهم زمن تقزّم بعدهم، لا

مكان فيه للنسور. أسرقهم منّا الموت؟ أم الصمت؟ أم الوقت الذي أنسانا إيّاهم وكأنّهم لم يكونوا؟

الوقت سارق، برغم ذلك، نحتفي به كلّ بدايات سنة، من دون أن نفتّش جيوبه، لنتحقّق ممّا سطا عليه. لا نريد أن نرى وجوه من مضى بهم حيث لا ندري، ولا أن نعرف ماذا أخذ منّا، نخشى أن نقع في مفكّرته على دموعنا، على غبار أوهامنا، وقصاصات قصائد أخطأت عناوينها، وعلى ثلاثمئة وخمسين يومًا ذهب معظمها سدًى، وأخطأنا حسن الظنّ بها.

نخشى أن نقع على أرقام هواتف توقّف نبضها، مازال بعضها على دفاتر هواتفنا القديمة يحمل أسماء الراحلين، ولعلّها غدت لأناس آخرين، لا يدرون ماذا كانت تعني يومًا لنا.

رسالة رقم 8

أيّها الوقت.. ألا نسيتنا لبعض الوقت!

إنّها الأيّام الأولى من سنة جديدة. زمن ملتبس بين عامين... وزمنين. وعليك أن تتحاشى تأمّل جردة الماضي، الذي ليس حاضرك سوى ماضٍ فوريّ يضاف إليه. ففي كلّ التفاتة للماضي هدر للحاضر.

أكتب إليك، كمن يكتب في الطائرة، في اللامكان، بين بلدين يباعد بينهما توقيت قارّتين. مسافرة أنا في اللاوقت، فالإقلاع نحو مدن الحبر يستدعي إطفاء الهواتف والأجهزة الإلكترونية... والتحليق بخفّة طائر لا شيء يثقله.

هل هناك «لا وقت» نسرقه من وقت سارق؟

اللاوقت، زمن بلا ماضٍ. لا تلتفت فيه إلى الوراء، كي لا ترى أطلال أحلامك، وجثة زمن تركته خلفك، ولا أمل في أن تُبعث فيه الحياة مجدّدًا. فالوقت لا يعود، حقيقة نكتشفها، بعد أن كنّا في الصبا غير معنيّين بها، لاعتقادنا أنّ العمر أمامنا.

مع العمر، نكتشف أنّ ثمّة أفعالًا ملازمة للوقت لا يُذكر إلاّ مرفقًا بها. الوقت: يعبر، يركض، يقطع، يسرع...

لذا لا يمكن مواعدته، بل مباغتته، فما نكاد نصل إلا ويكون قد رحل. فالوقت مضى، فات، انتهى... هكذا نهاية كلّ قصّة.

لكن لنعترف له بميزة: ظالمٌ الوقت، وعادلٌ في الآن نفسه. فهو يمرّ بسرعة، لكن على الجميع... حتى على الذين أحببناهم، وسيشيخون أيضًا.. مع الوقت، وفي هذا عزاؤنا.

الوقت لا يجامل أحدًا، إنّه يترك تجاعيده على قلوب الجميع. لا يقبل الرشوة، فروزنامته خارج سلطة البشر.

الوقت لا يُشترى لأنّ الله أراد أن يتساوى أمام سيفه الفقراء والأغنياء.

لا تشاوف في الوقت بين العشّاق، لأنهم يكبرون ويشيخون في الوقت نفسه، وعندما يلتقون بعد فراق طويل، سيكون الوقت أثناء الغياب قد ساوى بينهما.

الوقت عـدّادٌ صادق، لكنّه لا يكذب إلّا عندما يحسب من أعمارنا أعوامًا لم نعش منها سوى أيّام.

الوقت أرقام.. لكنّه يقاس بالعواطف، فقد يطول ويقصر لدى المحبّين. قد تمرّ أعوام الحبّ سهوًا... وتغدو لحظة الانتظار دهرًا.

الوقت جامح.. الوقت فاضح.. الوقت صارخ، حصان لا لجام لصهيله.

الوقت صهيل الذكريات، وكلّ ما كان جميلًا وفات.

الوقت ما كُنّاه يومًا.. الوقت ما لم نعده اليوم.

إنّه الماضي الذي خسرنا رهان عودته. فالوقت في جميع الحالات رهانٌ خاسر.

الوقت واعظ.. الوقت باهظ. مدرّسٌ يأتي متأخرًا، عندما نكون قد دفعنا قسطنا المدرسي بالخسارات، مقابل تخرّجنا من مدرسة الحياة.

الوقت أسود.. الوقت أبيض، نلوّن صفحات مفكّرته كلّ صباح بمزاج ألواننا.

الوقت لا منطق له. نقضي حياتنا في اللحاق به.. وحين نتعب ونكفّ عن مطاردته، يأتينا بأمنياتنا القديمة لاهثة، بعد أن نكون قد تغيّرنا وتغيّرت هي بمرور الزمن.

الوقت ساديّ، نصفه فضول، يطالبك بالمثول أمامه ليحقّق معك في ما يتحاشاه قلبك من أسئلة.

الوقت ماكر، يحلو له أن يبكيك. يلحّ في سؤالك كلّ عيد عن الذين رحلوا وكانوا يصنعون عيدك.

الوقت لا يرحم، يذكرك كلّما رأيت عاشقين منذ متى أقلعت عن الحب.

كلّ بداية سنة، لا أمنية لنا إلّا أن ينسانا الوقت.. لبعض الوقت!

رسالة رقم 9

من يقاسمك لحظاتك لا يأخذ منك نصفك بل سكينتك،
فأنت لا تنفق مع الآخرين من وقتك، بل من روحك.

لا تملك نفسك إلّا حين تكتفي بها جليسًا. أتراني لا أملك من نفسي حتى نصفها؟

كيف أنّ عالمًا افتراضيًا يلتهم من عمرك زمنًا حقيقيًّا، فتنسى أن تعيش، وبدل أن تكتب نصوصًا تخلد، تكتب على الأنترنت ما يؤول إلى الزوال. وعوض أن تنجب كُتبًا، تنجب قرّاء يتزايدون، ويتناسلون وينادونك «ماما»، و«أمي»، و«امّا» بكلّ اللهجات العربية، بل إنّ أحدهم اعتاد أن يناديني «خالتي أحلام» لأنّه تمنّى كثيرًا أن تكون له خالة ولم يرزقه الله سواي. وإذا بأمومتك تُلزِمك مواساة أبنائك بالتبّني والتمنّي، والاطمئنان عليهم، وإطعام 12 مليون قارئ يوميًا!

مجرّد البحث على مدار النهار عن غذاء صحّي لقبيلة أبنائك، والسعي لتأمين كلسيوم الأمل لترميم نفوس ألحقت بها المآسي كل أنواع الدمار، هو ضرب من الجنون، واستنزاف لأيّ طاقة إبداعية. أطالب بإجازة من أمومتي، أودّ لبعض الوقت مغادرة مطبخ الإنترنت،

ومكتب الاستشارات العاطفية، ومستوصف الإسعافات الأولية، لقلوب أحبّتي القرّاء. أطالب بحقّي في الأنانيّة!

أهمّ أعمالي كتبتها أيّام عزلتي يوم كان أصدقائي لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، فكيف أصبحت أدير عالمًا افتراضيًا بتعداد سكّان خمس دول عربية، ازدحمت حياتي بهم، إلى حدّ ضعت فيه من نفسي؟!

هذا زمن التيه والتشتّت... الكلّ أمام هاتفه هائم على وجهه، تائه عن نفسه، يتقاسمها مع حشد من البشر لا يعرفهم ولا يعرفونه، ويملكون حق اقتحام حياته، والتلصّص على أخباره، وهو حائر لا يدري أيّهما حياته الحقيقية. أهي التي يعيشها؟ أم تلك التي يشاهدها على شاشة هاتفه؟ فقد سقط الحدّ الفاصل بين العالم الواقعي وذاك الافتراضي.

انتهى زمن الاشتياق. الآخر غدا في متناولنا. أخباره وأفكاره وأسفاره وصوره تملأ هاتفنا. أصبحنا نشتاق إلى أنفسنا التائهة. كلّ ما نتمنّاه هو أن نعثر عليها، ونخلو بها ولو قليلًا، فهي ما فارقناه في زحمة وسائل التواصل الاجتماعي، وهي الشيء الذي أصبح ينقصنا حقًا. هذا زمن التيه، ليس النازحون وحدهم تائهين، البشرية كلها أمام هواتفها تائهة عن نفسها.

اشتقت إلى نفسي المبعثرة. أريد أن أجمع كلّ صورها التي لا تشبهني، وكلماتها التي تُنسب لي، والتي يفيض بها العالم الافتراضي. منذ دخول الهاتف المحمول حياتي، كسبت ملايين البشر وخسرت نفسي. أودّ أن أواعدها، أن أدعوها لفنجان قهوة نحتسيه معًا في مكان لا إرسال فيه. أن أبوح لها بأشياء صادقة، لا تُكتب على الفايسبوك، ولا تُختصر بعدد أحرف التويتر. كلّ ما أتمنّاه أن لا يلتقط أحدهم صورة لنا لأنّني، لمرّة، سأذهب إلى الموعد بثياب النوم.. فنحن لا نكون صادقين إلّا حين نخلو بأنفسنا في آخر النهار!

رسالة رقم 10

ثمّة مكاسب أحتاجها لأعيش، وخسارات أحتاجها لأخلد،
وحبّ أحتاجه لأحيا، وفراق أحتاجه لأكتب.

8 جانفي ليلًا.

لا شيء على طاولتي. تخلّصت من أبطال رواياتي، لأستطيع كتابة هذا الكتاب بروح جديدة. بخّرت مكتبي، كما إيزابيل أللندي في 8 يناير من كلّ عام، وقرأت التعويذات. وضعت ملصقات صفراء صغيرة في مواجهة مكتبي لتذكيري ببعض التعليمات التي قد أحتاج إليها، وزدت عليها بعض المقولات التي أحبّ. يمكنني الآن الكتابة بخفّة من يكتب ليسخر من شيء وحده يعرفه.

أقفلت حسابي على الفايسبوك مؤقتًا، وفصلت الإنترنت عن هاتفي حتى أقطع تواصلات الواتساب مع أيّ كان.

لي رغبة جامحة في أن أنقطع بعض الوقت عن كلّ هذا الزيف الذي يطوّقني. الكاتب مطالب خلال رحلة الكتابة بإغلاق هاتفه، والامتناع عن تدخين نيكوتين الأخبار العربيّة، وعدم تعاطي القضايا

عليه، قبل الإقلاع نحو كتاب جديد، أن يربط حزام الوقت، ويطلّق التلفزيون بالثلاثة، أن يغلق حساباته في التويتر والأنستغرام، وصفحته في الفايسبوك. أن يقطع علاقته مع الأضواء، وكلّ الأجهزة التي تعمل بالكهرباء، ليعود إلى عتمته، كي يبصر الحياة على حقيقتها.

أغبط قطّتي، لأنّها تملك قدرة عالية على الرؤية في الظلام، بينما لم تزدنا الأضواء إلّا فقدانًا للبصر.. أي للبصيرة.

لكنّ «كامي» لا ترى منذ شهرين سواي، لقد صنعَت لها عالمًا لصيقًا بي. أينما أكُن، فلها مكان غير بعيد عنّي، بحيث تؤنسني دون أن تزعجني. لا أدري كيف، بفطرة الحيوان الأليف، أدركَت ما كنت أريده منها بالتحديد. ربّما لهذا قال فرويد إنّ الوقت الذي نقضيه مع القطط ليس هدرًا.

قرأت قبل أعوام أنّ سيّدة بريطانية منحت قطّتها أسهمًا بمليون جنيه استرليني في شركة الأنترنت التي تمتلكها، مكافأة لها على مساعدتها على إبقاء معنويّاتها مرتفعة أثناء تأسيس الشركة، وعلى سهرها ومؤانستها لها أثناء أشهر من العمل، ما جعلها شريكة لها في الأرباح، حسب منطق صاحبتها.

ولأنّ «كامي» لم تسمع بالخبر، فهي لن تحتجّ، خاصة أن لا مكاسب لي من صفحة الفايسبوك يمكن أن تتقاسمها معي. ثمّ إنّها تبدو سعيدة بقدرها كحيوان عربي، لا يعرف أيّ حقوق حصل عليها أبناء جنسه في قارّات أخرى. إنّها ضحيّة الجغرافيا، ومجرّد وجودها في بيت يؤويها ويؤمّن لها الطعام والحماية، ترف لم يحظَ به ملايين البشر الهائمين اليوم على وجوههم في بلادنا.

منذ الظهيرة، هي جالسة مقابلة لي. تفتح عينيها لتتأمّلني قليلًا، ثمّ تعاود غفوتها، غير معنيّة بأنّني، إنقاذًا لما بقيَ من العمر، قرّرت مغادرة العالم الإفتراضي.

رسالة رقم 11

القرّاء أحرار بما يقرأون... والكاتب مكبّل بما يكتب

جمعت شجاعتي واعتذرت لكلّ محبّ ومنتسب لصفحتي في الفايسبوك، وأعلنت إغلاقها لأتفرّغ للكتابة.

في كلّ مرّة حاولت فيها ذلك، هزمتني المحبّة وأجبرتني عشرات التعليقات على العودة عن قراري.

هذه المرّة، قرّرت ألّا أستسلم لأيّ ابتزاز عاطفي. على مدى أيّام، كانت تتجاذبني مشاعر متناقضة بين الرغبة في التضحية، والنزعة لاختبار الأنانيّة، أي معاكسة فطرتي، فقد كنت أخال التضحية والإيثار صفتين ملازمتين للمبدع!

تحتاج إلى أنانيّتك لتقول لمن يستبيح وقتك ولو بذريعة المحبّة «لا». على الكاتب أن يكون كريمًا في كلّ شيء إلّا وقته. ألم يقل هنري ميلر «من واجب الكاتب أن يكون أنانيًّا». بل إنّ منصور الرحباني جعل من الأنانية شرطًا إبداعيًّا، وهو رأي نزار أيضًا، الذي قال لي ذات مرّة «على الكاتب ألّا يكون كريمًا بوقته». لذا يحتفظ

الروائي الأميركي راسل بانكس في مكتبه بجزء من بلاطة لضريح قديم كتب عليه «تذكّر الموت»، فلا شيء أكثر إلهامًا من إدراك الكاتب أن وقته قصير.

كنت مدجّجة بكلّ الأقوال اللازمة لدعم قراري. ولم يكن ينقص القرّاء أعذارهم أيضًا. كالأعرابيّة التي سئلت «من أحبّ أبنائك إليك فقالت: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يُشفى وغائبهم حتى يعود». لا شيء كان يهزمني كحزن من منعتهم أقدار أوطانهم من أن يكبروا أو يشفوا أو يعودوا، وكنت لهم الوطن.

ها هي التعليقات نفسها، بعضها عاتبة، وأخرى غاضبة، وجميعها مُحبّة، خائفة من خسارة حضن غدا حقيقيًّا في عالم افتراضي:

«من فوق حطام العراق وحروبه، من بين ظلمات دخان المقاومة والحشد والإرهاب والجيش، وضجيج أصوات النازحين المتسوّلين في شوارع مدينتي من سوريا والموصل، وزحام السيّارات وزماميرها وضغوط العمل، يأتيني وأصدقائي كلّ صباح هدوء مفاجئ، ننتظر لأجله اليوم الجديد. إنّها كلماتك التي تأتينا كنور البرق في وسط ضوضاء رعد مدينتنا، لا تتركينا». (إيناس علي)

«إن أغلقت هذه الصفحة، فسأشكوك لمجلس الأمن الدولي لأنك ستصبحين مجرمة حرب بفعلك هذا».

«بعيدًا عن الموضوع لديّ سؤال متى تصدرين كتابًا جديدًا؟ فأنا من العراق ونحن العراقيّين لا ندري متى يخطف الموت أرواحنا. أتمنّى أن أقرأ جديدك قبل أن يخطفني الموت. تحيّاتي». (محمد سالم)

«هل شاهدت فيلم "ماء الفضّة"، للمخرج أسامة محمد ووئام بدرخان؟ صُوّرتْ مشاهده في مدينة حمص أثناء الحصار، هناك مشهد خرجت فيه البطلة مع الذين خرجوا باتفاق رعته الأمم المتحدة ولجأت لتختبئ لليلة في بيت مهجور تعرّض للقصف، فعثرت تحت

الأنقاض على ما تسمّيه «كنزًا».. إنّه روايتك «ذاكرة الجسد».. سلامًا سيّدتي من بلاد النرجس».

لم أشاهد هذا الفيلم القصير، لكن لعلّ مخرجه أراد أن يقول إنّ الأدب هو ما ننقذه أو ينقذنا، وهو ما يبقى بعد الدمار، لأنّه الشاهد عليه، لذا نصرّ على أن ترافقنا كتبنا في هجرتنا، لأنّها ذاكرتنا التي نأبى أن نتركها وراءنا.

كتلك القارئة الأرمنية التي غادرت سوريا هربًا من الحرب، وكتبت لي تبدي حزنها لأنّها تركت كتبي خلفها، وكانت هذه المرّة الثانية التي تتخلى فيها عن مكتبتها، الأولى كانت قبل ثلاثين سنة أثناء الحرب اللبنانية. كانت رسالتها مؤثّرة، فتركت لها رقم هاتفي، ووعدتها بأن أهديها أخرى موقّعة.

لمن غير هؤلاء يكتب الكاتب؟ ومن سواهم يستحق إهداءه؟

أذكر أنّ أول نسخة من «فوضى الحواسّ» أهديتها سنة 1998 لسائق أجرة سوري في بيروت، كان قد رافقني إلى المطبعة، وحين لعرّف إليّ قال لي: «لي صديق في سوريا لا تتصوّري كم يحبّك.. لن يصدّق أنّني التقيت بك». طلبت منه أن ينتظرني. نزلت إلى المطبعة مسرعة كي لا أطيل انتظاره وسط زحمة المرور، وعدت لاهثة أحمل أول نسخة أمدّوني بها. كتبت إهداءً لصديقه: «هذه أول نسخة من هذا الكتاب، يسعدني أن تكون أول من يقرأها فلك كنت أكتب».

الذي يعتقد أنّنا أمّة لا تقيم علاقة عاطفية مع مكتبتها، لا يعلم بأنّ آخر ما يبيعه العراقي عند العوز هو مكتبته، بعد أن يكون قد باع أثاث بيته.

بعض القرّاء يخبّئون لغدهم كتبًا، وكما يزداد الأثرياء جمعًا للمال وكأنّهم خالدون أبدًا، يزداد القرّاء جشعًا للقراءة وكأنّهم سيعيشون أبدًا. وحده الكاتب يكتب بذعر مَن قد يموت غدًا.

رسالة رقم 12

ما هربت من الحبّ إلّا وجدني

برنك ما الحلّ؟

سئل كاتب فرنسي لماذا تكتب، قال «لأنّ أبطالي في حاجة إليّ، إنّهم لا يملكون سواي». أمّا أنا فما عدت أدري من يحتاج إليّ أكثر: أبطالي.. أم قرّائي؟

في الواقع، السؤال مطروح بصيغة خاطئة. كان يجب أن يكون لمن يحتاج الكاتب أكثر: لأبطاله.. أم لقرّائه؟

البارحة وسط التعليقات التي حاول أصحابها إقناعي بعدم إغلاق الصفحة، وقعت على هذا التعليق:

«عمري خمسون لهفة.. ميزتي الأنفة، وعلامتي الفارقة الشغالي بك. منذ سنوات أواعد روحك هنا، أتصفّحك.. أتأمّلك.. أعايشك. لا تغيبي بذريعة الكتابة، ربّما أخلفت روايتك الأجمل. جئت سيّدتي أهبك قبلة النسيان!».

من أقنع القارئ بأن الكاتب يحتاج إليه فيتطوّع لنجدته بجملة... أو بقبلة؟

يحدث أن يتعمّد بعض القرّاء إثارة دهشتي، أو لفت انتباهي، فيستعملون ما يشابه لغتي أو يوقّعون بأسماء أبطالي، لكن هذه أول مرّة يتوجّه لي فيها قارئ بهذه الصيغة. ويضع في تعليقه بطاقة تعريفه، عمره، صفته، وعلامته الفارقة مرفقة بأمنيته. بل إنّه رفع سقف الأمنيات عاليًا، ومعها سقف الغرور أيضًا: «جئت سيّدتي أهبك قبلة النسيان». معقول؟ من يخال نفسه، ليتحدّث وكأنّه مكلّف من منظمة إنسانيّة بنجدتي، مستخدمًا قصيدتي «أيّها النسيان هبني قبلتك».

حتى في عالمٍ افتراضي، يقتحم الرجل فضاء المرأة مشهرًا غروره، نافشًا ريشه. ثمّة ادّعاء وثقة زائدة بالنفس تفسد أيّ بُعدٍ جمالي قد تحمله شاعريّة هذه الرسالة. لا أتحمّل هذا النوع من الرجال.

تجاوزته إلى بقيّة التعليقات:

«ربي يحفظك من كلّ مكروه ماما أحلام، اشربي ماء بزاف، وخففي قهوة لأنّ الكلى تتعذب جدًا بتصفيتها من الجسم، أوكي؟ بحبّك كتير ماما، تصبحي على خير».

«كاتبتي العزيزة أنعى لك أمّي».

«نحن هنا 12 مليون لاجئ إلى وطنك، فهل يا ترى ستفعلين فعل الحكومات وتقرّرين طردنا من دفء مخيّماتك؟ لا أظنّ قلبك سيسمح لك بذلك».

«أمرّ خلسة على منشوراتك منذ 2010. ثمّة شيء معبق بعطر الماضي. أرصفة، وأزقة، وفوانيس... أحرف وورود تتهادى وتتهاوى. كنت أضيع مع التعليقات. أتساءل: كم من مخلص ما زال هنا، وكم من محبّ مات قبل أن يرى المنشور التالي. وكم من مبتدئ صار

كاتبًا. وكم من صديق صفحة صار شريك عمر وحبيبًا. تمامًا مثل هذه الصفحة هي الدنيا، مجرّد ذكرى صارت. سيّدتي، هرمنا وما زالت الصفحة عذراء كما البارحة، تحكي ما كان أملًا وحلمًا. ليت صفحة الأمس تدري ما بصفحة اليوم!».

قرّائي موهوبون حقًا، ولا ينقصهم إلّا الحظ. وما زالت أمنيتي أن أكتب كتابًا مشتركًا معهم.

بعد ساعة، وجدتني شاردة عمّا أقرأ، ورحت أعاود البحث عن ذاك التعليق، لأعيد قراءته بتمعّن أكثر.

ها هو ذا! ليس من الصعب أن أستنتج أنّ صاحبه رجل خمسيني، ذو أنفة، يتابعني منذ سنوات، يعرف الكثير عنّي ويعدني بأجمل رواية حين يقول: «لا تغيبي بذريعة الكتابة، ربّما أخلفت روايتك الأجمل».

هذه الجملة بالذات هي التي علقت بذهني. إنّها أذكى فخّ يمكن أن يُنصب لكاتب. لكن، كان عليه أن لا يضيف «جئت أهبك قبلة النسيان». يحدث لجملة نضيفها أن تغتال وقع جملة هي أجمل منها. لذا قيل «الكاتب ليس الذي يعرف ماذا يكتب، بل الذي يعرف ماذا يحذف!».

ومن قال إنّه كاتب، لعلّه أحد الذين يأخذون أنفسهم محمل الكُتّاب، أولئك الذين يفيض الأنترنت بخواطرهم وبصفحاتهم الشعريّة. صفحته نفسها لا تحمل اسمًا، بل صيغة شاعرية «ربّما ذات يوم».

كلّ شيء لدى هذا الرجل احتمال، بما في ذلك احتمال أن أخلف روايتي الأجمل إن أغلقت صفحتي.

لم أقاوم الرغبة في الدخول إلى صفحته. كانت تحمل صورًا قليلة، التقط بعضها في أماكن راقية، على الأرجح في بلاد أوروبية، وكانت الأخرى لقطات إنسانية، في مناطق تبدو مشتعلة بالحرب. ما استوقفني هو خواطره الوجدانيّة المغلّفة بوجع ما:

«كالجياد الجريحة، لا أدري ممّا أعاني، ولا في أيّ معركة سقطت».

«هناك فراق لا يمنحك فرصة ثانية، لأنّ المفارق مضى حيث لا عودة، وفراق عليك ألّا تمنحه فرصة ثانية، لأنّ من عاد سيمضي عند أول فرصة».

«كما في أسطورة سيزيف، كلّما رفعنا صخرة الحب عاليًا، دحرجتنا الخيبة من علوّ أوهامنا».

يبدو رجلًا عميقًا وشاعريًا، كما توقعته. العجيب أنّ له أكثر من ثلاثمئة ألف متابع. ما الذي جذب القراء لشخص يوقّع «رجل»؟!

ولماذا لا يستفيد من شهرته ليصنع له اسمًا؟ أحببت كتاباته، لكنّي لم أحبّ توقيعه، أهو آخر الرجال ليوقّع «رجل»؟ العنتريّات الذكوريّة تستفزّني، بقدر استفزاز الشعارات الأنثويّة والتيّارات النسويّة لأعصابي... على كلّ حال، لا وقت لي لهذه الترّهات.

كنت على وشك إغلاق صفحته، عندما استوقفني أحد منشوراته «أحبّها كما لم يحبّها رجل، وأحبّ سواها كأنّها لم تكن». لم يحدث أن قرأت نصيحة أكثر لؤمًا. أيّ نصيحة شرّيرة هذه: أن يقاصصك رجل مرّتين، مرّة بحبّ لن يحبّك مثله أحد، ومرّة بحبّ امرأة سواك وكأنّك ما وجدت في حياته ولا كنت يومًا من أحد!

لكأنّها صفحة لتصفية حسابات مع النساء، وربّما معي. صفحة من تلك التي تنبت كلّ فترة في الأنترنت. حتى إنّ أحدهم وصل إلى

حدّ كتابة كتاب بعنوان «نسيانكن» يردّ به على كتابي «نسيان. كم» وراسلني يطلب منّي أن أكتب له مقدّمة!

كان الوقت متأخّرًا، وكنت متعبة، فأجّلت الاطلاع على صفحته إلى الغد.

رسالة رقم 13

الفضول تورّط عشقيّ

بدأت صباحي باحتساء فنجان فضول.. لعلّ عشرة «كامي» زادت من ولعي بكلّ ما هو غامض. هي جالسة بكلّ حسّها الأنثوي على حجري، تتابع ما أشاهد على الكمبيوتر.

«القطّة يقتلها الفضول» يقول الإنكليز. وأضيف: أمّا النساء فيقتلهنّ الغموض. هذا الرجل المتخفّي خلف رجولته، الذي يتحدّاني بأسلحتي، يأسرني غموضه، ولن أرتاح حتى أفكّ شيفرته.

تبدو صفحته راقية، بتصميمها واختيار مقولاتها وتشويق قصصها، لكنّها مفخّخة بالمكر الرجالي. لكأنّ جلّ منشوراته مخصّصة لعرض عيوب النساء وغدرهنّ عبر التاريخ.

تحت تعليق «وصفات لنسيان امرأة» هناك عدّة قصص منها:

طلب العقاد من الفنان الكبير صالح طاهر أن يرسم لوحة تكون أول ما يرى عندما ينام وأول ما يرى عندما يصحو من النوم. وكانت اللوحة تمثّل إناءً يحوي عسل النحل، ويقف عليه الذباب. كان وحده

يدري أنّ اللوحة تمثل المرأة التي أحبّها والتي كانت كالعسل، لكنّ الذباب أصبح يحطّ عليها. وتلك كانت وصفته كي يكرهها، وهو يتأمّل كلّ يوم هذا المشهد.

أو هذه القصّة:

قيل لإبراهيم بن أدهم إنّ اللحم قد غَلا فأجاب: «أرخِصوه» أي لا تشتروه فيرخص. وأضاف منشدًا:

وإذا غـلا شـيءٌ عـلـيّ تـركـتُـه فيكون أرخـصَ ما يكون إذا غَلا

لا أرخص من شيء غلا فتركته، ولا أقلّ شأنًا من أحد تكبّر فهجرته. نحن من نعطي الأشياء ثمنها، ونحدّد للناس مقامهم، بإعلاء أو استرخاص شأننا. الذي يهينك بالصدّ والجفا، بإمكانك استرخاصه بالاستغناء عنه. فكما اللحم ليس ضروريًّا على مائدتك، ولا الحلويات من لوازم وجباتك، لا أحد ضروريًّا لحياتك. كلّما تلهّفت لأحد خسرته، فلا أنت حاصل على منشودك ولا أنت محافظ على كرامتك. إنّك تغذي غروره فيكبر بتمنّعه وتصغر في عين نفسك. ضع احتمال أن يكون ما تريده مضرًّا بك. دعك من اللحم يا رجل.. جرّب السمك فهو يزوّدك بأوميغا 3، أو كن نباتيًا فهذا أفضل لصحّة قلبك!

نعم. هذا أول الحصاد عزيزتي، ويبدو أن الزرع وفير في هذه الصفحة العجيبة.

أحبّ الروح الساخرة الماكرة لهذا الرجل، لكنّي أفضّل الحروب التي لا يشهر فيها عدوّك أسلحته كلّها. تلك معركة أشتهي خوضها. هذا رجل ليس على ما يُرام. ثمّة امرأة تركت ندوبًا في قلبه. في كلّ ما يكتبه يثأر لكرامته، ثمّ كأنّه يعتبرني، بسبب «نسيان. كم»، طرفًا في ما حلّ به.

غادرت صفحته إلى صفحتي بنيّة العودة إليها لاحقًا، فأنا لم أكتفِ تمامًا من نصائحه الرجالية، وتهكّماته. رحت ألقي نظرة على التعليقات الجديدة التي تواصل مطالبتي بعدم إغلاق الصفحة، حين وقعت ضمنها على تعليق جديد له:

«لا شيء ممّا توقعتِه حدث وأنت تمضين، ما فتحت مجلس عزاء، ولا ارتديت حدادك. فقط خلعت قلبي على مائدة فراقك وأطعمته لقطتي، ورأيتها سعيدة تلعق شفتيها طويلًا بنهم. من قال إنّ الفراق وجبة ألم؟»

أحببت هذه القفلة غير المتوقعة لحالة فراق. دومًا تمنّيت فراقًا سعيدًا. لماذا تكون السعادة دائمًا من كماليّات الإنسان العربي، الذي ما من وجبة إلّا ويرشّها بتوابل الحزن، لأنّه يعتبر المآسي طبقه الأساسي؟ شعرت بأنّ هناك وجهة نظر تجمعني بهذا الرجل، وربّما أكثر من ذلك.. ما دام يملك قطّة أيضًا!

تذكّرت مقولة لمارك توين. خطر ببالي أن أردّ عليه بها، كما أفعل أحيانًا في ردودي الخاصّة على بعض التعليقات. تبدو لي وسيلة لائقة لاستدراجه لحوار ما، وطريقة صادقة لكسر شوكة عداوته، وقد تكون فرصتي الوحيدة للتواصل معه واكتشاف من يكون. فبعد إغلاق الصفحة سيصعب ذلك.

كتبت ردًّا أسفل منشوره:

«أشارك مارك توين القول "أيّ إنسان يحبّ القطط أنا صديقه ورفيقه بدون تعارف أو مقدّمات". لكأنّ صداقة ما تجمعنا، هنيئًا لقطتك بك!».

مرّت ساعات قبل أن يأتي جوابه ليلًا. لعلّه الوقت الذي فتح فيه الصفحة. كان موجزًا في ردّه: «سيدتي... قد يطعم النسر القطط، لكنّه لا يصادقها!».

حين وقعت على جوابه وجدت أنّ القرّاء قد سبقوني للتكفّل بالردّ، فثمّة استخفاف واحتقار واضح للقطط، بل واستهانة بمن يأتي على ذكرها، فما بالك إن كانت المقارنة بـ«أسد السماء» الذي لقوّته هو رمز كثير من الرايات والأعلام في العالم.

وجدتني مكرهة على دخول النقاش، والقول بأنّ القطّ كان مقدّسًا على أيّام الفراعنة، وهو مجسّد في كثير من التماثيل بجانب السلاطين، وكان من يفقدِ قطّه آنذاك، يحلق حاجبيه إشهارًا لحزنه وحداده. ولأبرّر حبّي للقطط أضفت أنّ القطّ منذ الأزل هو صديق الكُتّاب ينقذهم من عزلتهم وكآبتهم.

علّق أحدهم: «أمّا على أيّامنا فلقد أصبح القطّ في كلّ حرب صديق اللاجئين والنازحين، لقد أنقذهم من الموت في حصار التجويع، ومدّد بلحمه الهزيل حياتهم لبضعة أيّام».

ما عاد بإمكان المرء أن يتحدّث عن أيّ موضوع، دون أن تكون الحرب طرفًا فيه. ازدادت قناعتي بضرورة إغلاق الصفحة.

فجأة، جاء تعليقه: «أراك سيّدتي تعرفين عن القطط أكثر ممّا تعرفين عن النسور!».

كانت هناك نيّة واضحة لاستفزازي أو استدراجي للنقاش. أيّ ردّ كان سيشعل الصفحة جدلًا بيزنطيًا يذهب في كلّ صوب.

لم أكن جاهزة لمواصلة التحاور معه أمام الجميع، ولا كنت سأقبل بأن تكون له الكلمة الأخيرة. كتبت له على بريده الخاص: «يسعدني مواصلة النقاش معك هنا، لأنني سأحذف هذا المنشور وأغلق للتوّ الصفحة».

جاء جوابه «أهلًا سيّدتي».

رسالة رقم 14

الحب قفز لنبضات القلب، لذا لا تسأل عاشقًا عن الساعة،
فوقته لا يطابق وقتك!

البارحة، في مساء 20 جانفي، قبل منتصف الليل بقليل، دخل ذلك الرجل إلى حياتي.

لا تسخري منّي. الموضوع لا علاقة له بالحبّ، بل بأول جملة كتبها، ردًا على قولي «يسعدني أن ألتقيك هنا».

تصوّري أجاب: «ليت قدرًا شهمًا يجمعنا في مدينة ما».

أربكتني جملته. تهزمني الشهامة حتى كمجرّد لفظ. أطلت التفكير في غرابة أمنيته. ثمّ أجبت:

– في انتظار مدينة ما.. سخيّ هذا الفضاء في تواطئه مع غريبين مثلنا..

– اللقاء بك في عالم افتراضيّ لا ينصفني، كلّ النساء وُلدن مرّة واحدة، وأنت وُلدت مرّتين، مرّة كذبًا ومرّة حلمًا، لذا أحتاج معك إلى قدر شهم يرتّب موعدًا لاثنين، دون أن يحقق معهما في أيّ أمر، أو يسألهما من هما!

– أمنياتك لا تصلح لمدن عربيّة!

– لذا لا أقيم فيها.

– وأين تقيم إذن؟

– في بلاد تزوّج فيها وليّ العهد عاملة في أحد المطاعم، وعندما سألوه كيف ذلك؟ قال أنا سأعيش مع قلبها لا مع طبقتها الاجتماعيّة. لذا دُعيت إلى مراسم زفافه الملكي مختلف فئات المجتمع من أفراد العائلة المالكة والسياسيّين إلى سائقي الشاحنات وعمّال التنظيف، إنّها بلاد يذهب وزراؤها إلى مكاتبهم على الدرّاجات الهوائيّة!

– هل هذه فوازير رمضان؟

– لا. أردت أن أشرح لك لماذا أمنياتي لا تصلح لمدن عربيّة، إنّها أمنيات طليقة، مثل أهل هذه البلاد، اعتادت التنقل على الدرّاجات الهوائيّة!

– كلّ هذا لا يحمل جوابًا لسؤالي.

– أنا يا سيّدتي أقيم في السويد.

– محظوظ أنت!

– لعلها ضربة حظّ أن تعثر اليوم على الوطن البديل، والحب البديل، والحزن البديل، لكن في كلّ ما تأتيه أنت تستبدل سكّينًا بسكّين.

– برغم كلّ شيء أغبطك. كم أتمنّى زيارة السويد. كتبت قبل سنوات مقالًا ساخرًا بعنوان «من يسوقني إلى سجن السويد» لفرط خدماته وإقامته المريحة في غرف جميلة، يتوفر فيها حتى الأنترنت، ويمكنك فيها أن تستقبل أحبّتك، وتمارس الرياضة، وتتقاضى دخلًا شهريًّا، يبدو السجن هناك المكان المثالي لمن يريد أن يتفرّغ للكتابة.. أمّا أسوأ السجون فهي حتمًا عندنا، حيث لا يمكنك حتى أن تكتب لأهلك، ولا أن تستقبل منهم رسالة. حتى إنّ مخرجًا سينمائيًّا

التقيته قبل عدّة سنوات، روى لي أنّ ابنة أحد الأسرى، أخبرته في فيلم وثائقي عن أبيها أنّها أرسلت له كتاب «ذاكرة الجسد» ووضعت سطرًا بقلم الرصاص تحت الجمل التي تريد إيصالها إليه، لتقوّي من عزيمته، كقول البطل مثلًا «خلقت السجون للرجال».

– كلّ السجون سيّدتي خُلقت للرجال الرجال، حتى إن لم تكن لها قضبان، فالبعض أسير مبادئه، أو أخلاقه، أو شهامته، أو عقيدته، ووحده يدري بأصفاده، لأنّه من وضعها في معصمه وقيّد نفسه بها. لكن «أسوأ السجون هي الخشية من إيذاء من تحبّ». في ما يخصّ أمنيتك، لا أظنّ أنّك ستجدين في السويد ضالّتك. لن تعثري هنا على مظالم نسويّة يمكنك الكتابة عنها. قضيّتك هنا خاسرة!

– ليست المرأة قضيّتي.. ولا الرجل أيضًا.

– وما قضيّتك إذن؟

– ما عادت لي من قضيّة، أنا منشقّة عن كلّ أوهامي السابقة، أحاول استعادة عافيتي والعودة للكتابة.

– منذ فترة طويلة لم تنجزي كتابًا.

– إنّ تعايشي مع عالم ما عاد يشبهني هو أعظم إنجازاتي حاليًا، وهل من إنجاز أكبر من الصبر؟ في الواقع، أحاول كتابة عمل عن الفراق.

– جميل.. إنّه موضوع مثير.. الجميع معنيّ بالفراق هذه الأيّام.

– الفراق موضوع يسيل له لعاب الأدب، ماذا كان سيكون الأدب لولا الفراق!

– هل لي أن أسألك.. هل فارقت أحدًا ليعنيك هذا الموضوع بالذات؟

– لا.. أبـدًا. لكنّه يشغلني كأحد فصول الحبّ التي بدأت الكتابة عنها.

– لا تكتبي عن الفراق إلّا عن ألم. ثمّة فراق يكسر القلب، وفراق يكسر العمر. وأقساها الذي يكسرك عن غدر. إن لم تعيشي إحدى هذه الحالات، فلا تكتبي عن الفراق. أنت تحبّين الرجل بالكلمات، من أجل الكلمات، وقد تقتلينه أو تبعثينه حيًّا إن اقتضت الحاجة، من أجل حفنة من الكلمات. لذا لا أراك تتألمين إلّا على ورق. ماذا تعرفين عن الفراق إن لم تتشظّيْ وتنشطري وتحزني وتندمي مهما كان قرارك؟ لا تكتبي عن الفراق إلّا عن ألم.

ما ندمت عليه، هو كوني قلت الكثير لهذا الرجل منذ الاتصال الأول. ها هو غدا طرفًا في كتاباتي وخياراتي. لقد كانت الجولة الأولى لمصلحته. لم أشبع من لغته ورقيّ تهكّمه، وما يبدو من ثراء ثقافته، لكنّني قرّرت إنهاء الحديث متذرّعة بالتعب، كي أقلّل من خساراتي. ما يحيّرني حقًا هو تلقائيّته في الحديث إليّ وكأنّنا نواصل حديثا سابقًا.

إنّها انطلاقة خاطئة مع رجل تعرّفت إليه للتوّ.. بل لم أتعرّف إليه إلى الآن!

رسالة رقم 15

عليك أن تراجعي علاقتك بالألم،
فالألم ليس قدرًا، إنّه اختيار

قال «ماذا تعرفين عن الفراق إن لم تتشظّيْ وتنشطري وتحزني وتندمي مهما كان قرارك. لا تكتبي عن الفراق إلّا عن ألم»...

بلى، أعرف الفراق المدوّي في صمته، القاتل لفرط تجاهله، الفراق الظالم وذاك القاهر، فراق خلناه قصيرًا كلقاء، وفراق لا لقاء بعده برغم أنّ المفارقين أحياء.

الفراق الذي لا يفارقنا فنساكنه، والآخر الذي يصعب انتشال سكّينه، فنتعايش مع طعنته. الفراق الذي نستكين إليه، فيشفينا، والفراق الذي لا مسكّن لوجعه، لأنّه وجع كلّ عضو فينا. الفراق المماطل بنيّة المزيد من هدر عمرك، والفراق الذي بنجاتك منه يبدأ عمرك.

فراق الرجال وفراق الأنذال، فراق المترفعين عن الأذى، والآخرين الذين لا يقبلون عند الفراق بأقلّ من دمارك. فراق الرجال الرجال، المفارقين بمعروف وإحسان، وفراق الذين كان تحطيمنا رهانهم.. وساعدناهم على كسب الرهان.

فراق يبقينا على اشتعال، وآخر يطفئ فينا الثقة بالبشر، ويعلّمنا أن نحبّ في المرّة القادمة بالتقسيط المريح، فالقانون لا يحمي العشّاق المغفلين، ساعة دفع فواتير النهايات. الفراق صاعقة، كان يمكن أن تكون متوقّعة لو أدركنا أنّ الحبّ منذور للترك أو للمغادرة.

الفراق تحدٍّ كبير، تحدٍّ جميل، يحتاج إلى قرار عدم الالتفات إلى الوراء، مهما كان النداء.

رسالة رقم 16

أحبّ كتابًا سبقني إليه قارئ، ورجلًا سبقتني إليه امرأة.
ثمّة متعة في تصفّح ما أثار شغف الآخرين... أو فضولهم!

أصبحت أبدأ نهاري بالتجسّس على صفحته، لا أدري إن كان يدرك ذلك، أم هو لا يتوقّعه منّي. اكتسبت من صفحته ثقافة جديدة وأنا أطالع ما يقوله الرجال عن النساء، في السرّ والعلن.

مثلًا قول دوستويفسكي الذي لو لم يكن روسيًّا لظننته يتحدّث عن المرأة العربية: «المرأةُ مخلوقةٌ لا يعرفُ إلّا الشيطان ما في نفسها. حاولْ مرّةً أن تعترفَ لها بأنّكَ أذنبتَ في حقّها، وأن تقولَ لها: "أنا مذنب، فاغفري لي، اغفري لي". ستسمعنَّ منها عندئذٍ سيلًا من ملامات. لن ترضى أبدًا أن تغفرَ لك ببساطة، بل ستأخذُ دلالَك وتخفضكَ إلى الأرض، معدّدةً جميعَ أخطائك، حتى تلكَ التي لم تقترفها. لن تنسى شيئًا، وسوفَ تُضخّمُ كلَّ شيء، وستخلقُ أخطاءً جديدةً عند الحاجة. بعد ذلكَ فقط سترضى أن تغفرَ لك. وخيرُ النساءِ هنّ اللواتي يغفرنَ على هذا النحو. ولكنّها ستفرغُ أولًا أعماقَ دروجِ أحقادها وتلقيها على رأسك. تلك هي القسوةُ الكاسرة المفترسة

القابعةُ فيهنَّ جميعًا. أعلمُ هذا. كذلكَ خلِقن، من أولهنَّ إلى آخرهنّ، الملائكة اللواتي لا نستطيعُ أن نحيا بدونهنّ».

أو قول لبروست: «إن الذين ليسوا في حالة حبّ لن يفهموا كيف يمكن لرجل ذكيّ أن يعاني بسبب امرأة غبيّة».

كلّ هذا كنت قد قرأته سابقًا. لكنّ المفاجأة كانت في المنشور التالي: «كنت أريد حبًّا أموت من أجله وصار لي حبٌّ أموت على يده» الذي وقّعه «رجل»، وهي مقتبسة من قولي «كنّا نريد وطنًا نموت من أجله وصار لنا وطن نموت على يده».

هذا الرجل قرأني جيدًا، إلى حدّ أنّه يتحدّث معي وكأنّ صداقة ما تجمعنا.

وطبعًا هو قرأ «نسيان. كم» وخرج بقناعة أنه من «الرجال النسور»!

سألته اليوم:

– هل في السويد جالية عربيّة.. على الأقل كي لا تشعر بالوحدة هناك؟

أجاب:

– النسر سربٌ بمفرده.. وحدها الطيور الصغيرة تحتاج إلى رفقة!

كان عليّ أن أفهم أنّه يفضّل الوحدة، وأنّه من فصيلة الطيور التي لا تقتسم سماءها مع أحد.

في الواقع، ما كنت أريد أن أعرفه منه هو إن كان في حياته امرأة؟ أمّا تلك التي تركها خلفه، فمن الواضح من منشوراته أنّه لن يعود إليها:

«لا تعد إلى طبق قمت وتركته على مائدة، ولا تطرق بابًا سبق أن صفقته مُشهرًا اللاعودة».

أيّ رجل هذا؟ من أين له هذه اللغة؟ حتى إنّه بدا لي أفصح منّي، فهو يملك ثقافة الرجولة، بكلّ شهامتها، وعنف قراراتها، ونبل تصرّفها.

أدري أنّ لا شيء ممّا أكتبه لك يعنيك. أتصوّر أنّ أمرًا واحدًا يشغل بالك منذ البدء: «هل هو وسيم؟». ما كان هذا هاجسي وأنا أدخل صفحته وأتأمّل صوره القليلة. فما كنت أتوقع أن تتطوّر علاقتي به. ثمّ أنا لا أحبّ الرجل الوسيم، الجمال الذكوري له صيت سيّئ. فالرجل الوسيم غالبًا ما يكون كالمرأة الجميلة مغرورًا ولا هدف له إلّا استعراض غزواته، وإضافة اسم جديد إلى قائمة فتوحاته. الأكثر إغراءً أولئك الذين لا يدرون كم من الفتنة يبثّون حولهم، ووحدهنّ النساء ينبّهنهم لذلك، حين يقعن أسيرات سطوة رجولة مترفعة عن التشاوف. لعلّه أحدهم، لا لقطات استعراضيّة في وقفته، ولا في اختياره لثيابه، لا يبدو مأخوذًا بنفسه. هو يملك وسامة الرجل الخمسيني، بقامة طويلة وشعر تناثرت فيه بعض الشعيرات الفضّية.

طبعًا، الرجل في هذا العمر يكون غالبًا ماكرًا، وخبيرًا في فنّ الإغواء والتضليل، ترى فيه الصبايا أبًا، ويرى فيهنّ الفريسة.

لكن، هذا رجل لا يتحدّث في منشوراته سوى عن امرأة واحدة، هي نفسها، لذا يزيده الأمر جاذبية. إنّه يبدو كفارس أحلام صبايا القبيلة!

باختصار يا عزيزتي، لا أفهم كيف أنّ حمقاء ما أفلتت من يدها طائرًا نادرًا كهذا.. سحقًا للنساء ما أغباهنّ!

رسالة رقم 17

ثمّة خسارات كبيرة إلى حدّ لا خسارة بعدها تستحق الحزن

طلبت منه هذا المساء أن نتواصل بعد الآن بالهاتف، خاصّة أنّ حواراتنا أصبحت تطول يومًا بعد آخر. ولأنّني سأغلق بريد الصفحة الذي فاض بالرسائل. كان هذا نصف الحقيقة. أمّا النصف الآخر فهو أنّني أودّ سماع صوته. لا يمكن أن تدخلي إلى روح إنسان إلّا من صوته، ولا أن تقيسي صدقه إلّا من نبرته. أحتاج لملامسة روحه.

توقّعت أن يكون من يبادر بطلب ذلك، لكنّه على مدى أسبوع لم يفعل.

كتبت:

– سأعطيك رقم هاتفي لتتّصل بي، سيكون هذا أفضل.

أذهلني جوابه:

– رقمك معي، يكفي أن تأذني لي بمهاتفتك.

– كيف ذلك؟.. كيف حصلت عليه؟!

– إنّه معي منذ سنوات..

لعلّه حصل عليه من أحد الصحافيّين، غالبًا ما يتّصل بي أحدهم ويرفض بأدب أن يبوح باسم من أعطاه رقمي. ظننته سيطلبني حال إذني له بذلك، لكنّه كتب معتذرًا بأنّه متعب وسيتّصل بي في الغد. طبعًا من انتظر سنوات بإمكانه أن ينتظر ليلة... وحدي أصبحت فجأة على عجل!

لم يبقَ أمامي سوى أن أستعين عن غيابه بمطالعة منشوراته:

«أعطيتها بستانًا.. ومضت تبحث عن وردة».

«أردتك حبًّا لا يستطيع الدهر أن ينال منه، فكنت من نال مني».

«نقضي العمر في البحث عن مفاتيح ندخل بها إلى أناس لا أبواب لهم».

وكلها أقوال موقّعة بـ«رجل».

من أين له هذه الحكمة، وهذا الإيجاز في إيصال خيبته. أيّ «رجل» هذا وأيّ خطب حلّ به ليحمل هذا الكمّ من الألم؟

واصلت إلى ساعة متأخّرة من الليل قراءة كتاباته، وأوصلني الفضول إلى منشورات تعود إلى ما قبل عامين، من بينها جملة أذهلتني بقسوة وقعها العاطفي. إنّها مدمّرة، أرادها طلقة دون كاتم صوت. لا أدري على من أطلقها. كان الله في عون من أراد قتلها بها!

أعجبتني الجملة بقدر ما أخافتني، برغم أنّي لست معنيّة بها. سجّلتها على ورقة كي أتذكّرها، ربّما نجحت في استدراجه يومًا للإفصاح عن قصّتها.

ثمّ واصلت قراءة منشوراته القديمة. بعضها يلامس الوضع العربي بسخرية سوداء، كهذه:

«ما عادت الأشهر والسنوات هي الوحدة الزمنية المعتمدة اليوم لقياس الوقت لدى عاشقين، مذ غدا حجم الخراب الفاصل بين لقاءين، يعادل إنجاز بضعة قرون من الدمار».

«منذ متى افترقنا؟ تقول الأخبار منذ سبعة قرون، وبضع دقائق وكم مليون قتيل، وحفنة نازحين تناسلوا بالملايين وافترقوا على قارعة البحر أو البرد أو الجوع، وسيموتون لأسباب كثيرة ليس الحبّ من ضمنها. لذا أصبح ضربًا من العار الإنساني أن يحزن المرء لسبب عاطفي».

أو هذه:

«وقعت اليوم على تقرير نشرته "نيويورك تايمز"، باسم "منجزات الربيع العربي" الذي أزهر خرابه سنة 2011، العام الذي صادف فراقنا. لن تصدّقي كم من الأشياء حدثت مذ افترقنا، لكأنّنا لم نلتق منذ الحرب العالمية:

– التدمير الكامل والشامل لأربع دول عربية.

– 14 مليون لاجئ.

– 80 مليون نازح.

– 30 مليون عاطل عن العمل.

– 1.4 مليون قتيل وجريح.

– 900 مليار دولار دمار بنية تحتية.

– 640 مليار دولار سنويًا خسارة في الناتج المحلي للدول العربية.

– 300 مليار دولار كإنفاق لمحاولات إجهاض الثورات.

– 500 مليار دولار تكلفة اللاجئين.

– تريليون و200 مليار دولار تكلفة الفساد في الدول العربية.

– 14.5 مليون طفل لم يلتحقوا بالمدارس بسبب الحروب.

– 70 مليون عربي تحت خط الفقر.

أخطأت في تقدير فاجعة فراقنا، وحجم ما ألحقه بنا الفراق من دمار في سلّم الخسارات. فراق عاشقين ليس نهاية العالم كما

كنّا نعتقد، إنّه نهاية أوهامنا. أمّا العالم الذي كان، فهو ينتهي كلّ يوم بالتقسيط أمامنا، على يد الذين يعرفون الإحصائيات الدقيقة لخرابنا».

أو أيضًا:

«أحبّك بتوقي للراحلين الذين لن يعودوا. مثلهم ما عاد لك من عنوان ولا لهاتفك من رقم ولا لصوتك من حياة».

أنهكتني مطالعة هذا الرجل. كنت أريد إغلاق صفحتي لأتفرّغ للكتابة، وها قد أغلقتها لأتفرّغ لقراءة ما يكتب. يهزمني رجل لم تكسر الحياة إنسانيّته ولا مبادئه. ليلة كاملة في قراءته. أهي حماقة.. أم تورّط؟

رسالة رقم 18

للنسيان مفكّرة تذكّرك في كلّ تاريخ بما عليك نسيانه

هذا الصباح، خطفني جرس الهاتف من نوم عميق.

قال صوت رجالي ردًّا على صوتي الذي لم يكن قد استيقظ بعد:

– صباح الخير سيّدتي..

ثمّ واصل:

– أعتذر، توقعت أن تكوني مستيقظة، أهاتفك لاحقًا.

إنّه هو!

جلست في سريري لأستوعب المفاجأة. لن يتوقع أنّي نمت فجرًا بعد أن قضيت الليل في التجسّس عليه!

قلت مبرّرة تباطئي في الردّ:

– أهلًا.. تأخّرت البارحة في النوم، إنّي أكتب ليلًا، لذا كثيرًا ما أستيقظ متأخرة.

قال بتهكّم مستتر:

– ألم تعودي حارسة النسيان؟

قلت:

– النسيان يحرس نفسه بنفسه.

واصل بالتهكم نفسه:

– بل تحرسه الذاكرة...

لعلّه على حق، من سوى الذاكرة حارسٌ للنسيان!

أجبت هربًا من جدل صباحي لست مهيّأة له:

– ظننتك ستتّصل بي مساءً كعادتنا في التواصل.

– ارتأيت أن أهاتفك قبل ذهابي إلى العمل، الساعة هنا الثامنة صباحًا، أظنّها التاسعة حيث أنت. توقعت أن يسعدك أن تبدئي صباحك بتوقيت تلك الذكرى.

نظرت إلى المنبّه. كانت الساعة التاسعة!

أجبت متعجّبة:

– وهل أنت ذاكرتي؟

ردّ ضاحكًا:

– لا.. أنا نسيانك!

لدهشتي بقيت صامتة لحظات. كيف أواصل الحديث مع رجل ينازلني بكلماتي؟ ما معنى أن يكون هذا الرجل نسياني؟ كيف أردّ الكرة في جولة كرة مضرب صباحية وأنا لم أستيقظ تمامًا!

كنت أحتاج إلى عقلي لأستوعب، ولساني لأردّ، لكنّ قلبي وحده كان مستيقظًا يخفق بنبضات متسارعة.

قبل أن أعثر على جواب يجاري ذكاءه، قال وقد طال صمتي:

– طاب يومك سيّدتي. عودي للنوم. أعتذر، لن أهاتفك مجدّدًا في هذا التوقيت ما دمت تنامين متأخّرة.

ما ترك لي من فرصة لاستبقائه.. ولا من فرصة للعودة للنوم. بقيت في سريري بين الغفوة واليقظة أتساءل ما الذي يحدث لي. ليست الذكرى التي تهزمنا بل مواقيت النسيان. بأيّ نيّة اختار هذا الرجل توقيت هاتفه؟

شيء ما يحدث لا أدري ما هو، لكنّه يضعني في حالة عارمة من فوضى المشاعر. ثمّة بهجة ما أدخلها هذا الرجل إلى حياتي، لكنّها مرفقة بالحذر.

ما كتبت كتابًا إلّا تكاثر مجانين الحب، وتناسل أبطالي خارج الكتب. من الأعراض الجانبيّة للمطالعات الأدبيّة، أن يزايد القارئ على أبطال الروايات جنونًا، فيتماهى معهم حدّ التصرّف مثلهم، والتكلّم بلغتهم. فأين العجب أن يهاتفني هذا الرجل عند التاسعة صباحًا بتوقيت «هاتف النسيان» ويقول إنّه ذاكرتي.. أو نسياني!

تحضرني قصّة تعود لأكثر من عشر سنوات، حين اتّصلت بي صبيّة من سوريا تطلب منّي أن أقنع حبيبها الذي أصيب بورم خبيث بإجراء جراحة. كان الشابّ يرفض تمامًا فكرة العلاج، وانقطع عنها تمامًا حتى لا تعرف أخباره. قالت وهي تمدّني باكية برقم هاتفه: «لا يمكن لأحد سواك إقناعه بذلك فهو يحفظ كتبك ويتحدّث كأنّه واحد من أبطالك.. إنّه شابّ ثلاثيني رائع.. أرجوك أعيدي له حبّ الحياة».

هاتفت الشابّ الذي لم يصدّق أن أكون أنا، وحين تأكّد من ذلك أبدى تذمّرًا تجاه حبيبته لأنّه ما كان يريد أن أتعرّف إليه وهو في ذلك الوضع. ثمّ مكالمة بعد أخرى علمت أنّه برغم ثقافته وفصاحته كان يعمل سائق أجرة. أخبرني أنّه يتكلّم مع زبائنه بلغة أبطالي حتى إنّه قال مرّة لزبونة: «لا بدّ من أن تكون لك علاقة ثقة بالقدر.. أن تتركي له مقود سيّارتك.. دون أن تعطيه عنوانًا محدّدًا.. أو تعليمات

صارمة بما تحسبينه أقصر الطّرق.. وإلّا فستتسلّى الحياة بمعاكستك، وتتعطّل بك السيارة، وتقعين في زحمة سير.. وتصلين في أحسن الحالات متأخّرة عن أحلامك».

طبعًا لم تفهم المرأة شيئًا ممّا قاله لأنّها على الأرجح لم تقرأ «فوضى الحواسّ»!

لقد كان مكابرًا كخالد بن طوبال، ورفض رفضًا قاطعًا أن أتكفّل بعلاجه، أو أن أساعده ماديًا، ما زاد في إصراري على إنقاذه، لكن دون جدوى. كان له عنفوان أبطال الروايات، ذلك الذي لا يشبه الحياة. كلّما ناقشته أجابني بكبريائهم وبسخريتهم، كأولئك البسطاء الذين لا يملكون إلا كرامتهم، وبإمكانهم أن يلقّنوا كاتبًا درسًا في عزّة النفس، لأنّهم أصبحوا يشبهون أبطاله أكثر منه. بل أظنّه كان سيتقبّل مساعدة من أيّ أحد إلاّ أنا، فقد كان يرفض أن يصغر أمامي بالذات، وكأنّه أصبح أحد «أبطالي».

لا أدري كيف تذكّرت قصّة مازن. شابّ لا يشبه زمانه. تؤلمني ذكراه اليوم كأنّني خنته أو خذلته لأنّني أقنعته عبر كتاباتي بقيم تصنع شقاء صاحبها. ماذا تُرى قد حلّ به منذ ذلك الزمن؟ وهل غيّرت أهوال الحرب من قناعاته؟ ومن شاعريّة لغته، وممّا تعلّمه في كتب الأدب؟ هل أصبح مثل الملايين من الشباب العربي يلعن ويبكي ويستجدي فرصة الهروب؟ هل عايش أهوال الحروب جميعها وما زال على قيد الحياة؟ أم تراه غادر العالم باكرًا، مكابرًا، من دون أن يدري بما حصل؟

منذ «الربيع العربي»، وأنا في حداد على قارئ لا أعرفه ويعرفني. بسببه وبسبب قرّاء آمنوا يومًا بما كتبت، رفضت على مدى سنوات تكريمات تتخلّلها وصلات غنائيّة، وتتنافس فيها النجمات على استعراض أزيائهنّ، كي لا يفتح أحد قرّائي التلفزيون فيقع على

بثّ مباشر ينقل حضوري لحفل ابتهاجي، بينما ينتظر هو الموت على الطرف الآخر من الشاشة.

عندما يرفعك قارئ إلى مرتبة قريب، يغدو همّك ألّا تصغر في عين من غدوا أهلك ووثقوا يومًا بك.

رسالة رقم 19

أقسى التنكيل العاطفي، هو اغتيال أيّ احتمال للمصادفة

ليست المصادفات منصفة. أشياء كثيرة وُضعت في مكانها الخطأ في الحياة، لذا تمضي لغير الذي يتمنّاها، وتضرب الأقدار مواعيد لغير الذين انتظروها، ويسخى الزمن بالساعات على غريبَين، ويبخل بالدقائق على عاشقَين. ويهَب مسافرَين ضجرَين فائضًا من الثرثرة، ويحرم المتلهّفين إلى لقاء من كلمة لم يسعفهم الفراق في قولها، ويضع لساعات أحدهم في الطائرة بمحاذاتك، وفي متناول فضولك، بكلّ أشيائه وحركاته ومطالعاته، بينما يحجُب عنك طلّة الشخص الوحيد الذي لك فضول معرفة تفاصيله من بعدك، وماذا فعلت به السنون منذ ذلك الزمن الذي كنت تحفظ عن ظهر قلب تفاصيله.

المصادفات باهرة حدّ الإرباك أحيانًا، وظالمة غالبًا حدّ التجنّي. الدليل أنني قضيت أكثر من 4 ساعات في الطائرة جالسة إلى جوار رجل لا يعنيني ولا أعني له شيئًا، بينما قد تحلم امرأة أحبّته أن تهدي لها المصادفة ولو دقائق معه، يكون فيها مربوطًا جوارها إلى مقعد، لتقول له ما لم يترك لها فرصة قوله حين مضى.

هو نفسه تمنّى لو كنت هي. وأنا أيضًا تمنّيت لو لم يكن هو. لذا أخرجت جهاز الكمبيوتر ودفترًا عليه ملاحظات ورحت خلال الساعة التي سبقت الغداء أراجع بعض ما كتبت. أمّا هو فأخرج مجلّات وراح يطالعها. رجل أربعيني بمظهر رصين ومطالعات جادّة. أول ما قاله إنّه يتمنّى ألّا يتسبّب تأخّر طائرتنا عند الإقلاع بإخلافه طائرته إلى نيويورك. رويت له ضاحكة يوم تخلّفت عن رحلتي من نيويورك إلى باريس لجهلي اللغة الإنكليزية، وقضيت الليل جالسة على مقعد مواجه لبوّابة العبور حتى لا أتوه مجدّدًا وأخلف طائرة الصباح.

علّق ضاحكًا ومتعجّبًا من أمري:

– لا يمكن للمرء أن يستغني اليوم عن اللغة الإنكليزية خاصّة في أميركا.. لعلك كنت في زيارة عائلية. على اللبناني أن يتعلّم اليوم كلّ اللغات ليتمكّن من زيارة أقاربه في كلّ القارّات!

قلت:

– لست لبنانية.. كنت هناك من أجل محاضرة في جامعة «يال».

– أنت أستاذة؟

– لا، أنا روائيّة.

دبّ فيه اهتمام ما.. قال:

– أنا باحث أقيم في أميركا وانقطعت منذ زمن عن متابعة الإصدارات الروائية وعن المطالعات الأدبيّة.. ما موضوع رواياتك؟

– أكتب روايات تاريخيّة ببعد عاطفي.. في الواقع، مجالي المشاعر والنفس البشريّة.

ردّ بحماسة:

– أحبّ هذا النوع من الروايات.. هل لي أن أعرف اسمك ربّما عثرت لك على كتاب.

قلت:

– دعك من اسمي.. في السماء لا أسماء لنا!

كأنّني لفظت كلمة السرّ التي انفتحت بها روح الرجل واطمأنّ لها قلبه. لعلّه كان يحتاج إلى قسّ في هيئة كاتب، ليس من جنسه ولا جنسيّته، ليبوح له في السماء بما سكت عنه في الأرض. وهكذا قضيت ساعتين أستمع للبوح الطازج لرجل جاء إلى بيروت وغادرها متعمّدًا عدم اللقاء بامرأة أحبّها!

رسالة رقم 20

سِيّانِ عندي إن غدرتَ أو وفَيت
يكفيني يا سيّدَ الحرائق
أنّك خُنتَ اللهفة
وأطفأتَ جمرَ الدقائق

عندما قلت للمسافر الجالس في جواري في الطائرة، إنّنا في السماء بلا أسماء، وإنّه ليس مُهمًّا أن يعرف اسمي أو يقرأ كتبي، اطمأنّ لفسحة البوح في الجوّ لامرأة لا تعرفه ولا يعرفها، وراح يروي لي كيف غادر بيروت منتصرًا بعد أن أخذ عهدًا على نفسه ألّا يلتقي بالمرأة التي أحبّها، مُصرًّا في كلّ تنقّلاته على أن تدري أنّها لم تعد موجودة بالنسبة إليه.

قلت:

– كلّ هذا دليل حبّ لم يمت، لا دليل قوّة، ما دمت تشغل تفكيرك بها فقد هزمتك.

أجاب:

– بل ما دمت قضيت أسبوعين ولم أرها فقد هزمتها.

قلت:

– عليك أن تهزم فكرك وقلبك.. لا عينيك ونظرك!

– بل هزمت ذلك الإحساس القاهر الذي يجعلك تعيش بين خوف الهجر ورجاء الوصال، ويبقيك معلّقًا غير قادر على مقاومة شهوة اللقاء، ولا تملك شجاعة القطيعة، والذي لن تنجو منه ما لم تكسر قيدك وتقف مجدّدًا على رجليك.

– وهل أنت واقف حقًا على رجليك؟

– طبعًا، ما دام قلبي لم يعد يقود رجليّ!

– تكمن الكراهية في قاع الحبّ.. أنت لمست برجليك الكراهية، وهذا لا يعني أنّك شُفيت، بل إنّ مرضك غيّر اسمه.. أمّا الشفاء فهو في اللامبالاة.

– تدرين متى يبدأ شفاء الرجل من امرأة بالذات؟ عندما تُرفع غشاوة الحب عن عينيه، ويبدأ بالنظر إلى النساء الأخريات كاحتمال مشروع حبّ أو مغامرة ما.. فجأة يكتشف أنّ العالم مليء بالنساء. وهي مرحلة قد يأخذ بلوغها وقتًا، لأنّ حماقة الحبّ تجعله يتوهّم أنّه لا وجود لامرأة على وجه الأرض سوى تلك التي أحبّ.. إلى أن يستيقظ.

– تعني يستيقظ الرجل الخائن فيه الذي كان في غفوة ليس أكثر!

– في حياة كلّ رجل حبّ كبير أخلص له كثيرًا، ثمّ خانه الحبّ أو خانته الظروف، فتعلّم مع العمر الخيانة. ما من رجل إلّا كان وفيًّا يومًا ما، وما من رجل إلّا هزمته شهوته واستسلم لها يومًا، ومع الوقت لا يعود يشعر بالذنب، إنّه يخون بجسده لا بقلبه، فهكذا تكوينه.

– هذا الموضوع لا أريد البتّ فيه، التقيت برجال في سنّ النضج، يباهون بكونهم طبيعيّين أي خائنين، ولا يمكن أن يخلصوا

سوى لجسدهم، وعرفت شبابًا رائعين أحبّوا وأخلصوا بصدق وجنون، واستنجدوا بي لإنقاذ حبّهم، وما استطعت. أحدهم عاشق من زمن آخر، شابّ عاش قطيعة موجعة مع خطيبته، ورغم إقامته معظم الوقت في أميركا حيث كان يدير شركة، كان يتّصل بي ليحدّثني عن حبيبته المقيمة في الأردن. خطّط لمفاجآت كثيرة لإدهاشها، منها أنّه قصد مكّة لأداء العمرة بتوقيتها، ولعلمه بحبّها الكبير لي طلب منّي في عيد ميلادها أن أهاتفها عند منتصف الليل، وأن أطلب منها أن تخرج عند الباب، وأن أبقى على الخطّ لأنقل له ردّ فعلها أمام المفاجأة.

– وماذا كانت المفاجأة؟

– تصوّر... كان قد رفع مقابلًا لبيتها لافتة يتمنّى لها فيها عيد ميلاد سعيدًا، بينما انطلقت الأسهم الناريّة حال خروجها احتفالًا بعيدها..

– ثمّ؟

– ثمّ لم يُجدِ ذلك. كانت الفتاة سعيدة بسماعي ولكنّها لم تعد إليه. قلت له مواسية «لن يحبّها رجل كما فعلت وفي هذا عزاؤك.. لعلّ في الأمر خير أراده الله لك. ثق بأنّك ستحبّ سواها وتسعد» وهو ما حدث. لقد تعلّم من صدّها أن يفتح عينيه على غيرها.

قال مازحًا:

– إنّه تمامًا ما كنت أقوله لك.. لا تنسيك امرأة إلّا امرأة أخرى!

– هذا ينطبق على النساء أيضًا.. لا وصفة للنسيان إلّا هذه. عندما تكون مريضًا بحبك، كلّ شيء يذكّرك به. وعندما يدخل حياتك حبّ جديد، لا شيء من ماضيك يعود يعنيك. ما يعذّب المرأة ليس القطيعة، بل حالة الانتظار التي يبقيها فيها الرجل، لأنّه لا ينهي العلاقة بطريقة حاسمة تفهم منها المرأة أنّها النهاية فتبدأ حياة

– ذكّرتني بقصّة طريفة، أيّام الجامعة كان لي زميل أميركي، كنت أراه كلّ مرّة مع فتاة، ولم يكن حصوله على كلّ هذه الفتيات ما يحيّرني، بل كيف يستطيع إنهاء كلّ هذه العلاقات. حين سألته أجابني ضاحكًا: «دومًا تريد الفتاة أن تدفعك نحو علاقة جادّة. في لحظة إحباط، ما من فتاة إلّا تقول لك أنت لست جادًّا، لا أرى مستقبلًا لعلاقتنا، من الأفضل لنا أن نفترق، فأجيب حينها بكلمة واحدة «ok». غالبًا ما تندم الفتاة لأنّها كانت تتوقع منك مناقشتها في مآخذها عليك، لكن تُفاجأ بأنّ الأمر قد انتهى. أنا لم أقل شيئًا، فقط وافقت على كلامها، وبحرفين أعلنت النهاية».

قلت ضاحكة:

– صحيح «النساء عزّامات ندّامات» ما عزمن على أمر إلاّ غيّرن رأيهنّ وندمن، لكنّ صديقك هذا لئيم وبلا أخلاق، ولو فعل هذا اليوم لرفعن عليه جميعهنّ دعوى بالتحرّش، ولسقنه إلى المحاكم.

في هذه اللحظة أعلنت المضيفة بدء هبوط الطائرة في مطار لندن، فتوقّف حديثنا. أصلح كلّ منّا جلسته، وربط حزامه. قال لي بعد أن جمع أشياءه:

– كان الحديث معك ممتعًا.

أجبته:

– سعدت أيضًا بدردشتنا، بقي سؤال تمنّيت لو أجبتني عنه بصدق: هل كان سيسعدك لو وضعت المصادفة تلك المرأة مكاني في هذه الرحلة؟

فاجأه سؤالي. صمت بعض الشيء، ثمّ قال:

– ربّما..

لم أعلّق. أدري أنّ «ربّما» المكابرة هنا تعني «نعم».

هذا أقصى ما يمكن أن يبوح به رجل في لحظة ضعف، بعد أن تأكّد أنّ حديثنا ليس سوى حوار صريح في السماء بين اثنين بلا أسماء.

خطر ببالي طلال بطل «الأسود يليق بك». ماذا لو كان هو الجالس هنا إلى جواري على مدى أربع ساعات، بأناقته الفائقة، وكلماته المنتقاة، وطلّته المهيبة. حتمًا كنت أفضّله رفيقًا للسفر بدل هذا الشاب. هل أجمل من أن تضع المصادفة بطلي في الكرسيّ المجاور لي في طائرة؟ كنت سأشهق لرؤيته، وسأعترف له بصدق الارتباك الأول، بأنّني اشتقته وافتقدته، وكثيرًا ما تساءلت ما أخباره. سأسأله هل أحبّ امرأة بعد «هالة»، وهل كان سيفضّل لو أهدته المصادفة أن تكون هي الجالسة إلى جواره لا أنا. هل تمنّى والطائرة تحطّ الآن، لو وضع قبلة على يدها، وأبقاها طويلًا في يده كما كان يفعل، وقال لها ما احتفظ به عميقًا في نفسه عن كبرياء: «لم أتمنَّ امرأة كما تمنّيتك». كان بوحه سيهزمها، وربّما كانت ستقول له عكس ما قالته في آخر موعد في مطار فيينا عندما جمعتهما مصادفة كان قد خطّط لها.. كعادته، فعلّقت هالة بكبرياء كعادتها: «لا أظنّنا سنلتقي بعد اليوم، إلّا إذا استطعتَ أن تشتري لك مصادفة أخرى!».

وردّ يومها بما كان يدري أنّه الضربة القاضية: «سيكون ذلك صعبًا، لأنّنا لن نسلك البوّابة نفسها بعد اليوم.. سأتسلّم طائرتي الخاصّة نهاية هذا الشهر!».

وهو يشتري طائرته تلك، كان يغتال أيّ احتمال للمصادفة، فللثراء لعنة تلغي المصادفات. الأثرياء لا يخترق عزلتهم من يشاء، هم يختارون حتى من يصادفون!

في النهاية، ككلّ العشاق الذين باغتهم الفراق، ما كان هالة وطلال بحاجة إلى أربع ساعات من البوح، كانت تكفيهما الدقائق

التي تحطّ فيها الطائرة ليس أكثر، ليقولا وهما في السماء أكثر اعترافاتهما صدقًا، ويسرقا من المصادفة قبلتهما الأخيرة. فبمقياس اللهفة، «الدقيقة والدقيقة لدى عاشقين لا تساويان دقيقتين بل قبلتين»، يقول مالك حداد.

رسالة رقم 21

الرجل المنتعل نسيانه
نسي أن يربط حبل حذائه،
حتمًا سيتعثّر بالذكريات

ما إن حطّت الطائرة حتى مضى رفيق سفري مسرعًا نحو الباب، ملوّحًا لي بيده. قدماه تأخذانه إلى نيويورك، وقلبه يعود أدراجه مع الطائرة إلى بيروت.

في كلّ مطار ينتصر الفراق، وتنفرط مسبحة العشّاق.

لمحت على مقعده قسيمة تذكرته، وعليها اسمه الذي كان مطمئنًّا بأنّه أخفاه عنّي.

ضحكت.

«الحقيقة عابرة سبيل ولا شيء يمكن أن يعترض سبيلها». لو كنتُ أغاتا كريستي، لأخذت القسيمة وبنيت عليها رواية يوصلني فيها اسم جاري حتى تلك المرأة، ولسمعت منها النصف الآخر للقصّة، فلكلّ فراق روايتان، الفراق نصّ يكتبه اثنان. غير أنّ أمر الرجل الذي جلس إلى جواري على المقعد A7 لا يعنيني.

في زمن الأنترنت ما عادت الروايات تستدعي خيالًا كبيرًا. بإمكانك أن تعرف كلّ شيء عن أيّ أحد، حال معرفة اسمه. برغم ذلك يبقى أمر واحد يصعب عليك معرفته: كيف ترتّب مصادفة لقائه. ذلك أنّ المصادفة بالذات وحده الله يخطّط لتفاصيلها، لحكمة وحده يعرفها.

لأنّي لست أغاتا كريستي، ولا التحرّي هوايتي، تركت قسيمة تذكرته على المقعد. لا يعنيني اسم هذا الغريب. الغرباء تضعهم المصادفات في طريق الكُتّاب من أجل أن تهبهم فرصة كتابة نصوص جميلة ليس أكثر.

سنة 1943، كان الطيّار الأديب أنطوان دو سان إكزوبيري متنقّلًا في مهمّة من وهران إلى الجزائر حين وضعته المصادفة بجوار فتاة كانت تعمل مسعفة في الجيش الفرنسي. كان يكفي مشوار الطريق ليقع صاحب «الأمير الصغير» في حبّ هذه الغريبة، ويكتب لها إحدى عشرة رسالة تنضح بلهفته للقائها مُجدّدًا، مزيّنًا خطاباته لها ببصمته الشهيرة المتمثلة برسم «الأمير الصغير» آملًا نيل إعجابها. كانت رسائله على جماليّتها حزينة، فقد شعر الكاتب بأنّه حبّ من طرف واحد. لذا كتب لتلك الغريبة رسالته الثانية عشرة مودّعًا، ومعلنًا موت الأمير الصغير. لكأنّها نبوءة، فبعد أسابيع معدودة من هذا الخطاب الأخير اختفى الكاتب بطائرته إلى الأبد. لكنّ «الأمير الصغير» غدا بعد رحيل صاحبه الكِتاب الأشهر والأكثر انتشارًا في العالم.

لاحقًا، صدرت تلك الرسائل بعنوان «رسائل إلى الغريبة»، وهو ما يذكّرني بعنوان ديوان محمود درويش «سرير الغريبة»، ذلك أنّ أجمل المشاعر، وأكثر النصوص فرادة، يلهمنا إيّاها الغرباء الذين لا أمل من رؤيتهم مجدّدًا.

رسالة رقم 22

ثمّة دائمًا قارئ لم نحسب له حسابًا ينتهي كتابنا بين يديه

أكتب إليك من لندن. لم أته هذه المرة في المطار، فقد كان ابني غسّان في انتظاري. هو مَن يرافقني في معظم أسفاري، حتى إنّ إشاعةً اكتسحت مواقع الأنترنت، معلنة خبر زواجي بشابّ خليجي ملياردير أعيش في كنفه حياة باذخة، وللمزيد من الإشهار والتشهير أضيف للخبر أنّ غسّان هو زوجي الخامس!

للنوايا السيّئة خيال واسع. الخبر كان استنادًا إلى صورة لنا معًا في إيطاليا، في حديقة بيت جميل، أصبح فندقًا، وكان مقرّ إقامتي كضيفة لمهرجان شاكا السينمائي، وإذا به بيتي الزوجي الجديد!

كنت محتاجة منذ عصور إلى خبر يجعلني أضحك، حاجة نزار في الماضي إلى امرأة تجعله يبكي، إلى أن أهدى إليّ المعنيّون جدًا بشأني ما جعلني أقهقه، وأتقاسم مع زوجي (الأول والأوحد) الذي يملك روحًا ساخرة، كثيرًا من الضحكات، ذلك أنّي ما زلت أتقبّل على

حساباتي تهاني البعض بحياتي الزوجية الجديدة، وهجوم البعض الآخر للسبب نفسه.

إن كان البعض قد صدّق بسبب صورة ذلك الخبر الغريب، الذي ما برح بين فترة وأخرى يعاود الانتشار كالنار في الهشيم، فكم من القصص ستُنسب لي يومًا، في زمن يمكن فيه تكنولوجيًّا لأيّ أحد أن يركّب ما شاء من الصور ويدّعي ما يحلو له من القصص، غير مدركٍ أنّ الحقيقة أثمن من أن يشهرها العشّاق؟ فالذين نحبّهم نتحاشى أن نلتقط صورًا معهم، فنحن نتكتّم على من يقيمون في القلب، ونُشهر صور من يعبرون في عدسة التصوير.. وما أكثرهم بالنسبة لكاتب!

ما يضحكني، هو أنّني كثيرًا ما تسبّبتُ لغسّان بمواقف محرجة، أحدها قبل عقدين من الزمن، يوم كان طالبًا في ثانويّة الجمهور ببيروت. كان معفى من امتحانات اللغة العربيّة، لكونه قادمًا لتوّه من فرنسا، ومستواه في اللغة العربيّة أدنى من المستوى التعليمي لصفّه. لكنّه فوجئ يومًا بالأستاذ يعتمد «ذاكرة الجسد» للتدريس ويُعلن للطلبة أنّه سيكون عليهم الإجابة خطيًّا عن بعض الأسئلة على الرواية، وأنّ النقاط ستضاف لعلاماتهم في الامتحان. وأمام ذعر زميله لحجم الكتاب ولغته، باح له غسان بالسرّ الذي احتفظ به دائمًا، ووعده بأن يأتيه بالأجوبة جاهزة.. لأنّ الكاتبة ليست سوى أمّه!

جاءني غسّان يومها حاملًا ورقة عليها مجموعة أسئلة راجيًا أن أجيب عنها لأساعد صديقه في الامتحان. أذكر أنّني رحت لساعة أو أكثر أجتهد في الإجابة، رأفةً بالفتى وإرضاءً لابني. لكنّ غسّان الذي شكرني وطار سعيدًا ليزفّ الأجوبة لصديقه، عاد بعد أيّام متذمّرًا: «ماما لماذا فعلت بي هذا؟ الأجوبة غير صحيحة، لقد كتب الأستاذ على ورقة صديقي: أنت لم تفهم القصّة، وهو الآن غاضب منّي، يعتقد أنّني كذبت عليه وأنّ الكاتبة ليست أمّي!».

لم أدرِ هل عليّ أن أقنع غسّان بأنّني اجتهدت ما استطعت لإنجاح صديقه؟ أم أن أثبت لصديقه بأنّي من كتب الكتاب؟ أم أقصد الأستاذ وأعترف له بأنّني من كتب الاثنين: الكِتاب والفرض!

بعد عقدٍ من الزمن، واجه غسّان قصّة أخرى. فقد طلبت منه صديقته الأجنبيّة نسخة من كتابي «نسيان. كم» وما استطاع أن يرفض، فقد كان في مكتبته عدّة نسخ أرسلتها دار النشر إلى عنوانه في لندن، عند صدورها مترجمة للإنكليزية بعنوان «The Art of Forgetting». ولعلمه بمحتوى الكتاب، تحاشى أن يخبرها بأنّ الكاتبة ومن وضعت الشعار الموجود على ظهر الكتاب «أحبّيه كما لم تحبّ امرأة وانسيه كما ينسى الرجال».. هي أمّه.

غير أنّ الفتاة ما كادت تنهي قراءة تعليماتي ووصفاتي لنسيان رجل، حتى راحت تبحث عن مؤلّفة الكتاب في الأنترنت، فعثرت على صوري مع غسّان، فهاتفته عاتبة ومتعجّبة «لماذا لم تخبرني بأنّ الكاتبة أمّك!».

غسّان الذي اعتاد أن يكون هو من يُنهي أيّ علاقة، تاركًا خلفه فتاة تتعذّب، كانت الصديقة هي من تخلّت عنه هذه المرّة. قال لي ضاحكًا: «لقد أخفيتُ كتابك من مكتبتي، تصوّري بعد فترة وجيزة من قراءة صديقتي لكتابك افترقنا. أنهت العلاقة بكلمة واحدة: أمّك على حق!».

شاركته الضحك، لكنّي تأمّلت بعد ذلك في قدر ما يكتبه الكاتب دون أن يتساءل في يد من ستنتهي كتاباته.

كيف لكاتب أن يعرف لمن يكتب؟ وحده القارئ يملك ترف معرفة لمن يقرأ. لذا طالب مالك حداد في إحدى رواياته بحقّه في اختيار قرّائه، وتجريد سيّدة فرنسيّة من نسخة من كتابه كانت في حوزتها.

رسالة رقم 23

لا جدوى من النظر من عين الباب، متنكّرًا يطرق القدر بابك

كيف تدري من هذا الذي يدقّ؟ يد من هذه التي تطرق بابك، بإلحاح أو على استحياء، أو لمجرّد رؤيتك عند عتبة الباب باحثًا عن أحد؟

أهو الطارق المنتظر؟ أزائر، أم عابر؟ أم هي يد القدر جاءت لتخلع بابك؟

قبل أن تفتح للحبّ، تذكّر أنّ هذا الزائر المباغت سيباغتك أيضًا في توقيت رحيله، وأنّ الحبّ يأتي ليمضي. فالعواطف الجميلة عابرة سبيل. والذي يطبطب على قلبك، قد يطبطب لاحقًا على كتفك إيذانًا بالرحيل.

فالذين صغارًا كانوا يدقّون بابنا ويلوذون بالفرار، سيواصلون وهم كبارًا الطرق على قلوبنا واللوذ بالهرب.

أحتاج اليوم إلى أن أستعين بـ«كامي» لترى بفطرتها ما لا أراه بعينيّ، أن أستدلّ بغريزتها في استشعار أيّ خطر محتمل. فالخوف الفطري للقطط يجعلها دومًا في حالة تأهّب وحذر، لذا تتقن التصرّف

المناسب. من أين لي بهذا الحدس؟ هي الآن متكوّرة على نفسها، هانئة في غفوتها، ليست معنيّة بتوتّري، الذي ليس له في الواقع من سبب. بإمكانك أن تمارس حياتك. أن تعمل، أن تمزح، أن تتحدّث في كلّ المواضيع، بينما أنت مسكونٌ بألم لا تعرف موضعه ولا سببه.

أشياء كثيرة تؤلمني، بعضها لا علاقة له بي، لكنّ مآسيها تفسد طمأنينتي، إذ تلقي بحجارتها في بحيرة مباهجي. أعرف مصدرها، لذا قاطعت نشرات الأخبار العربيّة، برغم ذلك لست على ما يُرام، ما عرفت سعادة مذ بدأ هذا الدم يتدفق على شاشتي.

طبعًا، لو تحدّثت لذلك الرجل لتحسّن مزاجي. لكنّ كبريائي تأبى أن أبادر بالاتّصال به، فأنا لم أفهم حتى الآن لماذا أصرّ في البداية على التواصل معي، ولا أين يختفي. هو يتقن لعبة التجلي والاختفاء منذ أيّام لم ينشر أيّ شيء على صفحته في الفايسبوك لأستدلّ على أخباره. ما يطمئنني ويقلقني في آن واحد، وجوده على الواتساب. لم أجد حلًّا، سوى في شغل الواتساب بدوري مساءً، لإشعاره بأنّي مشغولة أيضًا.

كما في الحرب، التضليل الإخباري وإيصال أخبار كاذبة للطرف الآخر قد يكون مجديًا في معارك العشّاق وخلافاتهم. تذكرين كم من إشاعات سعادة كاذبة نشرتِ في الماضي، على الإنستغرام، لتشعلي نار غيرة حبيبك ذاك؟ لفرط إتقانك السعادة الإشهاريّة، انطلت حتى على كذبة دخول حبّ جديد إلى حياتك. كنت أهاتفك لأقول لك كم أنت جميلة في تلك الصور، وكم أنا سعيدة من أجلك، فتجيبين «لا تصدّقي الصور.. عندما أنشر صورًا تشي بالبهجة اعلمي أنّني في قمّة تعاستي، لا أريده أن يشمت بي، أعرف أنّه يتجسّس عليّ، وسأقتله غيرة».

أتكونين بتلك اللعبة الحمقاء قتلت حبّكما؟

إنّه سؤال خطر ببالي للتوّ!

سحقًا للغيرة... لكأنّها توأم الحبّ، إنّها تولد معه، لكنّها تموت طويلًا بعده. أيُعقل أن أغار على رجل لا أعرفه وأتساءل وأنا أراه على الواتساب من تراه يحادث مساءً؟

لا أظنّه عاد إلى حبيبته السابقة. سألته مرّة:

– هل صالحتها؟

فأجاب بعد شيء من الصمت:

– لا.. لكن غفرت لها.

علّقت بفرحة كاذبة:

– الحبّ الكبير يغفر دائمًا.

فأجاب:

– الحبّ الكبير لا يغفر. الغفران ليس دليلًا على الحبّ، بل دليل على موته. إنّه موت الغيرة.. موت اللهفة.. موت الاهتمام، فهو أحد أوجه اللامبالاة. عندما يقول أحدهم إنّه غفر، اعلمي أنّه شُفي وأنْ في حياته حبًّا جديدًا.

ما رأيك؟ أكان يعني دخولي أنا إلى حياته.. أم دخول امرأة أخرى؟

رسالة رقم 24

في القراءة كما في الحبّ، إن لم تكن على لهفة
اقلب الصفحة وأغلق الكتاب

أتوقع أن تعجبي لأمري وتسخري من اهتمامي بهذا الرجل.

إن كانت الأبحاث في علم النفس تفيد بأنّ قرّاء الأدب هم أكثر الناس عرضة للوقوع في الحبّ... فماذا عن الأدباء إذن!

في روايتي «فوضى الحواس»، يصف الكاتب شخصيّات خلقها على قياس قناعاته، ووضع على لسانها كلماته، وجعلها تتصرّف بحسب أمنياته، وبعد أن صقلها حدّ الكمال، وقع في حبّها وتمنى لو بُعثت فيها الحياة، فيصادفها في قاعة سينما، أو في مقهى، ليقول لها تحت وقع المفاجأة: «كم اشتقتك».

في أسطورة بيغماليون، برع الفنّان في نحت تماثيل من العاج والحجر، فبدت مخلوقات حيّة من لحم ودم. وذات مرّة نحت تمثالًا لامرأة فائقة الحسن ظلّ يجمّلها يومًا بعد يوم، حتى وقع في حبّها وما عاد يتحمّل فراقها. العجيب أنّه كان معروفًا بشدّة كرهه للنساء،

وبرفضه فكرة الزواج، لأنّه يرى أنّ النساء هنّ سبب كلّ ما يحلّ بالرجال وبالعالم من مصائب.

انتهى به الأمر أن شقي بما أبدعت يداه، وراح يزداد تعلّقًا بتمثاله، حتى غدا ضحيّة تحفة هو من خلقها، ولا أمنية له إلّا أن تُبعث فيها الحياة، إلى أن أشفقت عليه فينوس إلهة الحبّ لفرط تضرّعاته، فبعثت الحياة في تمثاله، وحوّلته إلى امرأة حقيقيّة.

الأسطورة تنتهي بزواج بيغماليون بـ«أنثاه التمثال» الفائقة الجمال والكمال والتي رُزق منها صبيًّا في ما بعد، لكنّها تخفي عنّا احتمال أن يكون كسر إزميله بعد أن أصبح حلمه واقعًا. فالفنّ ابن المسافة والحرمان، وابن المستحيل والخيال، لذا يغتاله الواقع.

لأمين نخلة قول جميل في تعريف الفنّ: «وُلد الفنّ يوم قالت حوّاء لآدم ما أجمل هذه التفاحة». فالفنّ هو المسافة التي تفصلك عن شجرة التفّاح، وانبهارك الأول وأنت تتساءل أيّ فاكهة هذه؟ تساؤلاتك.. فضولك... مخاوفك.. هوسك، هو ما يفجّر ينابيع الإبداع. أمّا أكل التفّاحة فهو نهاية الترقب الجميل.

قبل بضع سنوات، دعاني شاعر سعودي كبير هو وزوجته الجميلة للعشاء في بيروت، واستنجدت بي زوجته بخفّة دمها لأقنعه بالعودة إلى كتابة قصائد جميلة في الحبّ، كتلك الخالدة التي نظمها فيها قبل الزواج، ويحفظها ويغنّيها الملايين. بدل أن أقنعه، توجّهت إليها مازحة بأن تختلق خلافًا معه وتذهب إلى بيت أهلها ولو «ليلة»، لتمنح الشعر مسافة الاشتياق والاشتعال، فيهدي لنا قصائد رائعة أخرى، وكان في ضحكته ما يشي بورطته الشعريّة.

أسطورة بيغماليون دليل آخر على أنّ الحبّ يغيّر قناعاتنا. فما كان بيغماليون يرفضه بشدّة، غدا يريده، وهو عاشق، بهوس وإصرار. الأسطورة تؤكّد أيضًا أنّ ما من فنّ إلّا ويستدرج صاحبه إلى حيث

لا يتوقع، فلا يعود يميّز بين الواقع والخيال.. والدليل على ذلك، كلّ قصص الحبّ التي وُلدت على بلاتوهات السينما بين ممثلين كانا يمثّلان دور عاشقين في فيلم، وإذا بالمشهد يمتدّ إلى الحياة بعد أن أخذا السينما مأخذ الحياة، ثمّ بعد ارتباطهما أخذا الحياة مأخذ السينما.

ونحن نمثّل الحبّ ونكتب عنه نقع في حبّ الحبّ، لأنّ الفنّ يجمّله ولأنّنا نرتقي حين نكتبه، ولا ندري بعدها كيف نتبيّن موطئ قدمنا بين الواقع والخيال. فالحبّ يولد في خيالنا قبل قلبنا.

كنت أحتاج إلى هذه المقدّمة عساك تتفهّميننني ولا تصيحين بي: «لقد جننتِ!» إن بُحت لك بسرّ صغير: «لعلّي وقعت حقًا في حبّ ذلك الرجل!».

لقد أصبحت أتردّد كلّ حين على صفحته، أتجسّس على أخباره، أقتفي أثره، أحوم حول كلماته، أعيد قراءة نصوصه، أفتقد صوته، أفكّر به.

حدث ما كنت أخشاه وأتحاشاه... كيف لي الآن أن أكتب عن الفراق وأنا مقبلة على الحبّ؟ لقد أفسد عليّ هذا الرجل مشروع كتابي، وأصبحت أقضي الوقت في تفقّد هاتفي!

رسالة رقم 25

استغرَقَني حُبُّك
أنساني أن أكتُبَك
وأَنا أُريدُكَ مُلهِمي ومُلتهِمي
رجُلي حينًا.. وحينًا قَلَمي
فارفُقْني قليلًا
أحتاجُ أن أحبَّك.. ككاتبة

ثمّة خيار حاسم يواجه كلّ مبدع: عليه أن يختار بين الإبداع والحبّ.
حدث ذات مرّة أن قال لي نزار وأنا أحدّثه عن هواجس الكتابة:
– أحبّك لأنّك تشبهينني، لو خُيّرتِ بين الكتابة والحبّ لاخترت الكتابة.
أجبته مصحّحة:
– بل سأختار الحبّ، فأنا أنحاز للحياة.
علّق بخيبة ما:
– لن تكوني كاتبة حتى تختاري الكتابة!

بعد ذلك بسنوات أدركت أنّه قدّم لي أغلى نصائحه، وأنّه قال لي عنه الكثير في جملة واحدة. كتب نزار خمسين كتابًا لأنّه لم يحبّ إلّا الشعر. لقد كانت القصيدة هي الأنثى الوحيدة التي تخلّى من أجلها عن كلّ شيء، حتى عن المرأة نفسها التي يقال إنّه شاعرها. أمّا النكتة، فهي وصفه بزير النساء، لأنّه لو كان أحبّ من النساء بعدد ما كتب من قصائد عنهنّ، لما ظلّت في العالم العربي امرأة إلّا ادّعت أنّها ملهمته، بينما لم يُعرف عنه في شبابه إلّا قصّته مع كاتبة سوريّة شهيرة أشيع أنّه بطل روايتها.

في الواقع عرفت نزار خجولًا، وأكثر جرأة في قصائده منه في الحياة. كان موضوع النساء في أشعاره قضيّة إبداعيّة واجتماعيّة، من باب التمرّد والعصيان الشعري، وتحديث اللغة، لكنّه كان في الحياة رجلًا يحبّ بحسّه الإبداعي والقومي، لذا كانت زوجته بلقيس العراقيّة حبّه الكبير لما يرمز له العراق من أصالة وعمق عربي. فكأنّه بزواجه بها عقد قرانه على التاريخ، ولعلّ اهتمامه بي كان يعود أولًا لحبّه كما كلّ العرب آنذاك للجزائر، ولحاجته لامرأة ترمز لأكبر ثورة عربيّة، وتطابق هواجسه السياسيّة والعاطفيّة، امرأة يمكنه أن يكون معها شاعرًا.. لا غير.

تعلّمت من نزار أنّ الحبّ يستنفد الطاقة الإبداعيّة، وأنّه مؤامرة ضدّ الإبداع، يجرّدك من وقتك فلا تعود مهنتك الكتابة.. بل القلق والانتظار.

يا للحماقة.. كيف نسيت الدرس!

***

«ولست أحبّكِ
كي تتكاثر ذرّيتي
ولكن أحبّك
كي تتكاثر ذرّية الكلمات».

(نزار قباني)

الرسالة الأخيرة

الحياة أقصر من أن تهدرها في إثبات حسن نواياك للآخرين،
فهم في النهاية لن يحكموا عليك إلّا بحسب نواياهم

عزيزتي، هذه آخر رسالة أكتبها لك. وفي النهاية لا يهمّ ما دمت لا تدرين بذلك، ولن تقرئي شيئًا ممّا كتبت. لا أريد أن تستدرجني هذه الرسائل لمزيد من الاعترافات.

بالمناسبة، دعيني أبُحْ لك بأنّني حدث أن ندمت لأنّني كتبت يومًا «نسيان. كم» لإنقاذك. تصوّري، بسبب هذا الكتاب، ستظلّ شبهة الانحياز للنساء تطاردني. ولن تشفع لي الروايات الثلاث التي كتبتها تمجيدًا في الرجولة، فلو أنّي لم أوقّع «ذاكرة الجسد» أو «عابر سرير» لكان يمكن أن تُنسب لرجل. كثيرًا ما سئلت كيف استطعت أن أتوغّل في العالم السريّ للرجال، إلى حدّ أذهل الرجال أنفسهم، بما في ذلك نور الشريف رحمه الله الذي كان سيؤدّي يومًا دور خالد.

في الواقع، على عكس ما قد تعتقدين، أنا من الكاتبات القلائل اللواتي ليس لهنّ أيّ تصفية حساب مع الرجال، بل إنّ الحياة أهدت لي أروعهم. فأنا محظوظة بقبيلة رجالي، بدءًا من أبي، وخالي، إخوتي

وزوجي، أبنائي، وأحفادي، ولعلّ هذا السقف العالي للرجولة هو ما جعلني فائقة الحساسية تجاه نقصان منسوبها لدى البعض.

لذا أهديت «نسيان. كم» إلى «الرجال الرجال الذين بمجيئهم تتغيّر الأقدار». من وجد من الرجال في نفسه تلك الصفات احتفى بالكتاب، أمّا الذكور فوجدوا الذريعة المناسبة لجعلي مسؤولة عن ثلاثين مليون عانس في العالم العربي (فقط... لا غير!) أي إنّ ثلاثين مليون فتاة (تقرأني!) قد تقدّم لهنّ شباب مكتملو الأخلاق والصفات، لكنهنّ رفضنهم لوجه الأدب، وفضّلن أن يدركهنّ الشيب وهنّ دون زواج، لأنّني أوعزت لهنّ ذلك في كتاب!

لا بدّ إذن من أن نعثر على اسم الكاتب المسؤول عن عزوف الشباب عن الزواج، حتى أمست أعدادهم تتجاوز أضعاف الفتيات العازبات، والذي لموهبته، استطاع إقناع ملايين الشباب العربي بالعزوبية، لا بسبب مآسي الحروب، والبطالة، وغلاء المهور، والخوف من تحمّل المسؤولية، وتوفر كلّ أنواع العلاقات خارج الزواج، وعدم الثقة بالبنات اللواتي ازددن دلالًا ومتطلّبات، بل لأنّهم بعدما قرأوا له كتابًا عن الإناث، أقسموا بأغلظ الأيمان أن يعيشوا ويموتوا عزّابًا في بيوت أهليهم!

لا تهتمّي بهذه الترّهات.

الأمر يضحكني ليس أكثر، فكلّ افتراء يشبه صاحبه. الحقيقة أنّ كلّ ما هو جميل وصادق يؤذينا، لذا غدا التشويه والتخوين والتكفير سمة زماننا العربي.

الجزء الرابع

الغربة تأخذ منك ما جئت تطلب منها

كنت قد قرّرت الشروع في الكتابة، عندما التقيت بصديق جزائري عزيز سألني ماذا أكتب هذه الأيّام؟ قلت له إنّني أكتب كتابًا عن الفراق، وإنّني تأخّرت في إنجازه لأنّني لا أريده مجرّد كتاب عاطفي. فأنا شاهدة على مآسٍ إنسانيّة لا تُحصى، وحدث كثيرًا أن ودّع أحد متابعيَّ على الفايسبوك، وجلّهم من النازحين واللاجئين، أصدقاءه عندي على الصفحة، طالبًا أن ندعو له بالنجاة، لأنّه سيركب البحر في الغد نحو المجهول. كنت أكاتبه على الخاصّ وأستجديه عدم السفر، لكنّ الوقت يكون قد تأخر، وهو قد باع ما يملك ليشتري مقعدًا في قارب الموت، وليس عندي من طوق نجاة أقدّمه له تعويضًا عن بلد قد يمنحه مأوى. فأكتفي بتقصّي أخباره التي غالبًا ما تنقطع نهائيًّا بعد ذلك. لا يمكن لمن لم يعش الفراق أن يتصوّر كيف يباغت المرء وينقضّ عليه، ويأخذه حيث نجاته أو حتفه، تاركًا خلفه كلّ ما كان يومًا حياته.

ما توقّعت أن توقظ كلماتي كابوسًا لم يستيقظ صديقي الإعلامي الكبير منه منذ عشرين سنة، يوم غادر الجزائر إلى لندن بعد تعرّضه لمحاولتَي اغتيال في تسعينيات القرن الماضي، في تلك

العشريّة الدمويّة التي عاشتها الجزائر وقتل فيها الإرهابيّون على مدى عشر سنوات، في مذابح شنيعة، ما يقارب مئتي ألف جزائري، من بينهم سبعون كاتبًا ومثقفًا من خيرة رجالاتنا، ما دفع بعشرات المثقفين والإعلاميّين إلى الهجرة نحو أوروبا أو الخليج.

ذلك الصديق الأبيّ، فوجئت به ينهار ويبوح لي بعينين دامعتين أنّه منذ عشرين سنة إلى اليوم ما خلد إلى النوم إلّا وجد وجه قاتله قد سبقه إلى الوسادة، وأنّه لسنوات ظلّ يتناول حبوبًا تساعده على النوم، فهو ما زال يتذكّر كلّ تفاصيل ما عاشه، ولحظة مغادرته الجزائر، وذلك الفراق الذي انقضّ عليه، وسلّمه لغربة واصلت التنكيل به.

كسدّ فتح صمامه، تدفّق وجعه على مسامعي:

– ما من مفارق، إلّا انحفر في ذاكرته إلى الأبد يوم الفراق الكبير، يوم خروجه إلى المجهول. كان لنا في الماضي ترف اختيار أن نفارق. اليوم غدا الفراق قسريًّا عنيفًا مباغتًا، يقع عليك كصاعقة، ويحوّلك إلى كائن غريب عن نفسه، وغريب عن الآخرين.. الفراق يوحي بأنّه فعل إرادي، لكنّه قرار يمليه عليك إنسان، قدر ظالم يجعل منك أداة طيّعة في يد الفراق. فراق نعتقد أنّه هروبنا إلى الحياة، وإذا به بوّابة مفتوحة على الشبهات. من يفارق ما عادت له قضيّة، غير الفرار بنفسه من أتون الحرب. لكنّه سيجد نفسه قد تحوّل لدى الآخرين إلى قضايا، منهم من يتاجر بها، ومن يبتزه بها، ومن يلعنه بها. ولا خيار له وسط المطحنة التي تسحقه، إلّا أن يتقبّل صفة المتّهم.

عليك أن تبرّر للذين تركتهم يتقاتلون لمَ أنت مغادر، وللذين تقصدهم لمَ أتيت...

عليك، إن قُدّر لك أن تحصل على تأشيرة وتمكنت من قطع الحدود إلى الضفة الأخرى، أن تباشر حياة ثانية، تبدأها بطلب اللجوء

السياسي. تريد أن تكون نزيهًا. تقول كيف أغدو لاجئًا سياسيًّا وأنا لم أمارس السياسة في حياتي، لكنّك تجد جحافل من البشر من كلّ الجنسيّات، قد سبقوك إلى تبنّي هذه الصفة، فتدرك أنّ حياتك الجديدة لا بدّ من أن تبدأ بكذبة. الغربة تعلّمك الكذب، إنّها الحقيقة الأولى التي عليك التأقلم معها. وسيكون اكتشافك الثاني، أنّه ليس من حقك أن تختار قضيّتك. فأنت في غربتك غدوت قضيّة لأناس لا تعرفهم، بعضهم كلّما «شيطنوك» صبّ دمك في صناديق اقتراعهم، وآخرون ديانتهم الإنسانيّة سيستميتون في الدفاع عن حقك الإنساني في اللجوء إليهم مهما كان عرقك ومعتقداتك، لولا أنّ أحدهم، سيفاجئك بقتل أناس آمنين باسمك، وتفجير نفسه باسم إلهك وسط بشر لم يؤذوه، فيحبط دفاع الشرفاء عنك.. ويعيدك مجدّدًا إلى خانة الشبهات.

الغربة تمنح الآخرين حق تصنيفك. أنت كائن مختبريّ، تعيش تحت مجهر الشكوك، ربّما كنت مشروع انتحاريّ، ربما كنت عميلًا دُسّ بك بين الجموع لتتجسّس لحساب دولتك على معارضيها!

قاطعته مندهشة:

– أعايشت كلّ هذا؟

– طبعًا عرفته وعايشته. في الحروب، المفارق يغادر وهو يجرّ جثته، لكنّ الوطن يصنّفه من الأحياء، أو من الخونة المغادرين، وقد يحسبه على تيّار لا يعرفه، ولن يستطيع نفي الشبهة عنه فهو لا يعرف من هذا الذي يصنّفه. كنت حسب المثل الجزائري كالهارب من الموت فوقع في قبّاض الأرواح. لم أكن مهاجرًا، كنت «مهاربًا».

كلّ مهاجر «مهارب». كلمة جديدة خطرت ببالي، فما عادت الهجرة كلمة مناسبة لهذا الزمن. كانت تُطلق في القرن الماضي على أناس يغادرون قانونيًّا نحو بلاد أخرى للعمل. اليوم، الناس يُهرّبون في

مراكب الموت، وفي الشاحنات، ويقطعون الحدود بين البلدان مشيًا على مدى أيّام، ويُشتمون ويُهانون بلغات لا يعرفونها، يقضون أيّامًا محجوزين على حدود أوطان ما كانوا يعرفون مكانها على الخريطة، ولا سمعوا بها.

– ألم تشعر بالحنين إلى الجزائر وأنت تغادر؟

– أتعنين الجزائر التي في قلبي أم تلك التي كانت تسكن ذاكرتي بأشباحها وجثثها؟ تفارق من؟ تفارق ماذا؟ تفارق لماذا؟ وكثيرك يبقى مع كثير ممّا فارقت. فكثيرك لا يمكنك تهريبه ولا التنازل عنه. وذاك هو الوطن. لكن عليكِ ألّا تسارعي بالالتفات لتتأكّدي من أنّكِ تركت الكوابيس خلفك. فما تركته حبلًا قد يلتفّ في ومضة حول عنقك، ويعيدك إلى مربّعك الأول.

عندما عدت لأوّل مرّة بعد عشر سنوات طلبت من صديق مشترك تعرفينه أن ينتظرني في المطار، وإضافة إلى كونه صديقًا فهو طبيب. كنت أحتاج إليه سندًا لمواجهة كوابيسي.

قلت:

– الكوابيس التي نهرب منها ليلًا تضعها الحياة أمامنا في النهار. عندما تحوّل كوابيسك إلى هواجس، أنت تدعوها للحضور. وإذا بالماضي الذي تهرب منه وتقطع القارّات لتتخلّص من ذكراه، يقف بجوارك، ينتظر دوره في الطابور نفسه، كما حدث مع تلك الصبيّة الأزيديّة التي نجحت بعد عناء كبير في الهروب إلى ألمانيا من جحيم داعش، ولهول ما عاشته من مآسٍ مروّعة، كانت تتابع جلسات علاج نفسي، وإذا بنظرها يقع على وجه لم تفارقها تفاصيله، إنّه وجه الوحش البشري الذي عذبها واغتصبها مرارًا، واقفًا في الطابور نفسه، ليملأ استمارة طلب اللجوء! تصوّر! أصيبت البنت بحالة هستيريا وراحت تصرخ كما يوم كانت تحت رحمته. القصّة

تناقلتها الصحف الألمانية، متسائلة «هل نحن نفتح أبوابنا للضحايا أم ترانا منهمكين في مكافأة القتلة؟».

قال الصديق:

– سأروي لك قصّة لن أنساها ما حييت، لسيّدة كولومبيّة التقيت بها في الفترة الأولى لوصولي إلى لندن في التسعينيات، وكانت في أوج ذعرها، بعد أن لجأت إلى بريطانيا هربًا من عصابة مخدّرات خطيرة ابتزتها وهدّدتها بالقتل. لخمس عشرة سنة ما استطاعت تلك السيدة أن ترى أولادها، ولا أن تتّصل بهم. فلكي تحمي حياتها وتنقذ أولادها من الخطف، أشاعت خبر موتها حتى لدى أهلها. وحين طلبت اللجوء إلى بريطانيا ظلّت مصدر شبهة ومراقبة لسنوات، لاعتقاد السلطات البريطانيّة أنها هي من ترأس عصابة المخدّرات. فهل من عذاب أكبر من أن يغدو الضحيّة هو المتّهم، ولا أحد يمكنه فهم حقيقة مأساته، وأن لا يكون له من وسيلة لإنقاذ حياة أبنائه، إلّا بمفارقتهم، وإقناعهم بموته؟

خمس عشرة سنة من الموت الافتراضي، الأكثر فاجعة من أيّ موت حقيقي، لأنّه يتكرّر كلّ يوم. ومن الفراق الإرادي، الأقسى من أيّ فراق قسري، لأنّه فراق تتجسّس فيه أمّ على يتم أولادها وهي على قيد الحياة. كانت كلّ أمنيتها أن ترى صورهم وتسمع أخبارهم، ولا سبيل لذلك فقد كنّا في زمن لم يوجد الأنترنت فيه بعد، ولا الأنستغرام والفايسبوك. تصوّري المأساة!

قلت:

– في زمن على هذا القدر من الوحشيّة، لا أرى شرفًا أكبر من حرصك على أن تكون أكثر إنسانيّة من أعدائك. يا إلهي، أيّ ألم وقهر هذا! تذكّرني هذه القصّة بقصّة صديقة ليبيّة، من الناشطين في مجال حقوق الإنسان. حين غادرت فريدة ليبيا لاستكمال دراستها العليا

أوائل السبعينيّات لم تكن تتوقّع أنّه بعد مرور ثماني سنوات لن يكون في إمكانها العودة إلى وطنها لزيارة أسرتها بسبب انضمامها إلى صفوف المعارضة ضدّ نظام القذافي، خلال ثلاثين عامًا تتالت أحزانها وهي تفقد أفراد أسرتها الواحد تلو الآخر دون أن تستطيع وداعهم، لكن حين علمَت بتدهور صحّة أبيها استعانت بعدّة وساطات لترتيب عودتها شبه السرّية لتتمكّن من رؤيته.

شاهدتُ فيديو عودتها كما وثّقه أقاربها، جاءت العائلة لاستقبالها في المطار، وانهمرت كثير من دموع الفرحة ووجع الفقدان، إخوة شاخوا في غيابها، وشباب لا تعرفهم لهم قرابة بها، وأقارب كثيرون ماتوا أثناء غيابها الطويل، وهي القويّة، انهالت دموعها وراحت تنتحب وهي تطأ وطنًا حُرمت منه ثلاثين سنة، غادرته صبيّة وتعود إليه في سنّ الفاجعة.

لكنّ صدمتها الكبرى كانت حين أسرعت إلى غرفة أبيها لتضمّه، وكان ممدّدًا في سريره، فوقفت إلى جواره لكنّه لم يتعرّف عليها. ما من أحد شاهد ذلك المشهد إلاّ بكى وهي تردّد أمامه «بابا أنا فريدة!». الرجل الذي كان سياسيًّا وعضوًا في البرلمان ووزيرًا على أيّام الملك، شاخ وهرم، هو الذي علّمها الصمود، لم يصمد أمام ما رأى من أهوال، ما جعل ذاكرته تستنجد بالألزهايمر هروبًا من واقعه. وها هو قبل مفارقة الحياة بقليل، تهديه الحياة ما تمنّاه الأكثر، أن يرى ابنته ويضمّها، هو الذي كان دومًا فخورًا بها، لكنّه في غيابها أنهكه القهر، وسرقت الخيبات ذاكرته.. فما تعرّف إليها سوى لثوانٍ معدودة وعاد إلى غيبوبته.

هل أكثر عبثيّة في الحياة من أمنية طالت حتى ما عاد يدري صاحبها منذ متى وهو ينتظرها، وحين تأتي تناديه فلا يعرف من المنادي؟ وهل أكثر وجعًا من لقاء طال حتى جاء بتوقيت الفراق؟

واصلت وأنا أودعه:

– تـدري؟ ما يحزنني أكثر هو أنّ هذه القصص تصلح لتكون أعمالًا روائيّة كبرى، لكن لم يعد لي من وقت لكتابتها، في ذهني أعمال أخرى. قصّة حياة أبي، والجزء الثاني لـ«الأسود يليق بك». يا للحماقة.. كم من الروايات اغتلت أثناء كتابتي هذا الكتاب، إنّه أكثر كتاب أتعبني نظرًا لظرفه، فلا يمكنني أن أكتب بخفّة ورومانسية وكـأنّ الـناس من حولي لا يـموتون، ولا أن أكـون جـادّة ومأساويّة فأزيدهم إحباطًا.

قال الصديق:

– لا يحتاج الأدب إلى قصص واقعية، الواقع يفيض به اليوم الأنترنت. أجمل القصص وُلدت في خيال الكُتّاب. اكتبي كما كتبت دومًا، حاذري الإقلاع عن الحلم، ماذا سيكون الأدب لولا الأحلام!

شكرته بحرارة لم يفهم سببها، وغادرته مسرعة لأواصل قصّتي تلك.. فقد أمدّني بالجواب.

الجزء الخامس

نحبّ الحبّ لكنّ الفراق يحبّنا أكثر

1

نزلاء هواتفنا

احتفي بالذكريات، إنّها ما نجا من حياة سابقة

الإقلاع عن الحبّ، كقرار كاتب الإقلاع عن الكتابة أو عن الحلم. إنّه الذهاب مع سبق الإصرار إلى شيخوخة المشاعر، ذلك أنّ إكسير الشباب، لا يفوز به غير العشّاق... والكُتّاب.

وما دام لا يستقيم الجمع بين الاثنين، يظلّ وهم الحب أفضل للكاتب من قصّة حبّ. هذا ما يجذبني إلى ذلك الرجل، فلا خسارة في حبّه ولا مجازفة. هو يمدّني بوقود الكتابة ليس أكثر. حتى في انقطاعه عنّي يلهمني قصصًا ومشاعر ما كنت لأعرفها. إنّه كائن يعيش في هاتفي.

كان الحبيب يقيم في القلب وغدا يقيم في الجيب، ما عاد اسمًا نخبّئه بعيدًا في وجداننا، أصبح رقمًا مضيئًا يظهر على شاشاتنا.

كان صندوق بريدنا يترقّب لأيّام رسالة بريديّة منه، وصار الهاتف يفيض كلّ يوم برسائله النصيّة.

كان كائنًا حبريًا من كلمات، أصبح كائنًا صوتيًا من نبرات، يأتينا من أذننا تاركًا لنا صوته إدمانًا. إن دقّ الهاتف انتفضنا، وإن صمت اكتأبنا، مطالبين على مدار النهار بالمزيد منه.

كنّا نعيش أسابيع من السعادة، مبتهجين برسالة كُتبت باليد، ووصلتنا باليد، قاطعة البلدان والقارّات. وحين اختُصرت المسافات إلى هذا الحدّ، أُصبنا بالجشع الهاتفي، فما عادت الكلمات، ولا الصوت، ولا الصورة بنقلها المباشر الحيّ تسدّ جوعنا. فقد أصبح الحبيب في متناول اليد، وكلّ ما نحتاج إليه الآن اختراع يخرجه من الشاشة، ويضعه أمامنا.

يقول خبر، إنّ العلماء يعملون على نقل الرائحة إلكترونيًا، وقريبًا سنعرف أيّ عطر وضع من يحدّثنا على الطرف الآخر. يا للبشرى.. ها هو ذا كمين آخر نُصب لنا، فهل سيُهدي لنا العلم يومًا أمنية ضمّ من نحبّ.. هاتفيًا؟!

ثمّة جاذبيّة مغناطيسيّة لخبطت مزاج البشريّة، مذ وضعت في يدها جهازًا في حجم كفّ، يتحكّم في نشرتها النفسيّة، ويجعلها تعيش على أهبة قصّة عاطفيّة، تولد من التفاصيل المتاحة في حياة افتراضيّة.

رقم جديد. بداية صوت، بداية عادة، بداية بهجة، بداية لهجة تدخل حياتك مذ لفظها أول كلمة، لا تدري بعد حسب أيّ قدر أو مصادفة جغرافيّة سيختارها لك الحبّ:

«ألو».. «أهلا».. «هلا».. «أهلين».. «مرحبا»..

الكلمة الأولى ستوجّه بوصلة قلبك نحو موطن «الحبيب»، وستكشف لك إلى أيّ بلد ينتمي. وستُفاجأ بتأقلم حواسّك مع كلّ حبّ. وإذا باللسان يغيّر قاموسه العشقي، والسمع قد نسيَ مع الوقت ما اختزن من نبرة صوت سابق كان يظنّ الأبجديّة العشقيّة قد انتهت به.

في كلّ حبّ، لا تفارقك الكلمات الأولى. تتشبّث بك عند النهايات كالأعشاب البحريّة. فالنهايات خرساء نكديّة، تذكّرك بما قاله لك الحبّ أول مرّة، ثم تمضي دون أن تنبس بكلمة. لكن لا أكثر نكدًا من صمت الكلمات، إلّا كيد الأرقام عندما يختفي أصحابها من حياتك. حينها فقط، تكتشف أنّك لم تكن أسير اسم ولا صوت، بل أسير رقم هاتفي. ها أنت عاجز عن النوم بسبب رقم لا يظهر على شاشتك، وحال فتح عينك تبحث عن الرقم نفسه الذي كان يوقظك، والذي يُطمئنُك ظهوره بأنّ الحياة جميلة برغم أخبارها السيّئة.. ما دام فيها من يحبّك.

أيكون الذين يقيمون في هواتفنا أشدّ قسوة من الذين كانوا يقيمون في قلوبنا؟ فعندما يرحلون تنوب عنهم أرقامهم في القسوة علينا، لأنّها هي من كانت تصنع وهم سعادتنا، في عالم غدا فيه الحبّ حالة افتراضية، يتحكّم فيها من يقيم في خيالك.. نزيل هاتفك.

ربّما صار لزامًا أن أغيّر هاتفي!

أذكر أنّ كاميليا كانت مولعة بتغيير هاتفها، وأنّني قلت لها مازحة إنّ جوّالي يعود لعدّة سنوات، وإنّني لو كنت رجلًا لما وثقت بامرأة تصبو إلى تجديد هاتفها كلّما طرح هاتف جديد في السوق.

ضحكت يومها وقالت بلؤم «أنت تحتفظين بالهاتف لتمتلكي الزمن العاطفي، ترفضين أن تلقي بزمن ما، ثمّ تطالبينني بالتخلّص من الذاكرة أليس كذلك!».

قلت: «لقد غدت قرابتنا بالأجهزة تفوق قرابتنا بالأشخاص. لذا لا أفهم السرعة في التخلّص منها، في الماضي لم يكن أحد يلقي بشيء، اليوم أصبح من العار أن تحتفظ بشيء. لا بدّ من أن تغيّر سيّارتك وأثاث بيتك وخاصّة هاتفك لتبدو طبيعيًا وثريًا، فأكبر عيب أن يشي هاتفك بقلة إمكانيّاتك».

ردّت: «هيك لبنان» فأجبتها: «بل هيك الزمان».

كنت غارقة في استعادة حواراتنا ذات الوجهات المتعاكسة غالبًا حين دق هاتفي.

ذهلت، كانت كاميليا على الخطّ. قبل أن تنبس بكلمة صحت:

– يا الله مش معقول، للتوّ كنت أفكّر فيك!

ردّت مازحة:

– جميل أنّك ما زلت تتذكّرينني.

– طبعًا ولو.. إنّي أتذكّرك أكثر ممّا تتصوّرين. تظلّين ببالي لكنّي تركتك لحياتك الجديدة. ألا تعرفين المثل الفرنسي «لا أخبار إذن الأخبار جيدة»؟ المهمّ أن تكوني بخير.

– تمام الحمد لله.. أنا بلبنان.

– ما هذه المفاجأة الجميلة.. «شو جابك ع ديرتنا»؟!

ردّت ضاحكة:

– جئت ع العيد لأزور الماما لأني في الشهر السادس ولن أستطيع بعد ذلك السفر.

– مبرووك.. صبي أم بنت؟

– صبي.. أعتمد عليك للعثور على اسم جميل له.

– يا حبيبتي.. العثور على اسم لمولود أصعب من العثور على عنوان لرواية أو على أسماء لأبطالها.. لا تعتمدي عليّ في هذا الأمر!

– وما أخبار الكتابة معك.. هل أصدرت رواية جديدة من بعدي؟

– لا.. لنقل إنّني أعيش رواية!

– واااو ستحكين لي ذلك عندما نلتقي.. يا الله كم اشتقت لأيّام زمان، تذكرين كنّا نقضي ساعات على التلفون.

– دخيلك لا تأتي على سيرة التلفون.. طبعًا أذكر كم أهدرت من الوقت لأعيدك إلى صوابك!

قالت مستعجلة إنهاء حديث يذكّرها بالماضي:

– هل يناسبك أن أمرّ عليك يوم الأحد.. ونعمل صبحيّة؟

– صبحيّة؟! ان شاالله تنوين زيارتي على التاسعة صباحًا؟!

أطلقت كاميليا قهقهة طويلة وقالت:

– خلاص، سآتيك على العاشرة، هل يناسبك؟

– تمام.

حسنًا. أمامي أربعة أيّام قبل أن ألتقيها. لا أدري لماذا أنا مرتبكة وكأنّ كاميليا قرأت كلّ ما كتبته لها. وفي الوقت نفسه سعيدة برؤيتها فلا بدّ من أن أتحدّث لأحد. وحدها ستتفهّم جنوني، لفرط ما تحمّلت جنونها.

2

الرغبة عربة تجرّها أحصنة المستحيل

لم تغيّر فرحتي بوجود كاميليا في بيروت شيئًا من شعوري باليتم لغياب صوت ذلك الرجل. «كلّ مبدع يتيم»، قال لي يومًا نزار.

لكنّ اليتم ما عاد حالة إبداعيّة بل حالة عربيّة. بين يتامى الأوطان، ويتامى الأمكنة، ويتامى الأصوات، ويتامى الأمنيات، ويتامى الانتماء، ويتامى الأحلام، غدونا أمّة أيتام. أيكون شقائي في كوني يتيمة مرّتين؟!

لعلّ في ذلك نعمة. قرأت أنّ اليتامى يملكون حظوظًا أكبر للنجاح في الحياة، لأنّهم لا يعتمدون سوى على أنفسهم، حتى إنّ سبعين في المئة من رؤساء أميركا كانوا يتامى. طبعًا الوحيد الذي عرفنا أباه، لأنّه سبق أن حكمنا قبله، كان بوش الصغير الذي تسبّب بيتم ملايين الأطفال في العراق.

في الكتابة أيضًا، عليك أن تواجه الورقة البيضاء يتيمًا دون سند. لتكسب معركة الكتابة يجب أن تكون وحيدًا تمامًا، ألّا يبقى

معك من أحد. معركتك في الكتابة تبدأ بخسارة كلّ ما يعتبره غيرك مكسبًا. كطارق بن زياد الذي ما كان ليفتح الأندلس لو لم يحرق البواخر حال بلوغه الشاطئ كي لا يترك لجنده أيّ احتمال آخر غير دخول المعركة أو الهروب من المواجهة إلى البحر والموت غرقًا، قائلًا لهم جملته الشهيرة «البحر أمامكم والعدوّ وراءكم».

كذلك الكاتب، وهو يجذّف بيد واحدة لبلوغ برّ الإبداع، عليه ألّا يترك لنفسه من خيار آخر غير الكتابة. «الحبر» أمامه و«الوقت» عدوّ وراءه، وهو لا يحتاج سوى لأن تكون يده طليقة للنجاة. من نِعم الله، أنّه كي تتسنّى لي الكتابة، أمسك القدر دائمًا بيد كلّ حبّ حاول الإمساك بي... الخيار كان بين يدي أو يده. أن يُمسك بقلبي أو أمسك بالقلم!

عدت للكتابة بحماسة كبيرة، وبقرار حاسم أن أنهي هذا الكتاب في الأيّام الأربعة المقبلة قبل موعدي مع كاميليا، وكأنّ لي إحساسًا بأنّها ستلخبط مزاجي في الكتابة.

كان قد مرّ يومان، حين دقّ جرس الواتساب... وكان هو!

– أتمنّى أن تكوني افتقدتني..

لوقع المفاجأة ألقيت نظرة على الساعة. لم تكن التاسعة تمامًا كآخر مرّة هاتفني. أجبت ملمّحة لثلاثة أسابيع من الانقطاع:

– بين التاسعة... والتاسعة وأربعين دقيقة حدث أن تذكّرتك!

ردّ ممازحًا:

– حسنًا. ما دمت دقيقة في الوقت... احجزي لي موعدًا للغداء أو لفنجان قهوة.. سأكون في بيروت بعد عشرة أيّام.

أربكتني هذه البداية.

قصّتي مع هذا الرجل نشبه النشرة الجوّية. لا يحدث شيء ممّا تتوقعه. تأخذ مظلّة فتسطع الشمس، ترتدي قميصًا وإذا بها تمطر.

أقول انتهيت منه فيُبعث حيًّا!

كانت أمنيتي أن أسمع صوته مجدّدًا ليس أكثر، وها هو يدعوني إلى فنجان قهوة، فلماذا أجبن، وأجيب عكس ما أودّ قوله؟ ألأنّ القصّة أصبحت أكثر واقعيّة ممّا توقعت؟ أجبته مستعينة بعذر كاذب:

– مبدئيًا، لي مشروع سفر إلى الجزائر في آخر الشهر.

– أمامك عشرة أيّام لتراجعي برنامجك. أنا لا أتردّد كثيرًا على بيروت، لكنّي سأكون في مهمّة غير بعيد من لبنان، وهي فرصة لألتقيك.

قلت:

– لا أدري هل ما زال هناك من بقعة في الأرض تصلح للقاء؟

– بل هل ما زال من رقعة في الأرض ما مرّ بها فراق؟ دعينا نلتقِ إذن..

– سأحاول إن شاء الله.

– إن شاء الله عند العرب تعني «لا».

– عندي تعني «ربّما».

أجاب ساخرًا:

– كوني جادّة في محاولتك، ربّما فزت بأجمل رواياتك.

– نسيت أنّك وعدتني بذلك!

– أنا عند وعدي. «أقوى وعد يقال بأقلّ الكلمات» لكنّ المرأة لا تصدّق إلّا الوعود المخضّبة بالدموع والديباجات!

لم أسأله بماذا يعدني بالتحديد، لكنّني أثق بوعده. فرسان الوفاء من الرجال عبر التاريخ لم تتجاوز وعودهم الكلمتين. آخرهم ذلك الشابّ الذي همس في أذن معلمته وهو يغادر إلى باريس حيث أرسله أهله ليبعدوه عنها «سأعود وأتزوّجك» وعاد إيمانويل ماكرون بعد سنوات ليتزوّج تلك المرأة التي في عمر أمّه، ويدخل إلى الإليزيه ممسكًا بيدها.

قلت:

– الحقيقة أنّني كنت قطعت عهدًا على نفسي أن لا أراك، لأنّني لا بدّ من أن أنجز كتابًا أعمل عليه وليس في حياتي وقت للحبّ.

– لنقل إنّني أعرض عليك مشروع كتاب... لديّ الكثير لأخبرك به! ألست منهمكة في الكتابة عن الفراق؟ الكتابة فعل تذكّر، دعيني أذكّرك بما نسيته في كتابك عن النسيان.

– وما علاقتك بذاك الكتاب؟

– كانت بيروت مدينة الذكرى ومدينة الفراق. ومن سواك يمكن أن أهبه قبلة النسيان وأنا أعود إليها منذ ذلك الزمن. ألم تكتبي «أيّها النسيان أعطني يدك / كي أسير في مدن الذكرى معك / نضج الفراق على شفاهي أزهرت قبل الوداع / لك قطافي يا نسيان هبني قبلتك»... لأكن نسيانك.

أجبت مازحة:

– وهل تصدّق ما يقوله الشعراء؟

– أصدّق ذلك الإيمان الذي يسكنني بأنّني سألتقيك يومًا وسأغيّر كلّ آرائك في الحبّ!

– والله!.. كيف هذا؟

– لأنّك ستحبّينني!

قلت بتهكّم:

– لن أعلّق على هذا التحدّي. لكن يعجبني فيك الاعتداد بالنفس، إنّها صفة من صفات كثيرة يفتقدها الرجال اليوم.

ردّ بنبرة جادّة:

– هم لم يفتقدوها، لكنّ الحروب تكفّلت بضرب المروءة والشجاعة والنخوة وعزة النفس، وكلّ ما كان فخر الرجل العربي، وجعلته يتأقلم مكرهًا مع الهوان بحكم الحاجة والبحث عن أمان.

الحرب كسرت شوكة الرجال، لكسر العمود الفقري للمجتمع العربي. في زمن الخنوع والدموع، رجال كانوا أسياد النخوة والكرم أهانهم العوز، وأذلتهم الغربة. سادة العنفوان شهدت كاميرات العالم على دموعهم وتضرّعاتهم.

الرجل يشعر اليوم بوهن، وبثقل الرجولة في زمن قلّ فيه الفرسان ورخص فيه الإنسان، ظننتك انتبهت أنّ من خططوا لدمار هذه الأمّة خطّطوا لإحداث شرخ صارم في النفسيّة العربيّة لإهانة الرجولة بجعلها تقبل بكلّ شيء، وتتعايش مع كلّ وضع. رأيت رجالًا على الحدود يستجدون الرحمة وجرعة الماء لصغارهم ويُضربون أمام زوجاتهم، ويُذلّون أمام أبنائهم.. لا يمكن أن تلومي هؤلاء لأنّ منسوب عزة النفس قد نقص من رجولتهم!

لم أجد ما أجيب به وقد فاجأتني نبرة حماسته، وأفحمني منطقه. قلت أول ما خطر بذهني:

– منذ البدء وأنا أتساءل لماذا أنا معجبة بك.. أعلم الآن السبب: أنا أحترمك.

ردّ مازحًا:

– جميل.. ها قد قطعنا نصف الطريق.. هل أراك إذن؟

قلت:

– ما زال الوقت أمامنا، سنبقى على تواصل.

ردّ:

– قد لا أستطيع الاتّصال بك. لا أعرف ظروفي في الأيّام القادمة. سأكون في العراق وبعدها في سوريا.

– أنت سوري؟

– لا، أنا لبناني، وإن شئت أنا مواطن كوني، أيّ أرض تفتح لي ذراعيها هي وطني. أعمل مراسلًا حربيًا لوكالة أنباء عالميّة، أغطّي أخبار من تتقاذفهم البحار والأقدار، ولا يتركون خلفهم إلّا الدمار.

قلت تحت وقع الصدمة كمن يتمتم:

– يا إلهي! يا للجنون!

ردّ ضاحكًا:

– الجنون أن آتي حتى بيروت ولا أراك!

بين فضولي وذعري، وفرحتي وتردّدي، كمٌّ من العواطف المتناقضة تجاذبني بعد أن كلّمني ذلك الرجل. لا أكرم من الحبّ. تعطيه دقيقة من وقتك يعطيك 24 ساعة من السعادة.

لكنّني لا أريد فرحة عابرة يتبعها حزن شديد. ما عدت جاهزة لأيّ مشاعر تهزّ سكينتي.

لو استسلمت لأول رغبة، لقلت لا بدّ أن أراه. لكنّ الامتناع نوع من أنواع المتعة. أجمل من أن يجدني في انتظاره أن يأتي ولا يجدني. التوق أجمل من الوصول. عليّ أن أقاوم الوقوع في الفخ الأدبي الذي نصبه لي، أيّ قصّة مجنونة هذه التي يعدني بها!

الحقيقة أنّني ما عدت أدري إلى أين هي ذاهبة بي هذه السفينة المترنّحة للحبّ. دون توقف كنت أقول لنفسي الشيء وعكسه، ذلك أنّ كلماته لم تكن تفارقني، وكلما استعدتها ازددت إعجابًا به. إنّ رجلًا على هذا القدر من المروءة والشجاعة، حدّ المجازفة بحياته لتغطية حروب ليس معنيًا بها بالدرجة الأولى، يهزمني مسبقًا. فقد شعرت دومًا بضعف تجاه رجل له مبادئ أو قضيّة. لعلّها جينات أبي. كم نصب لي ضميري من كمائن ما كان ليقع فيها قلبي، لاعتقادي أنّ من له مبدأً سياسيًا، لا يمكن إلّا أن

يكون شهمًا، وأنّ القيم لا تتجزأ، فتعاطفت مع كلّ مناضل مهما كانت قضيّته، وساندت كلّ من دفع ثمن موقفه، وراسلت أيّام الإرهاب الكتّاب الجزائريّين عن تعاطفٍ خوفًا عليهم من الاغتيال، فقد كنت أشعر بذنب وجودي بأمان، بينما فقد سبعون كاتبًا ومثقفًا جزائريًّا حياتهم بسبب تهمة الكتابة، وجازفت مرارًا، حين كان يجب الحذر، لكنّ الحياة كثيرًا ما صحّحت قناعاتي. فهل سأخطئ هذه المرّة أيضًا في حكمي؟

أحتاج إلى كاميليا لتساعدني على أخذ القرار الصائب مع هذا الرجل.

3

ما التفت أحد إلى الخلف إلّا وقع منه شيء

جاءت كاميليا في ذلك الصباح جميلة، أنيقة، مبتهجة، حاملة علبة حلويات، ونبتة كبيرة. لقد غيّرها الزواج وأصبحت «ست».

قالت:

– جئتك بشيء يمكن أن يعيش أكثر من الورود كي تتذكّريني!

أجبتها وأنا أضمّها وآخذها منها:

– لا حاجة لي بشيء يذكّرني بك.. أنت تشاركينني البيت حتى إنّي أطلقت اسمك على قطتي!

صاحت:

– صحيح؟!

بحثت عن كامي ولكنّها لم تبدِ أيّ حفاوة. انسحبت تتأمّلنا من بعيد.

– إنّها تغار!

ردّت كاميليا:

– معقول.. كان ناقصنا غيرة القطط!

– اسمها كامي، إنّه تصغير لاسمك.

– عن جد؟!

ضمّتني كاميليا وقالت بلهجتها المحبّبة:

– تسلمي لي حبيبتي هالقد اشتقتيلي؟ يا الله كم اشتهيت أن نجلس جلسة حلوة مثل زمان ونحكي للصبح.

لن أخبرها كم سهرت معها، وكم من الرسائل كتبت لها، وبكم من القصص بحت لها ولن تدري بها. هي على شوق أن تعرف القليل، ولا تعلم أنّني على مدى كتاب رويت لها الكثير.

سألتها عن حياتها الجديدة فقالت إنّها سعيدة، لكنّها تشتاق كثيرًا لبيروت فلقد استقرّت مع زوجها في نيجيريا.

أضافت لتطمئنني وقد رأت علامات التعجّب على ملامحي:

– الحياة في نيجيريا جميلة وهناك جالية لبنانية كبيرة.

سعدت من أجلها. لم أعلّق. ما أعرفه أنّ جلّ أثرياء لبنان صنعوا ثروتهم في أفريقيا. لكنّ سعادتها وحدها كانت تعنيني.

أضافت:

– لديّ بيت جميل ومزرعة كبيرة، ليتك تأتين للإقامة عندي بعض الوقت للكتابة. أنا واثقة من أنّك ستحبّين الجوّ.

قلت:

– يا عزيزتي روحي الآن ضعي مولودك ثمّ نرى لاحقًا... بالمناسبة نحن في الشهر نفسه.. أنا أيضًا منذ ستّة أشهر حبلى.. لكن لا أدري هل بحبّ كبير أم بحمل كاذب!

صاحت:

– واااو إحكي.. شو القصّة!

ما استطعت أن أمنع نفسي من الضحك. من الأسهل أن أمدّها بالكمبيوتر لتقرأ مخطوط الكتاب كما بدأته في 8 جانفي، على أن أختصر لها ستّة أشهر. فقد أحتاج إلى قضاء أسبوع معها على الأقل.

قلت:

– حدث لي أمر عجيب. لقد دخل حياتي قبل ستّة أشهر رجل يملك لغة آسرة، ويبدو خلوقًا وصاحب مبادئ، تصوّري يحدّثني كما لو أنّه خارج من رواياتي... قصّتي معه جميلة وغريبة وعندي إحساس كأنّني أعرفه... كلّما كلّمني ازددت تعلقًا به.

قالت وهي تقاطعني:

– أولًا، أين التقيت به؟

– اتصل بي على صفحتي في الفايسبوك.

– مجنونة.. تحبّين شخصًا تعرّفت إليه على الأنترنت. يا إلهي، ما هذه الحماقة.. أنسيت من أنت!

– أنا كاتبة.. يحدث لي ما يحدث للكُتّاب. لقد كتب على صفحتي في الفايسبوك تعليقًا ليقنعني بأن لا أغلقها. استوقفتني لغته.. وحين دخلت صفحته وجدته شخصًا ذا عنفوان ومبادئ، ويمتلك روحًا ساخرة أحبّها، برغم إعلانه الحرب على النساء.

– الله يساعدك ما زالت الكلمات تقودك من أذنك!

– الكلمات أنجبتني... إنّها أمّي، لذا هي تتحكّم في قدري.

– أمّا أنا فعلّمتني أمّي أن أقرأ على جبين كلّ من أصادف «كاذب» كأنّها مطبوعة على وجهه فلا أصدّقه ولا أتوقع الخير منه إلى أن يثبت لي العكس.

– عزيزتي أنت لا تعرفين شيئًا عن هذا الرجل، ولم تقرئي ما كتب لي لتحكمي!

تردّدت في أن أطلعها على تعليقه. ثمّ أمام ما بدا منها من استخفاف بقصّتي قرأت لها التعليق الذي كنت صوّرته على هاتفي:

«عمري خمسون لهفة. ميزتي الأنفة وعلامتي الفارقة، انشغالي بك. منذ سنوات أواعد روحك هنا، أتصفّحك.. أتأمّلك.. أعايشك. لا تغيبي بذريعة الكتابة، ربّما أخلفت روايتك الأجمل. جئت سيّدتي أهبك قبلة النسيان!».

قالت:

– يا الله ما أجمل هذه الكلمات.. الحقيقة ما في أحلى من الحبّ، ذكّرتني برسائل عماد. كنت لجمالها أحفظها غيبًا.

– ما دمت تحفظينها بربّك مزّقيها وخلّصينا! تدرين، لمّا احترقت مكتبة الجاحظ جاء أصحابه معزين فقال لهم: «لا تعزوني إنّها في صدري». خبّيها يا اختي بصدرك وارتاحي!

– معقول.. هل تزعجك لهذه الدرجة؟

– يا حبيبتي.. لا تزعجني. لكن أنت كما أرى سعيدة وتنتظرين مولودًا جديدًا وعليك الآن ألّا تلتفتي إلى الماضي... ما حاجتك إلى هذه الرسائل الآن وماذا تريدين من الاحتفاظ بها!

– تدرين ما كنت أريد؟

– ماذا تريدين؟!

– كنت أتمنّى لو وضعتها في كتاب من كتبك ليقرأها، فهو يقرأ كتبك.

– والله! وهكذا سيفهم أنّك ما زلت تفكرين فيه.. وأنّني طرف في قصّتكما! هذا الرجل يا حبيبتي لا مشكل لي معه، كلّ ما كنت أريده هو ألّا تتعذبي بسببه وها أنت والحمد الله سعيدة. ربّما في حياته حبّ جديد.. أو لعلّه تزوّج هو أيضًا. دعيه وشأنه.

– لا هو لم يتزوّج.

– ولماذا تطاردين أخباره؟ هذا يعني أنّك لم تُشفي منه!

– أبـدًا، قلّما يخطر ببالي، لكن لا أتوقع أن بإمكانه أن يحبّ امرأة بعدي بذلك الجنون. هذا يحدث مرّة واحدة في حياة الإنسان.

– إنّها الأنانية والغيرة.. فحتى بعد موت الحبّ تعيش الغيرة طويلًا. أنت تغارين عليه بقدر ما أحبَّك لا بقدر ما أحببته.. لو أحببته لتمنّيت له السعادة.

– تدرين كم أحببته.. لكن لا تدرين كم أحبّني!

– والله رح تجنّنيني... ما دمتما قد أحببتما بعضكما بعضًا إلى هذا الحدّ، طيب لماذا افترقتما؟

– القصّة طويلة سأحكيها لك ذات يـوم... الآن دعينا في موضوعك.

– موضوعي يُختصر في سؤال واحد: هل ألتقي بهذا الرجل أم لا؟ هو دعاني على قهوة أو غداء، لي فضول أن ألتقيه لكن أخشى أن يكسر عزلتي وتتطوّر القصّة بحيث تمنعني من الكتابة.

– طيب شوفيه ربع ساعة وين المشكل؟

– تدرين أنني لا أرتاد المقاهي ولا المطاعم فما بالك أن أواعد أحدًا في بيروت. الفكرة في حدّ ذاتها تشوّش ذهني. مذ قال لي أريد أن أراك وأنا مرتبكة أخشى أن أفتح الزجاجة لهذا الجنّ فيخرج من قمقم الهاتف ويصبح حقيقة.

– خلاص ما تشوفيه وبلا وجع الراس.

– القصّة ليست بهذه السهولة، إنّه يعدني برواية مذهلة، هذا موضوع يغري أيّ كاتب، لن تفهمي هـذا... لكأنّه بطل من أبطال رواياتي!

علقت مازحة:

– لعلّك أحببته في حياة أخرى!

قلت:

– أنت لست جادّة في نصحي.

ردّت:

– في الحبّ ليس بإمكان أحد أن ينصح أحدًا. حتى بعد موت الحبّ نحن لا نتقبّل النصائح. كما ترين، تقولين لي مزّقي الرسائل وأرفض ذلك برغم أنّ الحبّ انتهى.

قلت لها وأنا أقف لأتوجّه إلى مكتبي:

– أردت أن أحميك من الماضي... لكن ما دمت تصرّين على ذلك فسآتيك برسائلك. أعيدي قراءتها، احفظيها، أو احتفظي بها، أو مزّقيها هذا قرارك وحدك. كلّ شخص يختار قيده، نحن الذين نسمح للماضي بإمساكنا كرهائن. أن تحتفظي برسائل الماضي، لا يختلف عن احتفاظ الأندلسيين بمفاتيح بيوت لن يعودوا إليها... وسيشقون بذكراها.

لم تجب. لعلها كانت تتمنّى أن أحضرها لها. عدت وفي يدي ذلك الكيس البلاستيكي الأحمر الملفوف عدّة مرّات. مددته نحوها دون أن أقول شيئًا.

أمسكته كاميليا برهبة وارتباك، كما لحظة تمدّ القابلة الأم بوليدها، فتمسك الأم بكائن تتعرّف إليه لأول مرّة، برغم كونها تعرفه لأنّه عاش في أحشائها.

لقد أصبح بينها وبين تلك الرسائل مسافة يصعب قطعها مشيًا إلى الخلف. راحت في صمت مدقع تفكّ الشريط اللاصق الذي يحيط بالكيس أكثر من مرّة، وتخرج أخيرًا حزمة الرسائل.

ثمّ كأنّها نسيت وجودي، أخذت تتصفّح الرسالة تلو الأخرى بتأثّر واضح، ورأيت دمعة تلمع في عينها. استعدت تلك النبرة التي كنت أواسيها بها في الماضي. قلت:

– كاميليا حبيبتي.. لا نبل للذكريات. هي لا تعود إلّا لتؤلمك، تقتفي أثرك، تستدلّ عليك بدمك. الذكريات أسماك قرش ما كنت أريد لها أن تنهشك.

ناولتني رسالة وقالت:

– اقرئي شوفي كم أحبّني.

أخذت منها الرسالة مكرهة، ثمّ وجدتني أقرأها مأخوذة بهذه المشاعر المتدفقة بتلقائيّة شلّال من شعر:

لو أنّك جئتِ
لو أنّ شيئًا منك جاء هذا المساء
لتوقّف المطر
لنقص عدد ضحايا الحروب
لأمطرت السماء معاطف
على كلّ مشرّدي العالم
لغطّت حقول القمح الصحارى
وما بقي من جائعٍ على وجه الأرض
لتَصالح العشاق جميعهم
وعاد الجنود إلى بيوتهم
لنفدت الورود من محالّ الورود
وما عاد بين الناس من طاغية أو قاتل
لتَغيّر شريط الأخبار
ولكانت عودتك هي «الخبر العاجل»

صحت:

– لم تخبريني أنّك أحببت شاعرًا!

– ليس شاعرًا.. كلّ ما في الأمر أنّه عاشق.

– لعلّهم على حقّ الذين قالوا إنّ أجمل رسائل الحبّ كتبها من ليس لهم علاقة بالأدب.

أخذت الرسائل من كاميليا وقلت وأنا أعيدها للكيس:

– إنها تبدو رسائل جميلة حقًا ويعزّ عليّ أن تمزقيها. لكن حبيبتي لقد انتهى الآن كلّ شيء، احذري الهزّات الارتدادية لزلزال الفراق، فقد يدمّر ما بنيته ولا يبقي لك من بيت. سأحتفظ بهذه الرسائل إلى أن تأخذي قرارًا بأمرها. سأطّلع عليها وربّما جُننت ونشرت إحداها في كتابي. إنّه كتاب عن الرسائل أصلًا.

صاحت مبتهجة:

– حقًا ستفعلين هذا؟

– ربّما.

– شوّقتيني لقراءته.. كم جميل عالم الرسائل!

– الرسائل ليست عالمًا فحسب، بل هي مقياس ما عرف العالم من تغيّرات، ليست وحدها رسائل الحبّ التي رخصت على أيّام الجوّال، الدموع أيضًا كانت غالية قبل زمن المناديل الورقية.

كان العشّاق يخطّون رسائلهم بدمهم وصارت الرسائل تُكتب وتُمحى بزرّ هاتف، وكانوا يكتبون آلاف الرسائل وأصبحوا يستكثرون على الحبيب رسالة، حتى في حزنهم وفي قطيعتهم كان الأوائل يواصلون كتابة الرسائل، فقد كانت الرسائل رئتيْ العشّاق... كم دامت قصّة حبّك مع عماد؟

قالت بصوت غائب:

– ثلاث سنوات.

– ثلاث سنوات نصفها ذهبت هباءً في المكابرة والقطيعة والبكاء، وتعتبرين هذا الحبّ أسطورة! هل تدرين أنّ الحبّ كان يدوم في الماضي نصف قرن وأكثر، وأنّ الموت وحده كان ما يفرّق بين

العشّاق... تصوّري، إنّ حبّ فيكتور هيغو لعشيقته الممثلة جولييت دام 50 سنة من دون أن يتمكّنا من الـزواج لأنّ تقاليد المجتمع الفرنسي كانت تمنع زواج النبلاء بالممثّلات، لـذا كتب لها على امتداد نصف قرن أكثر من 20 ألف رسالة حبّ.. أمّا نابليون فكتب الآلاف من أجمل رسائل العشق، معظمها لزوجته جوزفين، وجلّها من ساحات المعارك.. وأنت بضع رسائل دوّختك!

– معقول نابليون كتب آلاف رسائل الحب؟ أين وجد الوقت؟

– بـل من غير المعقول أنّـه كـان يعود منتصرًا مـن معاركه وتكون فرنسا كلّها في استقباله، ولا يجد جوزفين في انتظاره لتبارك له انتصاراته. لقد كانت مشغولة عن فتوحاته بفتوحاتها. كان يدخل القصر منهزمًا لأنّه علم من أخيه مسبقًا أنّ أثناء غيابه، كانت زوجته تخونه مع رجل ذي رتبة بسيطة من رجاله...!

– ذكّرتني بما قرأته قبل فـترة، تـصوّري استـنادًا إلـى وثائق كانت سرّية ونشرتها الحكومة البريطانية أخيرًا، فإنّ السيدة واليس سمبسون، تلك المطلقة المنحوسة التي تخلّى ملك بريطانيا إدوارد الثامن عن العرش ليتمكّن من الزواج بها، كانت تخونه مع ميكانيكي، قدّمت له أمـوالًا وهدايا ثمينة وتصفه الوثائق التي تذكره بالاسم بأنّه مغامر جذاب جدًا وراقص ممتاز. نابليون في النهاية لم يتخلّ عن عرشه من أجل جوزفين، لكنّ الأحمق إدوارد الثامن دخل اسمه التاريخ على أنّه الرجل الذي تخلّى عن كلّ شيء من أجل حبّ امرأة.. أي في الواقع من أجل لا شيء!

قلت:

– يا حرام.. أتمنّى أنّه مات سعيدًا بوهم حبّه الأسطوري وأنّه لم يعرف بذلك!

قالت:

– تدرين ما استنتجت من هذه القصّة؟

قلت:

– أنّ النساء لسن دومًا ضحايا وأنهنّ أيضًا خائنات، أليس كذلك؟!

– لا... استنتجت أنّ بعض التضحيات الكبرى في الحبّ ضرب من الغباء والتهوّر، لأنّ الإنسان الذي نراهن عليه قابل مع الوقت للتغيّر، وأنّ من يحبّ كثيرًا يندم أخيرًا، كتلك المرأة العربيّة التي تناقلت قصّتها الصحافة والتي تزوّجت برجل أعمى ثمّ عندما علمت أنّ بإمكانها أن تنقذ إحدى عينه وهبته عينها، وإذا بالرجل حال استعادته النظر يطلقها لأنّه اكتشف أنّها قبيحة!

– لا يمكننا التعميم. في كلّ عصر قصص حبّ خالدة.. لكنّ التاريخ يحبّ توثيق ما هو شاذّ وطريف. لا تجعليني أكره الحبّ!

– أريدك فقط أن تحذريه فالقلب دائم التقلّب.

ابتسمت. ها قد تحوّلت كاميليا التي قضيت سنوات في نصحها، إلى مرشدة عاطفيّة تسدي لي النصائح.

دقّ هاتف كاميليا. تبادلت كلامًا فهمت منه أنّها تكلّم زوجها.

قالت وهي تتأهّب للانصراف:

– لقد وصل زوجي حبيبتي، لا تؤاخذيني. نحن مدعوّون للغداء عند أمّه والعائلة في انتظارنا. شكرًا لوجودك في حياتي... شكرًا على كلّ شيء، سأحاول أن أراك قبل أن أسافر أو على الأقلّ أن نتحدّث على الهاتف... كانت جلسة جميلة.

سبقتنا كامي إلى الباب.

قالت كاميليا مازحة:

– جميلة قطّتك لكنّها تستعجل مغادرتي... واقفة لي ع الباب كأنها تريد الانفراد بك!

قلت ضاحكة:

– هي اعتادت العزلة. أصبحنا نتشابه، أخذت منّي وتعلمت منها. بالمناسبة تدرين أنّ القطّ لا يلتفت أبدًا إلى الخلف... تعلّمي من كامي يا كاميليا!

قالت ضاحكة: أعدك.

ضمّتني طويلًا ومضت سعيدة.

4

الحب الذي يأتي قبل أوانه نغتاله
وإذا أتى متأخّرًا أودى بنا

كان عليّ أن أؤجّل لقائي بكاميليا حتى أنهي الكتاب.

«إذا حضر الماء بَطَلَ التيمُّم». أما وقد حضرت إلى بيتي وقضينا ساعتين معًا، فما عدت أعرف كيف أواصل الكتابة إليها. المراسلة تحتاج إلى مسافة وجدانيّة، كسرها حضورها.

لمحت كيس الرسائل كما وضعته على الطاولة في انتظار أن أعيده إلى مخبئه. قلت لأقرأ إذن هذه الرسائل لعلّها تفتح شهيّتي للكتابة هذه الليلة. أخرجتها على استحياء من نفسي. أن تكون كاميليا قد أذنت لي بقراءتها بل وبالتصرّف بها، فهذا لا يغيّر شيئًا. كان لا بدّ من إذن من مرسلها يسمح لي بالتجوال في شراييننه، والتجسّس على مشاعره كما عاشها في زمن ما. فالرسائل ملكه لا ملكها. وهي تشي به أكثر ممّا تقول عنها، برغم كونها سرّهما معًا. فهل أخطأت في تسليمها لي؟

لكن، أين كانت ستمضي بها؟ لمن كانت ستحكي السرّ الأعمق في وجدانها؟ لعلّه السؤال غير المعلن الذي يشغل كلّ البشر: أين نخفي رسائلنا.. صورنا.. أشياءنا؟ لمن نبوح بأسماء من أحببنا؟ بقصص من أحبّونا؟ هل علينا أن نتحوّل إلى روائيّين لننسب قصصنا للآخرين؟ أم نبحث عن روائي نبوح له بكلّ ما أخفيناه، كما لو كان قسًّا؟ ثمّ نغادره خفيفين سعداء، على أمل أن نقرأ يومًا قصّتنا بقلمه تحت أسماء أخرى، آملين – في أسوأ الحالات – أن ينساها لفرط ما سمع من حكايات. إحداهنّ كتبت في صفحتي على الفايسبوك: «أبحث عن شخص أروي له أسراري جميعها ثمّ أقتله» فكّرت مازحة أن أحظرها كي توجّه نزعاتها الإجراميّة إلى كاتب آخر.

قبل عشرين سنة، حكت لي سيّدة لبنانية قصّة حبّ كبيرة جمعتها برجل أعمال، مقاول، اشترى لاحقًا قطعة أرض مقابلة لبيتها ليشيّد عليها بناية. وعندما وصل إلى الطابق المقابل لبيتها طلب منها أن تحضر رسائله، مضيفًا إليها ما في حوزته من رسائلها، ووضع الرسائل جميعها بين حجرين وبنى الطابق بعد أن دفن سرّهما في جدار. «الآن كلّما نظرتِ من شرفتك رأيتِ حبّنا. إنّه هنا في أمان حتى لو افترقنا أو غادر أحدنا لبنان»، قال لها.

أعجبتني القصّة لدرجة أنّني فكّرت في توظيفها في رواية، خاصّة أن تلك السيّدة غادرت بعد ذلك للعيش في أميركا، وأنّ الذين يسكنون الشقة المقابلة لها لا يدرون أيّ سرّ تخفي جدرانهم. من قال إنّ للجدران آذانًا!

أينما عثر عليّ الناس، انتابتهم رغبة في البوح لي بأسرارهم. أناس ليسوا جميعهم مراهقين أو نساءً، بعضهم رجال من وجهاء المجتمع أصادفهم في أسفاري، لم يقرأوا لي شيئًا، فقط سمعوا بي، واطمأنّوا لي، وتدفّقت أسرارهم العائلية والشخصية في حضرتي

أثناء عشاء أو غداء. دائمًا أطمئنهم في الآخر أن لا خوف عليهم لكوني بلا ذاكرة. أمّا ميزتي الثانية فاعتباري أسرار الآخرين أغلى هداياهم. وهكذا تحوّلتُ إلى «القسّ» المثالي للمذنبين والتائبين والمخدوعين. ذلك أنّ الأسرار يثقل حملها، وينتهي بنا الأمر أن نبوح بها أحيانًا لعابر سبيل، على أمل أن نتخلّص منها ونحن نلقي بها لأذن غريب قد لا يرانا مجدّدًا. لكن قد يكون في تلك المجازفة هلاكنا، كقصّة الرجل الذي ثقل عليه حمل سرّ جريمته، فباح لسائق أجرة في نيويورك متباهيًا بأنّه القاتل الذي دوّخ الشرطة قبل عشر سنوات، وما كان يدري أنّ كلّ سيّارات الأجرة في نيويورك على اتّصال لاسلكي بمركز الشرطة، ليجد البوليس في انتظاره وهو يترجّل من التاكسي!

«إن بحت بأسرارك للريح فلا تلُم الريح إن باحت بها للشجر»، قال جبران.

ذلك أنّنا نخفي أسرارنا لدى من نصادف، وكسنجاب ننسى في أيّ فجوة شجرة خبّأناها، ولأيّ أذن أودعناها.

أسرارنا تشبهنا. منها المكابرة، والمتداولة، وتلك القاتلة.

أسرار سيّئة السمعة، وأخرى عفيفة.

وهناك المدمّرة المخيفة، وأخرى تقيّة، حتى في سرّها تخاف الله.

ثمّة أسرار دائمة البحث عن أُذن، وأخرى في انتظار وسادة أو حضن،

وثالثة استقرّت في قعر بئر.

الأسرار التي تموت معنا وتلك التي تعيش بعدنا.

وتلك التي نتمنّى لو بُحنا بها لراحل غريب يأخذها معه لقبره،

وأخرى سعدنا لأنّها لن تفضحنا وماتت مع أصحابها..

وتلك التي تمنّينا لو بُحنا بها لمن كانت ستسعده، لكنّه رحل دون أن يدري بها.

الأسرار تختبئ بعيدًا، يحميها الخوف من العار، ومن العيب، ومن الخسارات. تتستّر بالكذب والنفاق، لكن يحدث أن تعرّيها عملية جراحية، يهذي فيها المريض تحت التخدير بالمستور. قبل عقدين من الزمن روى لي ممثّل فلسطيني كبير رحل أنّه طلب من طبيبه قبل العملية ألّا يسمح لزوجته بالدخول إلى أن يستيقظ من البنج، لكنّه وجدها عند رأسه حين استفاق، وكانت الكارثة، فقد قال في هذيانه إنّه يحبّ امرأة أخرى!

فأيّ سرّ تراه ينتظرني في هذه الرسائل؟

5

رسائله.. إليها

أثناء تهريبك الحقيقة، ما أخفيت من شيء إلّا كنت تدلّ الضوء عليه.

رسائل الحب انصهار للأرواح، لذا تعيش طويلًا، حتى بعد انفصال أصحابها. أن تلمس بيدك رسالة حب كُتبت لغيرك، يا للرهبة!

أنت كمن يمسك بين يديه بقلب أحد!

أخرجت تلك الرسائل من ظرفها كمن يخرج قلبًا من قفصه الصدري، ويشعر به ينبض في كفّه.

كانت الرسالة الأولى هي الأطول. لعمقها قرأتها أكثر من مرّة:

العصفور لا يثق بالغصن الذي يحطّ عليه، فقد يسلّمه الغصن لصيّاده.

الصيّاد لا يثق بالبندقيّة، فقد تحوّل البندقيّة الطلقة إلى صدره.

صدره لا يثق بالمرأة التي تتوسّده، فقد تكون تحلم أثناء ذلك بغيره.

المرأة لا تثق بالرجل الممسك بيدها وهما يسيران تحت المطر، فقد يكون فاتحًا قلبه في السرّ مظلّة لامرأة أخرى.

الغيم لا يثق بالسماء، فهو لا يدري متى تُنهي السماء رحلته، ولا على أيّ أرض ستلقي به من عليائه مطرًا.

المطر لا يثق بالأرض التي يهطل عليها، فقد تهين سخاءه، وبدل أن تروي به الحقول، تمضي به سيولًا إلى المجاري.

الأرض لا تثق بالإنسان، فمذ جاءها، همّه الاستحواذ عليها، بإشعال المزيد من النار.

النار لا تثق بالكبريت، لأنّه بعود ثقاب واحد أشعلها، وما استطاع يومًا إطفاء الدخان.

الدخان لا يثق بالنار، لعلمه أنّها ستتبرّأ منه عند أول إشاعة، وتحرّض عليه الريح.

الريح تتسلى بمشاكسة الغبار، لكنّ سعادتها في الجري عكس ما تشتهيه السفن.

السفن لا تثق بالماء، فهو يحملها على هودج الموج، من دون أن تفارقه نزعته للتسرّب إليها. فولاء الماء ليس للمراكب بل للبحر.

البحر عنصريّ، لا يحبّ غير الكائنات البحريّة، لذا منذ الأزل يسعى لإغراق المراكب، كي يقدّمها قصورًا للحيتان.

الحيتان لا تثق بالبحر، لعلمها أنّه عاشق غيور، أسكنها أكواريومه الشاسع ليتجسّس عليها، ولن تستطيع الإفلات منه، وطلب اللجوء إلى الشطآن.

الشطآن لا تثق بقلوب يرسمها المحبّون على الرمال، لعلمها أنّ الموج سيمحو في الشتاء ما كتب العشّاق من وعود.

برغم ذلك..

حين قلتِ «أحبّك يا رجل» كذّبتُ العصفور والصياد، والغيم والمطر، والنار والدخان، والبحر والحيتان، والموج والشطآن.. كذّبتُ كلّ الكائنات ووثقت بك.

تركت هذه الرسالة في وجداني شعورًا غامضًا بالأسى.. كنت أمام رماد متوهّج لمشاعر انطفأت، وذكرى حبّ انتهى، بعد أن ماتت الثقة التي تصنع زهو المحبّين، وعادت الكائنات إلى شكوكها، وعادت الحياة إلى غدرها بالعشّاق.

فتحت الرسالة الثانية.

كان بينها وبين الرسالة الأولى ما يقارب السنتين. أكانت سنتان من الحب الذي لحضوره الطاغي لا حاجة له بالرسائل؟ أو لعلّ دورة الحب أوشكت على النهاية فانطفأت اللهفة وتغيّرت اللغة حتى أصبح يختصرها حرفان:

أحبّيني كما لو أنّك لن تريني بعد الآن أبدًا
لن تسمعيني أبدًا
لن يجمعنا بيت ولن تحملي اسمي أبدًا
و«لن...»
كما لو أنّ من بين 28 حرفًا
لم يترك لنا القدر سوى هذين الحرفين...

كيف لم يبق من ذاك اللهب العشقي سوى ذكريات متفحّمة، وكلمات تشي باشتعالات الغياب؟ هذا رجل سكب روحه في رسالة، فكيف يأتي أحدهم ويحتسي كلماته على عجل. كلّ كلماته تستدرجك لمعاودة قراءتها كهذه الرسالة:

مذ أخطأني الموت ولم تدري بذلك... مُتّ.
أحبّيني كما لو أنّ كل الاحتمالات انتهت
وكل المصادفات على وجه الأرض ماتت
أحبّيني بحجم ما سيعيش في قلبك من قهر
عند الغياب الكبير

لأنّ هناك كلمة احتفظت بها عميقًا كخنجر
ولأنّك خسرتني إلى الأبد
أيّ حصان لغوي جامح جارح هو هذا الرجل!

فتحت الرسالة التالية وقد ازددت فضولًا، وإذا بها رسالة من جملتين، فقط جملتين.. لعلها النهاية، فالحبّ يولد ثرثارًا ثمّ يُصاب في النهاية بالخرس. لم يخب حدسي، لكنّني أخطأت في توقّع المفاجأة. ذهلت وأنا أقرأ الجملتين، فقد كنت أعرفهما تمامًا. لا أدري لكم من الوقت شردت بي الصدمة وسمّرتني مكاني دون حراك.

أتراها الحياة تواصل سخريتها، لتذكّرني بأن لا روائي يتفوّق عليها في حبك القصص؟

طبعًا أعرف الجملتين، لأنّني وقعت عليهما في صفحة ذلك الرجل، ونسختهما على دفتري لأسأله يومًا لمن كتب هذا الكلام القاطع كمقصلة. ها أنا أعرف الجواب الذي نزل عليّ كصاعقة، ومعه جواب عن سؤال لم أطرحه في الماضي على نفسي بجدّية: ما الذي جعل ذلك الرجل يصرّ على ملاقاتي؟ ولماذا طلبني عند التاسعة، تلك الساعة التي كنت أطلب فيها كاميليا كلّ صباح لأقنعها بنسيانه؟ وأيّ رواية هذه التي كان يعدني بها غير النصف الآخر للقصّة كما عاشها؟ ومن أين له رقم هاتفي الذي أتوقّع أنّه احتفظ به يوم طلبت كاميليا وردّ نيابة عنها؟

ما جدوى الأسئلة الآن.

كنت أقول لكاميليا «لا تجلدي نفسك بقراءة هذه الرسائل»، وها أنا أجلد نفسي بها، وأعيد قراءتها بتأنٍّ عساني أفهم ما الذي حدث، وكيف أصبحت طرفًا في قصّة ليست قصّتي.

قرّرت أن أتوقّف عن القراءة. يكفيني ما عرفت!

كنت أستعدّ لإعادة الرسائل إلى حيث كانت رابضة أعلى خزانتي، حين رنّ الهاتف.. كان هو. لم أردّ. ما كنت أملك له من كلام. ظلّ الهاتف يرنّ طويلًا كجرس الفسحة بعد نهاية الدرس. لكن، كتلاميذ يستعجلون الاستراحة هربًا من درس لم يستوعبوه، كان العشّاق قد غادروا الصفّ وتفرّقوا جميعهم. لا أحد مسح الجملتين اللتين بقيتا على السبّورة عنوانًا لآخر فصل في الفراق:

«ما كنت أريد من العالم كله إلّا أنت،

واليوم أقول: لك العالم كله إلّا أنا».

قرأت عن رجل عربي بلغ من فصاحة بيانه أنّه كان يقتل بكلماته... أيكون هو؟

6

هنالكَ مواعيدُ وهميّة أكثرُ مُتعةً من كلّ المواعيد

صباحًا، عند التاسعة تمامًا، استيقظت على رنّة الرسائل.

«سلام من مطار ستوكهولم. الثامنة بتوقيتي.. التاسعة بتوقيتك. أما آن لعقارب ساعتينا أن تتوحّدا؟».

لعلّها رسالة أخطأت وجهتها، تمنّى لو أرسلها إليها وكنت صندوق بريدها. ما قاله ما كان لي بل لها. إنّه يواصل مواعدتي بتوقيتها!

للفراق كيمياء تفوق كيمياء الانصهار. فقط عندما يفترق عاشقان يتوحّدان.

تردّدت في الجواب. ثمّ قرّرت أن أردّ بما سيلتقط شيفرته:

«مشغولة بالكتابة. سأقنع القلم الذي لا يثق بوفاء الورقة، بأنّني لن أسلّم حبره للممحاة، وأقنع الممحاة بألّا تتألّم ما دام في طرفها الآخر قلمًا، وأقنع القلم بأنّ ما نكتبه في الروايات ضرب من الحلم، ذلك أنّني وثقت دومًا بالحبّ لا بالمحبّين».

لم يردّ بأيّ كلمة على رسالتي. لقد نقلت المفاجأة إليه. دفعة واحدة، هو يدري الآن أنّني اطّلعت على رسائله وأعرف من يكون... وأنّنا لن نلتقي.

في الواقع، أنا أفتقد قلم الرصاص المدرسي الذي بطرفه ممحاة. كان يخفّف من ذعري حين أكتب، لعلمي أنّ ما أخطّه قابلٌ للمحو، وأنّني في أداة واحدة أملك اختيارين.

تمنّيت لو أنّ الممحاة أداة من أدوات الحياة، لا من عدّة الكتابة، كي نمحو بها ما ندمنا على فعله، في نصّ حياتنا المليء بالحماقات. كحماقة تواصلي مع غريب اتّضح أنّه كان حبيب صديقتي..

أليس هناك من طريقة، تمكّننا من مسح سذاجة أخطائنا؟ نريد زرًّا نضغط عليه فنُعيد شاشة حياتنا بيضاء، فلا نُشهد أحدًا على ضعفنا أو جنوننا، وزرًّا لمسح ما بُحنا به وكان يجب أن نحتفظ به لأنفسنا، ما قلناه للشخص الخطأ، وما أخطأنا حين رفعنا بالثناء مَن لم يكن يستحق مدحنا. نُطالب بحقّنا البشريّ في الخطأ وفي التصحيح، وحقّنا التكنولوجي في الحذف وإعادة كتابة نصّ حياتنا. نطالب في هذا المسرح الكبير الذي نقف عليه دون أن نكون مهيّئين لأدوارنا، بحقّ الممثلين في بروفة تسبق العرض، كي نخطئ ما شاء لنا المشهد، ونستعدّ لتقمّص شخصيّات يقتضيها الظرف، ونتمرّن على التمثيل قبل الخروج إلى الجمهور، كي لا يكتشف الآخرون كم نحن شذّجٌ، وصادقون، فيشرعوا في التنكيل بما كان جميلًا وبريئًا فينا!

لا بدّ في كلّ قصّة حب، أن تكون لنا بروفة نفترق فيها قبل أن نلتقي، كي لا نشقى إن بعد اللقاء افترقنا.

افترقنا إذن.. قبل الذكريات بقليل.

لن تكون لنا مواعيد، ولا أماكن مسكونة بالحنين نتحاشاها. ولا مكالمات علقت نبرة كلماتها في تلابيب الروح، نشقى بتذكّرها. لا صوت سنحزن لاحقًا لعدم سماعه، ولا توقيت سينبّهنا بأنّ الهاتف لم يدقّ على الوقت.

افترقنا أحرارًا من الماضي. لم نكتسب عادات الحبّ التي يصعب كسر أصفادها. أحبطنا مؤامرة الألفة على العشّاق، وكيد الأشواق عند الفراق، وحسرة الندم بعد الحماقات.

افترقنا قبل المتعة.. وقبل العذاب.

قبل الاختبار وقبل الندم.

قبل السعادة وما يليها من ألم.

افترقنا من دون أن ندري هل كان في حبّنا من خيانة لأحد؟ هل كنّا سنتفق لو التقينا؟ هل كنّا سنبقى معًا لو اتفقنا؟ هل كنّا سنفي بوعودنا لو وَعدنا؟

هل كانت الكائنات جميعها ستغيّر قناعتها حقًا وتثق بوعود العشّاق؟

أشياء كثيرة لن ندري بها، في جهلنا بها سعادتنا، فلقد اختصرنا الذكريات ما استطعنا.

على الذين يعيشون حبًّا متصدّعًا آيلًا للسقوط، وُلد لأمدٍ محدود، أن لا ينتظروا أن ينهار سقف أحلامهم، ليأخذوا قرار المغادرة، فقد ينتهون تحت أنقاض الأوهام.

ليغادروا باكرًا، بوجعٍ أقل. قبل أن تمتلئ هواتفهم بالرسائل التي ستصبح مصدر شقائهم، وتفيض مفكّراتهم بالمواعيد التي لن ينساها القلب. وتتزايد شوارع الماضي التي مشوها معًا، فتطوّقهم الذكرى سجنًا من كلّ صوب.

7

هنالك عشّاق أخطأوا طريقهم إلى الحبّ.
هنالك حبّ أخطأ في اختيار عشّاقه

مرّ أسبوع قبل أن تطلبني كاميليا.

– حبيبتي كيف أنت؟ اعذريني انشغلت كثيرًا لكنّك دومًا بالبال.

– لا تهتمّي، أتفهّم ذلك... عساك بخير.

– تمام.. لكنّ الجنين يتحرّك كثيرًا في الفترة الأخيرة وأفضّل العودة في أقرب وقت. لقد دخلت الشهر السابع – أضافت مازحة – وأنت كيف الحمل معك؟

– أنا أجهضت!

– لا تحزني، هذا أفضل.. ماذا كان سيأتيك من حبّ الأنترنت غير المشاكل؟ إنّ حبًّا يولد في عالم افتراضي هو حبّ افتراضي.

– الحبّ الحقيقي إذن أصبح من الزمن الماضي!

– بالمناسبة، هل قرأت الرسائل؟

– قرأتها.. إنّها جميلة وموجعة، لقد أحبّك حقًا هذا الرجل، لعلّك ظلمته.. إلى الآن لم تخبريني لماذا افترقتما؟!

– افترقنا لأنّه ما كان يريد أن يغيّر مهنته. لقد خطفوه مرّتين، وظلّ يعمل مراسلًا حربيًّا، تصوّري، كيف يمكنني أن أهنأ وأنجب أولادًا من رجل حياته على كفّه، حاولت أن أجعله يغار ربّما عاد لعقله وفضّل الزواج على حياة الجنون التي يعيشها. قلت له هناك رجل أعمال جادّ يريد أن يتزوّجني وإذا به ركب عقله وقال لي «الله يهنّيك بيه» ومضى. ترك حتى الجريدة التي كنّا نعمل فيها معًا حتى لا يلتقيني، ثمّ سمعت أنّه غادر إلى الخارج. تعذّبت كثيرًا وما أردت أن أخبرك بأنّه تركني من جديد. وقتها ما كان من أحد في حياتي. كنت قد كذبت عليه، وفي الأخير تصوّري، الحياة عملت من الكذبة حقيقة، فقد خطبني رجل أعمال فتزوّجته لأخلص من هذه القصّة.. وأنا عن جدّ سعيدة معه، ألم تقولي «دعي الله يقرّر عنك»... لقد تزوّجت رجلًا اختاره الله لي.

– إذن حبيبتي لا داعي لفتح مجلس عزاء... اشكري الله لأنّه أخذ أمانته العاطفيّة وعوّضك بما هو أفضل.

– المشكل أنّ عماد يظنّ أنّني خنته وأنّني كنت على علاقة بزوجي منذ البدء، وهذا الأمر خلق لديه ردّ فعل قاطعًا لأيّ تسامح، لكن أعترف بأنّه كان نبيلًا في انسحابه. لم يأت على ذكري أمام أحد، ولا انتقم بتشويه سمعتي أو إيصال حديث ما لزوجي، وهذا بالذات ما جعلني عاجزة عن نسيانه، فالنبيل عندما ينسحب يجرحك بنبله!

– حرام أن يضيع حبّ كهذا بسبب الغيرة والكبرياء والكرامة، كان لا بدّ من أن يقدّم تنازلات ما دام يحبّك، لكنّ كلّ فراق مبنيّ على سوء الفهم ولا أحد يمنح الثاني فرصة شرح ما حدث. أسفي على

الوقت الذي قضيته تبكين وتتعذّبين وتعذّبينني معك، حتى كتبت «نسيان. كم» فقط لأنتشلك!

قالت:

– ذكّرتيني.. بالمناسبة هناك كاتبة يا الله شو بتكتب مثلك لكأنّها أنتِ، أصدرت كتابًا يشبه أسلوبك تمامًا، نسيت عنوانه، سأرسله لك إن عثرت عليه في المطار.. ليتك تقرئينه، يمكن أن يردّك إلى صوابك إن لم تستطيعي نسيان ذاك الرجل الطالع من كتبك!

كدت أصحّح لها «بل هو طالع من رسائلك» لكنّني احتفظت بالسرّ لنفسي. أودّ أن يبقى جميلًا في ذاكرتها، ولا أريد أن أشوّش على صداقتنا. لن تعرف أبدًا كم كان يعني لي ذلك الرجل، وكم كان يشبه أبطالي ويشبه لغتي، حتى إنّ بإمكاني توقيع كلّ ما كتب.

قلت:

– على اللائي يستسهلن تقليدي أن يقلّدن لغة أبطالي إن استطعن لشموخهم سبيلًا، لكن ابعثي لي بهذا الكتاب... ما أدراني لعلّي أتعلّم منه ما كنت أعلّمه لغيري!

ودّعتني كاميليا ضاحكة. وتركتها وأنا أكثر أسى. لم تكن تدري أنّها بما قالته لي عنه زادتني إعجابًا به. برغم شقائها تحبّ المرأة الرجل الذي يبقى ثابتًا على مبدئه، لذا لم تُشفَ كاميليا من هذا الرجل. هي ليست مريضة بحبّه بل بعنفوانه. وهي لا تعاني من فراقه، بل من تلك الأسئلة التي رافقت فراقهما وتبدو أمامها كلّ الذرائع واهية.

لقد أرهقت نفسها بالسّؤال. أيّهما أخذ قرار الهجران، ومن منهما إذًا الأكثر خيانة؟

الحقيقة أنّ لا أحد يهجر أحدًا. الحبّ هو الذي يهجر المحبّين.

لا أحد يخون الآخر. الصبر يخون الاثنين، عندما لا يعود له من صبر على تلك الخيبات التراكميّة. ولا قدرة له على حلّ الأزمات الصغيرة التي تتوالد، ملتهمة يومًا بعد يوم آخر المساحات الجميلة بين حبيبين.

لماذا يفترق العشّاق؟

كلّ شيء وضدّه يصلح مبرّرًا للفراق:

التخمة العاطفيّة التي تولّدها العادة، كما الجوع الدائم للآخر، حدّ التمرّد عليه. فأنت لا تغفر له تبعيّتك وحاجتك إليه كلّ حين، ولا تغفر لنفسك قبولك اقتسامه مع الآخرين.

نهجر عندما نغار حتى تعمينا الغيرة عن رؤية من نحبّ.

ونهجر عندما نثق بالآخر إلى حدّ لا نعود نرى الخطر القادم الذي يهدّد الحبّ.

نهجر عندما يزيد الحبّ عن حدّه..

ونهجر عندما ينقص منسوب الحبّ داخل الحبّ.

نهجر عندما يصبح حبّنا خطرًا علينا، خشية أن نموت بصاعقته.

ونهجر لأنّ التيّار الكهربائي بيننا انطفأ.

نهجر لفرط الشوق الذي يجرفنا تيّاره ولا مصبّ لشلّاله.

ونهجر لموت الشوق حين يجفّ تدريجًا نبعه.

نهجر لفرط الحرّية... كما لفرط العبودية.

لفرط الوفاء... كما لفرط الخيانة.

لفرط حاجتنا... كما لفرط استغنائنا.

في ذروة كلّ إحساس عاطفي، نحن مهدّدون ببلوغ ضدّه. فكلّما كان الحبّ كبيرًا، كان احتمال الفراق أكبر.

لذا، لنغفر للمغادرين عند نهاية حبّ كبير. لعلّ من هجر قد فعل ذلك لأنّه أحبّنا كما ليس في مقدور أحد أن يحبّ، ولعلّ الخيار كان بين أن يموت حبًّا.. أو يجهز علينا هجرًا.

8

ما أجمل الذي حدث بيننا،
ما أجمل الذي لم يحدث،
ما أجمل الذي لن يحدث

إنّها الرسالة الأخيرة التي تمنّيت لو أضفتها إلى تلك الرسائل التي لن تقرأها كاميليا. لولا أنّي فقدت الرغبة في الكتابة، بما في ذلك مواصلة هذا الكتاب الذي توقّعت فيه كلّ شيء إلّا نهاية كهذه.

يقال إنّ أجمل الروايات هي تلك التي لا يعرف الكاتب نهايتها مسبقًا. كيف لي أن أعرف نهاية قصّة كانت الحياة تشاركني كتابتها في كلّ فصل؟ ذلك أنّ الحياة لا تترك للروائيّ زهو الفوز بالكلمة الأخيرة. حال شروعه في الكتابة، تضع له من خارج النص شخصيّات لم يحسب لها حسابًا. أتراني كتبت رواية جميلة حين كنت أجذّف دون أن أعرف تمامًا وجهتي، إذ مثل ماركو بولو الذي وصل إلى أميركا وهو يحسَب أنّه اكتشف الهند وجدتني أعود إلى الماضي أثناء ظنّي أنّني بلغت شاطئ النسيان؟ ذلك أنّ في كلّ محاولة للنسيان تحرّشًا بالذاكرة.

لم يدر الإنسان أين يواري جثمان الذاكرة، فاخترع القصائد والقصص والروايات لتكون مقبرة للكلمات.. ثمّ وقع في كمينها.

أكبر الفجائع موت الكلمات التي وثقنا بها وعشنا عليها، لكن لا أحد عند موتها يدعو لنا بالصبر والسلوان، أو يعزّينا فيها لاعتقاده بأنّها مجرّد كلمات!

تلك الكلمات التي ماتت في حوادث طرقات الحبّ، التي لا إشارات فيها، ولا أضواء نستدلّ بها في تيه العواطف، الكلمات القتيلة، وتلك الثكلى النازفة، التي فقدت حبيبًا عقدت عليه شفهيًّا قرانها، واليتيمة التي تخلّى عنها عاشقان سبق أن وهباها الحياة، الكلمات اللئيمة التي تعلق بتلابيب الذاكرة ولا مجال لنسيانها. الكلمات الضائعة في قسم المفقودات ولا أحد يدري مَن أصحابها، ومن ذا الذي وعد بها حبيبًا ونسيها في أذنه، الكلمات الكاذبة التي مات مشنوقًا بحبل أكاذيبها أجيالٌ من العشّاق، والخجولة التي لن يسمع صوتها أحد، برغم كونها كانت الأصدق، الكلمات الوديعة كنسمة، وتلك الأكثر جسارة، التي لا نَسب لها لكن ستنتشر كوباء.

الكلمات التي تشبهنا، وتلك التي تشوّهنا. التي تكثر من الزينة، وتلك الظنّينة الرصينة. تلك الثرثارة، والأخرى الحذرة المكتظة بأسرارها.

ثمّ.. هناك تلك الكلمة الصفعة التي نستيقظ على دويّها، والكلمة الكمين التي نقع مغمضي العينين فيها. الكلمة التي سنصبح لها عبيدًا لأنّنا بحنا بها، وتلك الكلمة السرّ التي سنحتفظ بها وستموت معنا، وتلك التي لفظناها وأودت بنا. الكلمة التي دسّها في تفّاحة حبّنا حاسدٌ ما فتسمّمنا بها، والكلمة النصيحة التي وشوشها أحدهم في أذننا فهبّت لنجدتنا، وتلك التي نودّ لو منحتنا الحياة فرصة أن

نقولها لذلك الذي لم يمنحنا فرصة قولها، لكنّه غادرنا... غير متوقع أن يغدر به الرحيل!

هل يعرف من لم يتوقع الرحيل باكرًا أنّ الكلمات لا تنتظر؟!

إنّ كلمات الحبّ لا تغفر لاثنين؟ من يحتفظ بها عن مكابرة أو لؤم، وذاك الذي عن ظلم لم يمنح الآخر فرصة أن يقولها؟

مرّت عشرة أيّام، حين وصلتني منه ذات مساء رسالة هاتفيّة. بضع كلمات اختارها بنيّة أن تعلق بي كما الأعشاب البحريّة. أظنّه كتبها وهو يغادر بيروت ولعلّها آخر ما سيصلني منه:

«لم يحدث أن التقينا كما مذ باعد بيننا الفراق... ليتك جئت لنفترق أخيرًا».

رسالة جميلة كقصيدة، في مدّها وجزرها تصلح نهاية لفالس، عن فراق الذين يختبروننا بالفراق، والذين يختبرنا الفراق بهم، لكنّها لن تغيّر قراري. لا.. لن ألتقيه. المسافة كالكرامة، تجعل كلّ شيء ثمينًا إلى أقصى حدود الخسارة. دومًا كان لي افتتان بالخسارات الجميلة في فداحتها القصوى. فلفرط خساراتي أصبحت كاتبة. الكاتب ابن خساراته. لذا دومًا احتفيت بخساراتي، فالفقدان هو مداد الكتابة.

ليلًا تستيقظ خساراتي مثل أزهار مسك الليل، كلّما حرَّكتها الذكرى ازداد شذاها. مكلفة، تلك الخسارات الجميلة التي اخترناها بملء إرادتنا، لكن لها شذا عنفوان لا يفارقنا، كتلك الكلمات الشامخة التي لم تنحنِ لتقولها للسادة الكبار، الكلمات الصغيرة ذات الخسارات الكبيرة التي قد يختصرها حرفان باهظان، «لا» والتي نقلت إلى لغة قلبك مكابرتها فغدا يقول «لا» حين يودّ لو يقول «نعم». ذلك أنّ الكلمات التي نلفظها تلفظنا على شاكلتها.

في زمن الفرقة، والفراق الذي لا عودة منه، يقف العشّاق في مجرى الهوى في مفترق زماننا العربي. ينشطرون، يتناحرون، يتشظّون، فيضيع الحبّ كما ضاعت الأوطان. لم يحدث للفراق أن كان أشدّ قسوة، أكثر إجرامًا، أكثر لامبالاة. لطفرته، أصبح يسبق المواعيد، يحضر قبل اللقاء، لا يترك لك فرصة لأيّ مشروع. فهو المشروع الوحيد الذي يمكنك الرهان عليه.

ها قد وصلت حيث لم تتوقع.. أيّها الكاتب توقف عن التجذيف بيد واحدة!

الفراق قد يكون في خفّة ورقة بيضاء، تخشى الاقتراب منها، لكن ما إن تكتب السطر الأول حتى تمضي في الكتابة دون توقف، حدّ نسيانك لماذا أنت تكتب. يحدث للفراق أن يكون هديّة، أن يكون هداية. الفراق بداية رواية جديدة تنتظرنا وما كنّا نتوقع فصولها، لأنّ الفراق يأتي دائمًا على شكل فاجعة.

هنا تنتهي حكايتنا. متعبة أنا بقصّة ما كانت لولا الكتابة أن تكون قصّتي. ما أحتاج إليه الآن هو قضاء بعض الوقت مع كامي.. وإغلاق هاتفي وحاسوبي لبضعة أيّام. سأعمل بنصيحة بوكوفسكي الذي قال «عندما أشعر بالإحباط كلّ ما أفعله هو مشاهدة قططي لأستردّ شجاعتي، أنا أدرس هذه الكائنات. إنّها مرشدتي».

لعلّ كامي تفوقني بصيرة، لعلّها في عدم احتفائها بكاميليا، ووقوفها عند الباب لحظة مغادرتها، أرادت أن تقول لي أن أضع قصص الماضي خارج حياتي وأعود إلى سكينتي وكتاباتي، وتعود هي إلى غفوتها على الأريكة المقابلة لي.

أغدَت قطتي مرشدتي؟ هي التي تقع سبع مرّات وتنهض واقفة، وأنا التي كتبت كثيرًا لأسند من خِفت عليهنّ من السقوط حتى وقعت!

وضعتُ كامي في حجري ورحت أداعب فروها الجميل، وأمرّر يدي على عنقها، كما لأشكرها على كلّ ما تقوله لي دون أن ترهقني بالنصائح، كما استسلامها الآن لمداعباتي والنوم في حجري، بحيث تمنعني من تغيير رأيي والنهوظ لإحضار الحاسوب لمراجعة ما كتبته على مدى ستّة أشهر.

عادة، تلازمني رغبة في الاحتفاظ طويلًا بأيّ مخطوط وإعادة قراءته مرارًا قبل إرساله إلى المطبعة، بل ومطاردته حتى المطبعة، لاعتقادي أن لا أخطر من إقدام كاتب على نشر كتاب، فدومًا أرعبني ما ليس يُمحى. لكنّي هذه المرّة قرّرت ألا أعيد قراءة ما كتبت، وأن أرسل هذا الكتاب كما كتبته في تدفّقه الأوّل إلى ناشري، ليكون أول تمرين في الفراق، قرار انفصالي عن مخطوطي هذا، قبل أن تتشبّث بي كلماته.

ألهذا كان فولتير حين ينهي كتابًا يكسر أقلامه، ويضعها تحت وسادته وينام خشية أن تعاوده الرغبة في الاستيقاظ وإعادة كتابتها؟ لكن في زمن الكمبيوتر ليس لديّ ما أكسره، ولا جدوى ممّا أكتبه عن الحب وأعيد مرارًا مراجعته بحماقة تلميذة نجيبة في صفّ النسيان، تواظب كلّ يوم على نسخ ما يجب أن تنسى، ثم ينتهي بها الأمر أن تستعين بكتابٍ لغيرها يساعدها على قبول وجع النهايات.

في انتظار الكتاب الذي وعدتني به كاميليا، لن أتوسّد أقلامي، بل أحلامي. فليكن، انطلت عليَّ حيَل الحب جميعها، لكنّه كلّما أبكاني، أهداني مع المناديل خدعةً جميلة، لكتابة رواية.

يا لحظّك أيّها الكاتب... ما حاجتك إلى ساعي بريد!

عزيزي القارئ
هذه صفحة لك...

حتمًا ثمّة رسالة وودتَ لو أنّك كتبتَها،
لكنّك لم تجد لها من ساعي بريد.
خبّئها إذن بين دفّتيْ هذا الكتاب،
وأهدِ النسخة لمن تشاء... من دون توقيع ولا أسماء.
وحدها الروايات تمكّننا من تهريب المشاعر
وإطالة حياتها بين طيّات كتاب!

ما كنت أريد من العالم كلّه إلّا أنت
واليوم أقول: «لك العالم كلّه إلّا أنا»
مكتبة نوميديا 84
Telegram@ Numidia_Library

«هي امرأةٌ عظيمة، وكاتبة كبيرة، رائدة في مجالها مناضلة تنحدر من سلالة الكتّاب الذين تبنّوا عبر التاريخ القضايا الكبرى».

إيرينا بوكوفا، المديرة العامة السابقة لمنظمة اليونسكو

أحلام مستغانمي

- كاتبة جزائرية، حاصلة عام 1985 على دكتوراه في علم الاجتماع من جامعة السوربون على يد البروفيسور جاك بيرك.
- حقّقت أعمالها نجاحًا جماهيريًّا واسعًا في العالم العربي.
- صنّفتها مجلة فوربس الأميركية في عام 2006 الكاتبة العربية الأكثر انتشارًا في العالم العربي، بتجاوز مبيعات كتبها المليونَي نسخة.
- لديها أكثر من 12 مليون متابع على صفحتها في فايسبوك.
- مُنحت لقب سفيرة اليونسكو من أجل السلام عام 2016.

ISBN 978-614-438-625-5
9 786144 386255
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان A.
الموزّع الحصري في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
دار العزة والكرامة للكتاب
041 46 16 89 - 021 23 42 31
www.darelizza.com